

١٠٠

قِصَّةٌ مِنْ نِهَايَةِ الظَّالِمِينَ

هاني الحاج

AMIR ARAB

amirarb.blogspot.com

صلى كسيرة

المكتبة التوفيقية

١٠٠ قِصَّةٌ مِنْ نَهَايَةِ الظَّالِمِينَ

تأليف

هاني الحاج



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد لله المبدئ المعيد، العزيز الحميد، ذى العفو الواسع، والعقاب الشديد، أحمده وهو أهل الحمد والتحميد، والشكر لديه من أسباب المزيد، سبحانه وتعالى قسم الخلق قسمين وجعل لهم منزلتين، فريق فى الجنة، وفريق فى السعير، من هداه فهو السعيد السديد، ومن أضله فهو الطريد البعيد، ومن وفقه للخير فهو الرشيد.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد ورسوله.

أما بعد:

فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء (١).

قال السعدى: هذا وعيد شديد للظالمين، وتسليية للمظلومين.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث أمهلهم وأدرّ عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون فى البلاد، آمنين مطمئنين، فليس فى هذا ما يدل على حسن حالهم، فاء الله يملئ للظالم ويمهله، ليزداد إثماً، حتى إذا أخذه، لم يفلته ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (٢)، والظلم ههنا يشمل الظلم فيما بين العبد وربّه، وظلمه لعباد

(٢) سورة هود: ١٠٢.

(١) سورة إبراهيم: ٤٠، ٤١.

الله، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى: لا تطرف من شدة ما ترى، من الأهوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى: مسرعين إلى إجابة الداعى حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص، ولا ملجأ. ﴿ مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ أى: رافعيها قد غلت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك، رؤوسهم، ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً ﴾ أى: أفدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم، وحزن وقلق. اهـ.

فيا مبادراً بالظلم ما أجهلك، إلى متى تغتر بالذى أمهلك، كأنه قد أهملك، فكأنك بالموت وقد جاء بك وأنهلك، وأذن بالرحيل وقد أفزعك المملك. وأسرك البلا بعد الهوى وعقلك، وندمت على وزر عظيم قد أثقلك، يا مطمئناً بالفانى ما أكثر ذلك، ويا معرضاً عن النصح كأن النصح ما قيل لك.

أين من حصن الحصون المشيدة واحترس، وعمر الحدائق فبالغ وغرس، ونصب لنفسه سرير العز وجلس، وبلغ المنتهى ورأى الملتمس وظن فى نفسه البقاء ولكن خاب الظن فى النفس أزعجه والله هازم اللذات واختلس ونازله بالقهر فأنزل عن الفرس، ووجه به إلى دار البلاء فانطمس.

فاشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة والثلثن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتى على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾، ﴿ يوم يعرض الظالم على يديه ﴾.

فخف القصاص غداً إذا وفيت ما

كسبت يداك اليوم بالقسطاس

فى موقف ما فيه إلا شاخص
أو مهطع أو مقنع للراس
أعضاؤهم فيه الشهو وسجنهم
نار وحكمهم شديد الباس
إن تمطل اليوم الحقوق مع الغنى
فغداً تؤديها مع الإفلاس

وكتبه

هانى الحاج

عملي في الكتاب

لقد جمعت هذه القصص نزولاً على رغبة الأستاذ/ عبد الحميد صاحب المكتبة التوفيقية. وذلك بما فيها من شرور أصحابها وبما كان من عاقبة ذلك على أصحابها لتحصل العبرة للمعتبرين، والازدجار للظالمين، والموعظة للمتقين.

وليس لي في إعداد الكتاب من الافتخار، أكثر من حسن الاختيار، فإن استجد قارئه ما استجدت، واستحسن ما أوردته، ووجد في ثماره المتعة بعض ما وجدت، أكون قد وفقت إلى ما قصدت، وبلغت ما أردت^(١).

(١) وقد كان جل اعتمادي على «الجزاء من جنس العمل» للدكتور سيد حسين العفاني وهو كتاب جامع فيه الكثير من الفوائد. وأيضاً «قصص وعبر» ليوسف العجلان. وأيضاً «التحذير من سوء الخاتمة» للسحيباني.

[١] أشقى الخلق (إبليس اللعين) ^(١) زعيم المالكين

إبليس كما هو معلوم للجميع خلق من النار قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ ^(١). وعن عائشة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم» ^(٢).

والنصوص تثبت أن إبليس - لعنه الله - من الجن. قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ^(٣).

وعن ابن عباس كان اسم (إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل) وكذلك قال سعيد بن جبير، وقال الحسن البصرى «لم يكن من الملائكة طرفة عين وأنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر» فلما أراد الله تعالى خلق آدم ليكون في الأرض هو وذريته ومن بعده وصور جثته منها جعل إبليس وهو رئيس الجن وأكثرهم عبادة إذ ذاك يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك، وقال: أما لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت على لأعصينك فلما أن نفخ الله في آدم من روحه وأمر الملائكة بالسجود له دخل إبليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ^(٤)، فخالف أمر الله واعترض على الرب عز وجل وأخطأ في الأدب مع مولاه وابتعد من رحمة ربه وأنزل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه ملخوق من نار وهم من نور فخانته طبعه في أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله النار ورفض السجود لآدم - ﷺ - فأهبط إبليس من الملائكة الأعلى فنزل إلى الأرض حقيراً ذليلاً مذموماً مدحوراً متوعداً بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس.

(١) سورة الحجر: ٢٧.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة الكهف: ٥٠.

(٤) سورة الأعراف: ١٢.

فالطرد من رحمة الله كان الجزاء لعصيان أوامر الرب سبحانه وتعالى
وجزاء الكبر والعجب وذلك لرفضه السجود كما أمر الله بدعوى أنه خير من
آدم.

فطلب الإنظار إلى يوم القيامة وتوعد آدم - عليه السلام - وذريته كما في سورة
الأعراف «١٤، ١٨».

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا
أَعُوذْتَنِي لِأُقْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَبْيَهُمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْعُومًا
مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

قال ابن كثير: إبليس - لعنه الله - حتى الآن منظر إلى يوم القيامة بنص
القرآن وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين
الناس الشر والفتن.

فعن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «إن الشيطان يضع
عرشه على الماء يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة
يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا فيقول
إبليس لا والله ما صنعت شيئاً ويجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه
وبين أهله. قال فيقربه ويدنيه ويقول نعم أنت»^(١). (نعم) (بكسر النون) بمعنى
أنت الذي تستحق الإكرام.

أما عن جزائه في الآخرة كما قال الحسن: «إذا كان يوم القيامة قام
إبليس خطيباً على منبر من نار فقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَا أَنْتُمْ
بِمُصْرِحِينَ ﴾ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ»^(٢) قال: بطاعتكم إياي في الدنيا
فمصيره منبر من نار كما كان يضل الناس عن سبيل الله جزاءً وفاً^(٣).

(١) رواه مسلم. (٢) سورة إبراهيم: ٢٢. (٣) الجزاء من جنس العمل.

[٢] نهاية الطمع وعدم الرضا

وهذه قصة أول قاتل في تاريخ البشرية وانظر إلى حقارة الإنسان عندما تستولى عليه الشهوة وتتبدل مشاعره ويتحجر قلبه ويموت ضميره فإنه يتحول إلى وحش كاسد وإلى ثعلب ماكر وإلى شيطان مرید.

في البداية من هما قابيل وهاييل؟

قابيل كان رجلاً أنانياً تملكت عبادة الذات من نفسه فطمست على عينه وقلبه وكان يعمل (حراثاً) أى يشتغل بالزراعة.

هاييل: وهو أخوه من بطن ثانية وكان رجلاً طيباً صالحاً يحب الخير للغير عابداً لله، موقراً لأوامره وكان يعمل برعى الأغنام.

وكبر الأبناء وشب الإخوة في رعاية أمهم حواء وأبيهم آدم.

عن سعيد بن المسيب. قال: إن الله أمر آدم أن يفرق في النكاح من كل بطن هذا لتلك وتلك لهذا... .

امثل آدم أمر ربه وأفضى لقابيل وهاييل بما أمره الله إلا أن قابيل رفض ما قاله آدم، ولم يرض بهذا الزواج لأنه اعتبر أن توأمه هاييل أقل جمالاً من توأمته وحسد أخاه على الزواج من شقيقته (لوذا) ولم يرض بالقسم وجمع عن طاعة والده ولعبت به نوازع الشر والفساد ولعب به الحسد ذات اليمين وذات الشمال بينما كان هاييل يحتفظ بالهدوء والسكينة والوقار وامثل ما أمره به والده آدم.

وقال آدم لقابيل إن كنت لا ترض فقرباً قرباناً فمن يقبل قربانه فهي له أى الأخت الجميلة (لوذا).

فقبل قربان هاييل وحسد قابيل أخاه هاييل وانبعثت شروره وعندئذ قال لأخيه هاييل: قبل قربانك ولم يقبل قربانى لأقتلنك فأجابه هاييل ﴿لئن

بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ .

قال ابن عباس: خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر^(٢) وبذلك صور له هايبيل إشدافه هو من جريمة القتل ليشيه عما تراوده به نفسه وليخجله من هذا الذى تحدثه به نفسه تجاه أخيه المسالم الوديع التقى ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ ضربه بحجر وقيل بحديدة فقتله فحسر نفسه وخسر أخاه وخسر أباه وأمه. وخسر دنياه فما تهناً للقاتل حياة وخسر آخرته.

قال عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- «إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة، العذاب عليه شطر عذابهم»^(٣).

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل دمها لأنه كان أول من سن القتل»^(٤).

وعن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: «إن أشقى الناس رجلاً لابن آدم الذى قتل أخاه، ما سفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر وذلك أنه أول من سن القتل»^(٥).

[٣] قوم نوح

كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على الإسلام.

قال الحافظ:

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧١.

(١) سورة المائدة: ٢٨، ٢٩.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٢.

(٤) صحيح - رواه الجماعة سوى أبى داود.

(٥) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٢.

وقدمه الصالحين كانت مبدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك .

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر» أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتسخَّ العلم عبُدت .

فأرسل إليهم نوحاً أول رسول للبشر، وهو أحد أولى العزم من الرسل، ودعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وسلك إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب، ومتنوع الوسائل، في دأب طويل، وفي صبر جميل، وفي جهد نبيل ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وقد كان نوح مفصِّحاً مع هذا عن نذارته، مبيِّناً عن حُجته، لا يتمتم ولا يجمع، لا يتلثم في دعوته، ولا يدع لبساً ولا غموضاً في صفة ما يدعو إليه، وهم لا يواجهونه إلا بإعراض واستكبار واستهزاء: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١) وكان كلما انقضى جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربتة ومخالفتة، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح ما عاش، ودائماً ما بقي .

بعد كل هذا الجهاد، وبعد كل هذا العناء، وبعد كل هذا التوجيه، والتنوير، والإنذار، والإطماع، والوعد بالمال والبنين والرخاء، بعد هذا كله كان العصيان، وأوحى الله إلى نبيه نوح ما قصه في كتابه: ﴿وَأَوْحِي إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢) فدعا نوح على قومه: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٣) .

(٢) سورة هود: ٣٦ .

(١) سورة العنكبوت: ١٤ .

(٣) سورة الصفات: ٧٥ .

وأوحى الله إلى نبيه نوح: ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) حتى ما تحمله أرحامهم إن قدر لهم الخروج إلى الدنيا، لا يسوءنك فإن النصر قريب، والنبأ عجب عجيب.

وهنا دعا على قومه: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَفَّارًا ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (٣).

قال العلامة الألوسي - رحمه الله -:

استهزءوا به لعمله السفينة؛ إما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها، فتعجبوا من ذلك، وسخروا منه، وإما لأنه - ﷺ - كان يصنعها في برية بعيدة عن الماء وكانوا يتضحكون، ويقولون: يا نوح، صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً.

قال: إن تسخروا منا في الدنيا، فإننا نسخر منكم في الدنيا والآخرة، في الدنيا عند الغرق، وفي الآخرة عند الحرق.

وقال الشيخ محمد رشيد رضا:

نسخر منكم اليوم لجهلكم، وغداً لما يحل عليكم، فإن كنتم لا تعلمون اليوم بما نعمل، وبما سيكون من عاقبة أمرنا، فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذابه يذله، ويجلب له العار والتبار في الدنيا، ويحل عليه عذاب مقيم بعد ذلك في الآخرة.

اليوم لكم فرح وغداً ترح، اليوم حبرة وغداً عبرة، اليوم لطف وغداً أسف، اليوم لقاء وغداً بكاء، يوم ينكشف المستور عن المحذور!

(٢) سورة نوح: ٢٦، ٢٧.

(١) سورة هود: ٣٦.

(٣) سورة هود: ٣٨، ٣٩.

يقول الشيخ الشنقيطي:

لما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً، وأصبحوا لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً، فلزم تطهير الأرض منهم، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان.

وقال صاحب الظلال:

قد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص، الذي انتهى إليه القوم في زمانه، ومن زجل هذا استجاب الله دعوته، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر، وجرف العوثير التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١) بَعْدًا لَهُمْ من الحياة فقد ذهبوا، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكراً.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

قال ابن كثير:

الجودي: قال مجاهد: هو جبل بالجزيرة، تشامتخ الجبال يومئذ من الغرق وتطاوت، وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح.

والجزء من جنس العمل.

قال القرطبي:

لما تواضع الجودي وخضع عزاً، ولما ارتفع غيره واستعلى ذلّ، وهذه سنة الله في خلقه، يرفع من يخضع، ويضع من ترفع، ولقد أحسن القائل:

وإذا تذلت الرقابُ تخضعاً منّا إليك فعزها في ذلك

يذكر الله مصرع هؤلاء الملاحين بآية بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها،

(١) سورة هود: ٤٤.

(٢) سورة هود: ٤٤.

واستذلت مصافع العرب فسفعت بنواصيها، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنها نطاق البيان، وكانت من سمهرى البلاغة مكان السنان، عذبة على العذبات، سلسلة على الأسلات المؤمنة.

والعجيب أن هذه الآية كانت كطوفان نوح على أهل الفصاحة ومن أرادوا أن يعارضوا القرآن.

يروى أن كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن، فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً؛ لتصفو أذهانهم، فلما أخذوا فيما قصدوه، وسمعوا هذه الآية قال بعضهم لبعض: هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا.

ويروى أيضاً أن ابن المقفع - وكان كما في القاموس فصيحاً بليغاً، بل قيل: إنه أفصح أهل وقته - رام أن يعارض القرآن فنظم كلاماً، وجعله مفصلاً، وسماه سورا، فاجتاز يوماً بصبي يقرأها في مكتب، فرجع ومحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبداً وما هو من كلام البشر.

لطيفة:

لَمَّا عَمَّ أَهْلَ الْأَرْضِ الْعَمَىٰ عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، بُعِثَ نُوحٌ بِجَلَاءِ أَبْصَارِ الْبَصَائِرِ فَمَكَثَ يَدَاوِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَكَلَّمَهُم عَنِ الْمَحْجَةِ تَعَامِيًّا، فَلَاحَ لِلأَحْيَىٰ عَدَمَ فَلَاحِهِمْ، وَنَالَ الْيَأْسَ مِنْ صِلَاحِهِمْ، وَبِعَثَ شِكَايَةَ الْأَذَىٰ فِي مَسْطُورٍ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (١) فَأَذَنَ مَوْذَنَ الطَّرْدِ: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ﴾ (٢)، فَقَامَ نُوحٌ فِي مَحْرَابٍ: ﴿لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٣) إِنَّكَ إِن تَدْرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٣).

فات النور: ﴿وَفَارَ التُّنُورُ﴾ (٤)، وقيل: يا نوح قد حان الحين: ﴿احْمِلْ

(٢) سورة هود: ٣٦.

(٤) سورة هود: ٤٠.

(١) سورة نوح: ٢١.

(٣) سورة نوح: ٢٦، ٢٧.

يَبِيءُ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴿١﴾ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا
الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿٢﴾ .

أتى الماء فى موج كالجبال، يغسل ويطهر الأرض من جبال الخطايا
ودنس الشرك، والجزاء من جنس العمل ﴿٣﴾ .

[٤] « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم »

هذه قصة كنعان بن نوح الإبن العاق. قال تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ
أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤﴾ .

لبث نوح - ﷺ - فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى
عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام لكنهم أصروا واستكبروا استكباراً .

وأوحى الله إلى نوح «أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن» وأمره بأن
يصنع الفلك «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا» .

ولما فار التنور واقترب الوعد الحق وجاء أمر الله وفتح الله أبواب السماء
بماء منهمر وفجر الأرض عيوناً وصعد نوح والمؤمنون إلى السفينة ومعه من
كل زوجين اثنين ودخلوا فيها. وارتفعت السفينة فوق الماء وعلا الموج وغطى
الأرض وغرقت امرأة نوح، لم تركب مع المؤمنين فى السفينة ظنت أن بيتها
يمنعها من الماء ويحميها ولكن لا عاصم اليوم من أمر الله. ورأى نوح ابنه -
كنعان- فى جهة السفينة وبمقربة منها حيث يسمع النداء ولم ير امرأته يئس
من سلامتها ظن نوح أنها هى المستثناة وحدها وأنها هى التى سبق عليها
القول من الله تعالى بختم الكفر والعذاب فقط .

طمع فى إيمان ابنه الذى كان عهد منه قبل ذلك وكان ابنه -كنعان-
يُظهر له الإيمان ويبطن الكفر والأنبياء عليهم السلام إنما عنوا بالظواهر والله

(٢) سورة القمر: ١١، ١٢ .

(١) سورة هود: ٤٠ .

(٤) سورة هود: ٤٦ .

(٣) من «الجزاء من جنس العمل» .

يتولى السرائر. ولما رأى ابنه بمقربة من السفينة حيث يسمع النداء طمع في سلامته وحسن الظن أنه مؤمن فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(١). وقوله لابنه: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ دليل على أن نوحاً كان يعتقد إيمان ابنه.

فلما رد ابنه عليه ﴿سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾^(٢) قال له نوح: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.

قال الشوكاني عن كنعان بن نوح «كان منافقاً فظن نوح -عليه السلام- أنه مؤمن» ثم أصدر الله تعالى الأمر بغرقه ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾^(٣) ثم صدرت الأوامر للسماء والأرض ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْبَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

ومن هذه القصة يتبين لنا بأن الأنساب بغير الإيمان لا تمنع بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

قال الفخر الرازي: «فيين أن قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين» مفاتيح الغيب وفي الحديث الذي رواه أحمد في المسند وهو في صحيح الجامع رقم (٢٠١٢) «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا» وفي حديث مسلم وغيره «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

ويتضح لنا بأن الكبر والعقوق والاعتصام بغير الله نهايته الخسران والهلاك.

[٥] قصة عاد

وقد كانوا عرباً يسكنون الأحقاف -وهي جبال الرمل- وكانت باليمن

(٢) سورة هود: ٤٣.

(٤) سورة هود: ٤٤.

(١) سورة هود: ٤٢.

(٣) سورة هود: ٤٣.

بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١) وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وقد أعطاهم الله بسطة في الجسم.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴿٣﴾ فَجَعَلَهُمْ أَشَدَّ أَهْلَ زَمَانِهِمْ فِي الْخَلْقَةِ وَالشَّدَةِ وَالْبَطْشِ.

قال تعالى: ﴿ أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعِشُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (٤) أرسل الله إليهم نبيه هوداً، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فلما أبوا إلا الكفر بالله - عز وجل - أهلكهم الله.

أما تفصيل إهلاكهم: فقد قال ابن إسحاق: لما أبوا إلا الكفر بالله - عز وجل - أمسك عنهم المطر ثلاث سنين، حتى جهدهم ذلك، وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه، إنما يطلبونه منه بحرمة ومكان بيته - وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون -، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها: جلهذة بنته الخيبرى - قال: فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً؛ ليستقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة، فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان - قيتان لمعاوية - وكانوا قد وصلوا إليه في شهر. فلما طال مقامهم عنده، وأخذته شفقة على قومهم، واستحى منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعراً يعرض لهم بالانصراف، وأمر القيتتين أن تغنيهم به، فقال:

(٢) سورة فصلت: ١٥.

(٤) سورة الشعراء: ١٢٨، ١٢٩.

(١) سورة الفجر: ٦، ٧.

(٣) سورة الأعراف: ٦٩.

ألا يا قِيلَ وَيَحْكُ قَمُ فَهَيْمٌ
 فَيَسْقَى أَرْضَ عَادٍ إِنْ عَادًا
 مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو
 وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ
 وَإِنَّ الْوَحْشَ يَأْتِيهِمْ جَهَارًا
 وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ
 فَفُصِّحْ وَفِدْكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ
 لَعَلَّ اللَّهَ يَمْنَحُنَا غَمَامًا
 قَدْ امْسُوا لَا يُبَيِّتُونَ الْكَلَامًا
 بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْغَلَامَا
 لَقَدْ أَمَسْتُ نِسَاؤَهُمْ أَيَّامًا
 وَلَا يَخْشَى لِعَادِيَّ سَهَامَا
 نَهَارُكُمْ وَلَيْلُكُمْ تَمَامَا
 وَلَا لُقُّوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له، فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم - وهو قيل بن عنز - فأنشأ الله سحابات ثلاثا: بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم ناداه من السماء: اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب. قال: فاخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء. فناداه: اخترت رمادا رمدا، لا تبقى من عاد أحدا، لا والدا تترك ولا ولدا إلا جعلته همدا، إلا بنى اللودية همدا. قال: وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم، قال: ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة. وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النعمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (١)، أى كل شيء أمرت به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها: فهد، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت. فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا فهد؟ قالت: رأيت ريحا فيها كشهد النار، أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك، قال: واعتزل هود - عليه السلام -

(١) سورة الأحقاف: ٢٤، ٢٥.

فيما ذُكر لي، هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود ويلذ الأنفس، وإنما لتمر على عاد بالطنع فيما بين السماء والأرض. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (١) لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكى في القرآن: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ (٢) كوامل متتابعات، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (٣) مصروعين مجدلين متناثرين، كأنهم أعجاز نخلل بجذوعها وأصولها فارغة، تأكلت أجوافها، فارقت ساقطة على الأرض هامدة، كانت الريح تجيء إلى أحدهم فتحمله، ترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه، فيبقى جثة بلا رأس، كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ (٤) تنزع النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٥) ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ (٥). هذه الريح ما أنتجت خيراً، ما نثرت سحاباً ولا لقحت شجراً.

وقال ابن حجر في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ (٦) قال البخارى: بقية، ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل ويراد به القتل الشديد القوى، إشارة إلى أنهم موصوفون بالشدة والقوة اهـ.

وفي الصحيحين عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور».

وعن عليّ موقوفاً، فيما أخرج ابن أبي حاتم، قال: «لم ينزل الله شيئاً من الريح إلا بوزن على يدي ملك، إلا يوم عاد فإنه أذن لها دون الخزان فعتت على الخزان».

قال الحافظ في الفتح: كانت ديارهم أخصب البلاد وأكثرهم جنائماً فلما سخط الله -جل وعلا- عليهم جعلها مفاوز.

- | | |
|----------------------------|-------------------------|
| (١) سورة الحاقة: ٦. | (٢) سورة الحاقة: ٧. |
| (٣) سورة الحاقة: ٧. | (٤) سورة القمر: ١٩، ٢٠. |
| (٥) سورة الداريات: ٤١، ٤٢. | (٦) سورة الحاقة: ٨. |

عن أبي وائل عن رجل من ربيعة قال: قدمت المدينة، فدخلت على رسول الله - ﷺ - فذكرت عنده وافد عاد، قلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد. فقال رسول الله - ﷺ - : «وما وافد عاد؟» قال: فقلت: على الخبير بها سقطت؛ إن عاداً لما أقحطت بعثت قبلاً، فنزل على بكر بن معاوية ابن وائل، فسقاه الخمر، وغنته الجرادتان، ثم خرج يريد جبال مهرة، فقال: اللهم إنى لم آتك لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاسق عبدك ما كنت مسقيه، واسق معه بكر بن معاوية - يشكر له الخمر الذى سقاه - فرفع له سحابات، فقيل له: اختر إحداهن، فاختر السوداء منهن، فقيل له: خذها رماداً رموداً، لا تذر من عاد أحداً. وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة - يعنى حلقة الخاتم - ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ (١).

قال ابن حجر فى حديث: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» أى قتلاً فلا يبقى منهم أحداً.

لطيفة:

لما تجبر قوم عاد، فى ظل ظلل ضلالهم، حين أملى الأمل وطول البقاء، وروى ذكر زوالهم. ومرّوا فى مشاريع عذاب الملاهى. ناسين مرّ عذابها، رافلين فى حلل الغفلة عن المنية وآدابها، أقبل هو يهديهم، ويناديهم فى ناديهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ (٢) فبرزوا فى عتو ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ (٣)، فسحب سحب العذاب ذيل الإدبار بإقباله إلى قبالتهم، فظنوه لما اعترض عارض مطر، فتهادوا بتأشير البشارة، بتهادى بشارة ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا﴾ (٤) فصاح بلبل البلبل فبلبل ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ (٥)، فكان كلما دنا وترامى، ترى ما كان كأن لم يكن، فحفظت شجرات مشاجرتهم هودا، فجنى من جنى من جنا ما جنى، فى معنى ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ (٦) فراحت ريح الدبور،

(١) سورة الذاريات: ٤١، ٤٢. (٢) سورة الأعراف: ٦٥.

(٣) سورة فصلت: ١٥. (٤) سورة الأحقاف: ٢٤.

(٥) سورة الأحقاف: ٢٤.

(٦) سورة الأحقاف: ٢٦.

لكي تَسِمَ الأَدْبَارُ بَكِّي الأَدْبَارِ، فَعَجَّوْا مِنْهَا عَجِيجَ الأَدْبِرِ. فلم تزل تكوى
تكوينهم بميسم العدم، وتلوى تلوينهم إلى حياض دم الندم. وتكفأ عليهم
الرمال فتكفى تكفينهم. وتبرزهم إلى البراز عن صون حصون كن يقيناً
يَقِينَهُمْ (١).

فإذا أصبحت أخذت تنزع في قوس ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ (٢) وإذا أمست
أوقعت عريضهم في عرض ﴿كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ (٣) فما برحت بارحهم (٤)
عن براحهم حتى برحت بهم، ولا أقلعت حتى قلعت قلوبهم (٥) قلاعهم،
فدامت عليهم آفة وداء، لا تقبل فداء ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ (٦)
فحسوا ما أذاقهم من سوء ما سوما، ونسفوا في قفر ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ (٧) إلى يَمِّ
﴿وَأَتَّبِعُوا﴾ (٨). فلو عبرت في معبر الاعتبار، لترى ما آل إليه مآلهم لرأيت
التوى (٩) كيف التوى عليهم، وكف التوى كيف نوى الدنو إليهم، فانظر في
عواقب الخلاف، فإنه شاف كاف.

فانظر كيف كان عقاب عاد من جنس أعمالهم.

فعاد لطغيانهم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ
الْعِمَادِ ﴿٧٧﴾ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٠) وسواء عماد بيوتهم وقصورهم
فهو كناية عن طول أجسادهم ووفرة أموالهم، وتوافر القوة عندهم، فأخذوا
بالريح وهو أرق وألطف ما يكون، مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا
شدة.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾
وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ
هُودٍ﴾ (١١).

(١) يمنهم. (٢) سورة القمر: ٢٠.

(٣) سورة الحاقة: ٧. (٤) الريح الحارة.

(٥) الشراع. (٦) سورة الحاقة: ٧.

(٧) سورة هود: ٦٠. (٨) سورة هود: ٦٠.

(٩) الهلاك. (١٠) سورة القمر: ٦-٨. (١١) سورة هود: ٦٩، ٦٠.

[٦] ثمود

وهم قوم نبي الله صالح - ﷺ - وكانوا عرباً من العاربة، يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، بعث الله فيهم رجلاً منهم وهو صالح عبد الله ورسوله، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد، ولا يشركوا به شيئاً، فأمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وقد بلغت قلوبهم من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر بشاشة قول نبي الله صالح ﷺ ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ (١).

إنها للقاصمة! فكل شيء يا صالح إلا هذا! وما كنا لتتوقع أن تقولها!
فياخية الرجاء فيك.

قال ابن كثير:

ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديتهم، فجاءهم رسول الله صالح - ﷺ - فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم، ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعتوا فيها، وأن تكون طويلة من صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبي صالح - ﷺ -:

أرأيتم إن أجبتمكم إلى ما سألتكم، على الوجه الذي طلبتم أتأمنون بما جئتمكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهدهم وموآثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله - عز وجل - ما قدر له، ثم دعا ربه - عز وجل - أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً فأمن كثير منهم، واستمر

(١) سورة هود: ٦٢.

أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾^(١) وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو، ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة، وكان من أشرفهم، فهم بالإسلام، فنهاه المشركون فمال إليهم، وفي هذا يقول رجل من المسلمين يقال له: مهرش بن غنمة بن الذميل -رحمه الله-:

وكانت عصبه من آل عمرو
عزیز ثمود کلهم جميعا
لأصبح صالح فينا عزيزاً
ولكن الغواة من آل حجر
إلى دين النبي دعوا شهاباً
فهم بأن يجيب ولو أجاباً
وما عدلوا بصاحبهم ذؤاباً
تولوا بعد رشدهم ذئاباً

وقال لهم صالح -عليه السلام-: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾^(٢)، فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعت بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يوماً بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم، ولهذا قال: ﴿لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئِهِمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾^(٤)، فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا الناقة؛ ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم.

قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان.

قال ابن كثير:

وهذا هو الظاهر؛ لأنه الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ

(٢) سورة هود: ٦٤.

(٤) سورة القمر: ٢٨.

(١) سورة الإسراء: ٥٩.

(٣) سورة الشعراء: ١٥٥.

رَبُّهُمْ بِدَنِّهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١﴾ وقال: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ﴿٢﴾ وقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ ﴿٣﴾ فأُسند ذلك إلى مجموع القبيلة فدَلَّ على جميعهم بذلك، والله أعلم.

قال ابن كثير:

ذكر الإمام ابن جرير -رحمه الله- وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة أن امرأة منهم، يقال لها: عنيزة بنت غنم بن مجلز، وتكنى أم غنم، كانت عجوزاً كافرة، وكانت من أشد الناس عداوةً لصالح -عليه السلام-، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يُقال لها: صدوف بنته المحيا بن دهر بن المحيا، ذات حسب وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت صدوف رجلاً يقال له: الحباب. وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا، فأجابها إلى ذلك. ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف ابن جندع وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه ولد زنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه -وهو سالف- وإنما هو من رجل يقال له: صهياد.

ولكن ولد على فراش سالف، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة! فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستفزا غواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿٤﴾، وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة، فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم، فانظمت به عضلة ساقها، وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها

(٢) سورة الإسراء: ٥٩.

(٤) سورة النمل: ٤٨.

(١) سورة الشمس: ١٤.

(٣) سورة الأعراف: ٧٧.

وكانت من أحسن الناس وجهًا لقدار وذمرت^(١)، فشد على الناقة بالسيف، فكسف عرقوبها^(٢)، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاء واحدة تحذر سبقها^(٣)، ثم طعن في لبتها فحرها، وانطلق سبقها - وهو فصيلها - حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا. ويقال: إنه رغا ثلاث مرات، وأنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمه، والله أعلم.

فلما فعلوا ذلك، وفرغوا من عقْرِ الناقة بلغ الخبر صالحاً - عليه السلام - فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: ﴿ تَمَعُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ ﴾^(٤).

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾^(٤٩) ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون (٥٠) فأنظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين (٥١) فلما عزموا على ذلك وتواطئوا عليه، وجاء من الليل ليفتكوا بنبي الله صالح، أرسل الله - سبحانه وتعالى - وله العزة ولرسوله - عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح - عليه السلام - وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل - وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة. فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياداً بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس، فجاءتهم صيحة من

(١) ذمرت: شجعت وحثته وحرضته.

(٢) كسف عرقوبها: أى قطعه.

(٣) السبق: ولد الناقة.

(٤) سورة هود: ٦٥.

(٥) سورة النمل: ٤٩-٥١.

السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت الأنفس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾ (١) صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى -قالوا: إلا جارية كانت مقعدة- واسمها: كلبة ابنة السلق. ويقال لها: الزريفة. وكانت كافرةً شديدة العداوة لصالح -ﷺ- فلما رأت ما رأت من العذاب أُطْلِقَتْ رحلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حياً من الأحياء، فأخبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت.

وفى مسند أحمد عن جابر قال: لما مرَّ رسول الله -ﷺ- بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألتها قوم صالح، فكانت -يعنى الناقة- ترد من هذا الفجِّ، وتصدر من هذا الفجِّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً، ويشربون لبنها يوماً، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهدم الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

وعن عمار بن ياسر عن رسول الله -ﷺ-: «ألا أحدثكم بأشقى الناس رجلين؟ أحيمر ثمود الذى عقرو الناقة، والذى يضربك يا على على هذه، حتى يبيل منها هذه».

قال تعالى: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ (٣).

قال الشنقيطى:

وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية؛ لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر، فلما كان نداؤهم صاحبهم سبياً فى عقرو الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية.

(٢) سورة القمر: ٢٩.

(١) سورة الأعراف: ٧٨.

(٣) سورة القمر: ٣١.

والجزاء من جنس العمل.

لم تبق منهم باقية، خمدوا وهمدوا كما يهدم بييس الزرع والنبات.
قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾ أُوْلَئِكَ
الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿١﴾.

إنها الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة، ولكن إلى
الداعية، فستكبر من اتباع فرد من البشر؛ مخافة أن يكون في اتباعها له إيثار
وله تعظيم، ومن ثم يقولون لأنفسهم: ﴿أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي
ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢﴾﴾ أى لو وقع منا هذا الأمر المستنكر! وأعجب شيء أن يصفوا
أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى! وأن يحسبوا أنفسهم فى سَعْر - لا سعير
واحد- إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان.

قال صاحب المنار:

فى عذاب ثمود ومدين من سورة الأعراف أنهم أخذتهم الرجفة كما فى
آيتى ٧٧ / ٩٠.

وفى مدين من سورة العنكبوت الآية ٣٧ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ﴾.

وفى فصلت فى ثمود: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ (٣).

وفى سورة الذاريات: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤).

والرجفة هى الهزة والاضطراب الشديدة، وهى تصدق باضطراب أبدانهم
وأفئدتهم كأرضهم، فالجامع بين هذه الألفاظ أن الله تعالى أرسل على كل من
ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد، فرجفوا أو رجفت أرضهم، وزلزلت
من شدتها وخرروا ميتين.

(٢) سورة القمر: ٢٤.

(١) سورة القمر: ٢٤، ٢٥.

(٤) سورة الذاريات: ٤٤.

(٣) سورة فصلت: ١٧.

قال القاسمى:

قال الرازى: زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل فى حكاية هذه الواقعة اختلفت، وهى الرجفة، والطاغية، والصيحة.

والجواب ما قاله أبو مسلم: إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده، سواء كان حيواناً أو غير حيوان، وألحق الهاء به للمبالغة، ويقال: طغى طغياناً، وهو طاغ وطاغية وقال فى غير الحيوان: ﴿إِنَّمَا طَغَا الْمَاءُ﴾^(١). أى غلب وتجاوز الحد.

وأما الرجفة: فهى الزلزلة فى الأرض، وهى حركة خارجة عن المعتاد. فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها.

وأما الصيحة: فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة.

وأم الصاعقة: فالغالب أنها الزلزلة وكذلك الزجرة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾^(٢) فبطل ما زعمه ذلك البعض. ما أطف قول عمادة اليمن:

لا تعجباً لقدار ناقة صالح فلكل عصر ناقة وقدار

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٣).

قال القاسمى:

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ﴾^(٤) أى الصيحة التى يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها، وبدل حركتها عند نزوع الروح.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٥) أى ساقطين على وجوههم، هادمين لا يتحركون، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها.

(٢) سورة النازعات: ١٣، ١٤.

(٤) سورة الأعراف: ٧٨.

(١) سورة الحاقة: ١١.

(٣) سورة الأعراف: ٧٨.

(٥) سورة الأعراف: ٧٨.

يقول صاحب الظلال فى لفظة طيبة، رابطاً بين العمل والجزاء، مبيناً أن
الجزاء من جنس العمل:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

إنه التبجح الذى يصاحب المعصية. ويعبر عن عصيانهم بقوله: ﴿عَتَوْا﴾
لإبراز سمة التبجح فيها؛ وليصور الشعور النفسى المصاحب لها، والذى يعبر
عنه كذلك ذلك التحدى باستعجال العذاب والاستهتار بالندير.

ولا يستأى السياق فى إعلان الخاتمة، ولا يفصل كذلك: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ
الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٢).

والرجفة والجتوم، جزاء مقابل للعتو والتبجح؛ فالرجفة يصاحبها النزع،
والجتوم مشهد للعجز عن الحراك، وما أجدر العاتى أن يرتجف، وما أجدر
المعتدى أن يعجز. جزاءً وفاقاً فى المصير. وفى التعبير عن هذا المصير (٣).

[٧] النمرود بن كنعان (رجل عذبه الله ببعوضة)

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ
مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٤).

قال ابن جرير: قال مجاهد (أنا أحيى وأميت) أقتل من شئت وأستحيى
من شئت أدعه حياً فلا أقتله وقال: ملك الأرض شرقها ومغربها أربعة نفر
مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود ذو القرنين والكافران بختنصر
ونمرود ابن كنعان لم يملكها غيرهم.

(٢) سورة الأعراف: ٧٧.

(١) سورة الأعراف: ٧٧.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٨.

(٣) من «الجزاء من جنس العمل».

قال زيد بن أسلم: أول جبار كان فى الأرض نمرود فكان الناس يخرجون فيختارون من عنده الطعام فخرج إبراهيم يمتار مع بعض من يمتار فإذا مر به ناس قال: من ربكم؟ قالوا: أنت. حتى مر إبراهيم فقال له: من ربك؟ قال: ﴿الذى يحيى ويميت﴾ قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم: ﴿فإن الله يأت بالشمس من المشرق فأتى بها من المغرب فبهت الذى كفر﴾ قال فرده بغير طعام فرجع إبراهيم إلى أهله فمر على كتيب من رمل أعفر فقال: ألا آخذ من هذا فأتى به أهلى فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم فأخذ منه فأتى أهله قال: فوضع متاعه ثم نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحتة فإذا هى بأجود طعام رآته فصنعت له منه، فقربتة إليه وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم فقال من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذى جئت به فعلم أن الله رزقه فحمد الله. ثم بعث الله إلى الجبار ملكاً أن آمن بى وأتركك على ملكك قال: وهل رب غيرى؟ فجاءه الثانية فقال له ذلك فأبى عليه، ثم آتاه الثالثة فأبى عليه فقال له الملك اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام فجمع الجبار جموعه فأمر الله الملك ففتح عليه باباً من البعوض، فطلعت الشمس فلم يردّها من كثرتها فبعثها الله عليهم فأكلت من لحومهم وشربت دماءهم، فلم يبق إلا العظام والملك كما هو لم يصبه من ذلك شىء فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من جمع يديه وضرب بهما رأسه وكان جباراً أربعمائة عام فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ثم أماته وهو الذى بنى صرحاً إلى السماء فأتى الله بنيانه من القواعد.

قال ابن كثير: مكثت فى منخره أربعمائة سنة، عذبه الله تعالى بها فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة حتى أهلكه الله عز وجل بها...! هذا جزاء من ادعى الربوبية لنفسه عاقبه الله بأقل شىء بالبعوضة فى منخره الذى هو علامة العزة فانظر -رحمك الله- كيف أذله الله ونفس مدة ملكه عذبه الله فهل رأيت أخى -عافاك الله- إلهاً يضرب بالنعال. اهـ.

[٨] قوم إبراهيم

يقص الله تعالى ما كان بين إبراهيم وقومه، بعد علمهم بتكسيه كبير أصنامهم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨) ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿١﴾.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢﴾.

قال ابن كثير - رحمه الله -:

شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى حفرة عظيمة، فوضعوا فيها الحطب، وأطلقوا فيه النار، فاضطربت، وتأججت، والتهمت، وعلا لها شر لم ير مثله قط، ثم وضعوا إبراهيم - عليه السلام - في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد، يقال له: هزن.

فماذا كان جزاؤه؟

قال الألويسي:

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: تلوت هذه الآية على عبد الله بن عمر فقال: أتدرى يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم - عليه السلام - بالنار؟ قلت: لا. قال: رجل من أعراب فارس يعني: الأكراد. ونص على أنه من الأكراد ابن عطية، وذكر أن الله تعالى خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، واسمه على ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي: هيون.

وقال ابن كثير:

(٢) سورة الصافات: ٩٧، ٩٨.

(١) سورة الأنبياء: ٦٨-٧٠.

وجعلوا إبراهيم في كفة المنجنيق، بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد -قال شعيب الجبائي: اسمه هيزن- فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وهكذا كان جزاؤه من جنس عمله: أراد وضع إبراهيم -عليه السلام- في المنجنيق؛ ليرفعه إلى أعلى ويهوى به إلى أسفل فخسف به إلى أسفل جزاءً وفاقاً.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ (١).

يُروى أنهم بنوا لإبراهيم بنياناً وألقوه فيه، ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام، ثم أطبقوا عليه، ثم فتحوا عنه فإذا هو غير محترق يعرق عرقاً، فقال لهم حارث أبو لوط: إن النار لا تحرقه؛ لأنه سحر النار، ولكن اجعلوه على شيء، وأوقدوا تحته فإن الدخان يقتله، فجعلوه فوق شيء وأوقدوا تحته، فطارت شرارة فوقعت في لحية أبي لوط فأحرقته.

وروى نفس القصة الألوسى في روح المعاني وغير اسم أبي لوط إلى هاران.

وزاد: أخرج عبد بن عبد حميد عن سليمان بن صرد وكان قد أدرك النبي -ﷺ- أن أبا لوط قال -وكان عمه-: إن النار لم تحرقه من أجل قرابته مني، فأرسل الله تعالى عنقاً من النار فأحرقته.

والجزاء من جنس العمل.

وانظر -رحمك الله- كيف يبدو لك بجلاء أن الجزاء من جنس العمل من هذه الآية: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢).

قال العلامة القمي:

أججوا ناراً عظيمة وبنوا بناءً عالياً، ورفعوه إليه ورموا به إلى أسفل، فرفعه الله وجعلهم في الدنيا من السافلين، وفي العقبى من السافلين.

(٢) سورة الصافات: ٩٨.

(١) سورة الأنبياء: ٦٨.

قال ابن كثير:

قوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (١) أى: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنى الله كيداً فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

وقال الألوسى:

فأرادوا به كيداً بسوء احتيال، فإنه - ﷺ - لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك؛ لئلا يظهر للامة عجزهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢) الأذلين بإبطال كيدهم، وجعله برهاناً ظاهراً ظهور نار القرى ليلاً على علم، على علو شأنه - ﷺ - حيث جعل سبحانه النار عليه برداً وسلاماً.

جزاء الوزغ (٣) من جنس عمله:

حتى الوزغ كان جزاؤه من جنس عمله؛ إذ كان مشاركاً لهم، فقد روى البخارى عن أم شريك أن رسول الله - ﷺ - أمر بقتل الوزغ، وقال: «وكان ينفخ على إبراهيم» ووقع فى حديث عائشة: أن إبراهيم لما ألقى فى النار لم يكن فى الأرض دابة إلا أطفأت عنه، إلا الوزغ، فإنها كانت تنفخ عليه، فأمر النبى - ﷺ - بقتلها.

وجزاؤها من جنس عملها.

لا بارك الله أرواح الملائين من قوم إبراهيم.

قال ابن كثير:

أرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا. قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ وفى الآية الأخرى ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا فى الدنيا، وأما فى الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً وسلاماً، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً، بل هى كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ اهـ.

(٢) سورة الصافات: ٩٨.

(١) سورة الأنبياء: ٧٠.

(٣) الوزغ: أى: البرص.

[٩] قوم لوط

وقوم لوط هؤلاء هم سكان مدينة سدوم وما حولها من القرى بالأردن، بطريق الشام مكان البحر الميت الآن، وكانوا أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طويّة، وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهى إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين، فدعاهم لوط إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات، والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحلّ الله بهم من البأس الذى لا يُردّ ما لم يكن فى خلدكم وحسبانهم، وجعلهم مثلة فى العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين، ولهذا ذكر الله - تعالى - قصتهم فى غير ما موضع من كتابه المبين، فقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكْرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبَعْتَ أَعْيُنَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ إِلَى أَنْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُّشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾

(١) سورة الأعراف: ٨٠-٨٤.

فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّمَنْتَوَسَّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَيْسِيلٌ مُّقِيمٌ ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ
مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
رَأَوْهُ عَنِ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ
مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٢﴾ .

لنقف مع هؤلاء القوم وتصوير القرآن لجرمهم وقفة .

قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم: جبريل، وميكائيل،
وإسرافيل، أقبلوا حتى نزلوا أرض سدوم في صور شبان حسان؛ اختباراً من
الله تعالى لقوم لوط، وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطاً -عليه السلام- وذلك
عند غروب الشمس، فخشى إن لم يضيفهم يضيفهم غيره، وحسبهم بشراً من
الناس ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٣﴾ .

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومحمد بن إسحاق: شديد بلاؤه .
وذلك لما نعلم من مدافعتة الليلة عنهم، كما كان يصنع بهم في غيرهم،
وكانوا قد اشتروا عليه ألا يضيف أحداً ولكن رأى من لا يمكن المحيد
عنه .

وذكر قتادة أنهم وردوا عليه، وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوا،
فاستحى منهم وانطلق أمامهم، وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون
عن هذه القرية، وينزلون في غيرها، فقال لهم فيما قال: يا هؤلاء، ما أعلم
على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك
عليهم حتى كرره أربع مرات، قال: وكانوا قد أمروا ألا يهلكوهم حتى يشهد
عليهم نبيهم بذلك .

(٢) سورة القمر: ٣٤-٣٩ .

(١) سورة الحجر: ٦١-٧٦ .

(٣) سورة هود: ٧٧ .

وانظر كيف يصور القرآن الكريم مجيء الظالمين إلى بيت نبيهم لوط، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١).

لقد تسامعوا أن في بيت لوط شباباً صباح الوجوه، ففرحوا بأن هناك صيداً، والتعبير على هذا النحو يكشف مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدنس والفجور، في الفاحشة الشاذة المريضة، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعةً يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية، هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر - فوق المنكر - شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع، فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه، أو يتخفى بمرضه، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء، وهو يخجل أن يطلع عليه الناس، وإن الفطر السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية، بل حين تكون شرعية، وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك، بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ويتجمعون لتحصيلها، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها؟ إنها حالة من الارتكاس معدومة النظر.

وفي موقف آخر يقول الله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمَهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ (٢). رأى لوط ما يشبه الحمى في أجساد المندفعين إلى داره، يهددونه في ضيفه وكرامته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (٣) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فدوقوا عذابنا ونذرتهم (٣) بلغ بهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه - من الملائكة - قد حسبوهم غلماناً صباحاً فهاج سعارهم الشاذ الملوث القذر، وساوروا لوطاً، يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه، غير محتشمين ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذي أنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض.

ولقد حاول نبي الله لوط أن يوقظ فيهم الفطر السليمة، ويوجههم إلى

(٢) سورة هود: ٧٨.

(١) سورة الحجر: ٦٧.

(٣) سورة القمر: ٣٦، ٣٧.

الجنس الآخر الذى خلقه الله للرجال: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (١) يرشدهم إلى غشيان نساءهم - وهن بناته شرعاً؛ لأن النبي للأمم بمنزلة الوالد، وهو الذى نص عليه مجاهد، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، وهو الصواب - أطهر بكل معانى الطهر: النفس، والحس، فهن يلين الفطرة النظيفة، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة: نظافة فطرية، ونظافة أخلاقية، ودينية. ثم هن أطهر حسياً، حيث جعلها الله بقدرته للحياة الناشئة مكمناً كذلك طاهراً نظيفاً.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي ﴾ (٢) قالها يلتمس نخوتهم، وتقاليد البدو فى إكرام الضيف، وقف يستثير النخوة الأدمية فيهم، وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنسانى يستجاش، ولكنه فى كربه وشدته يحاول ما يستطيع.

﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (٣) فالقضية قضية رشد وسفه، إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة، ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة، ولا القلوب الميتة الآسنة، ولا العقول المريضة المأفونة، وظلت الفورة المريضة فى اندفاعها المحموم.

وبدلاً من أن يثير هذا فى نفوسهم رواسب المروءة والحياء، إذا هم يتبجحون، فيؤنبون لوطاً على استضافة الرجال، كأنما هو الجانى الذى هياً لهم أسباب الجريمة، ودفعتهم إليها، وهم لا يملكون له دفاعاً!! ﴿ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤).

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ (٥) وهى إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث.

وأسقط فى يد لوطٍ وأحس ضعفه، وهو غريب بين القوم، نازح إليهم

(٢) سورة هود: ٧٨.

(٤) سورة الحجر: ٧٠.

(١) سورة هود: ٧٨.

(٣) سورة هود: ٧٨.

(٥) سورة هود: ٨٠.

من بعيد، لا عشيرة له تحميه ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (١) وغاب عن لوط في كربته وشدته أنه يأوى إلى ركن شديد، ركن الله الذى لا يتخلى عن أوليائه، كما قال رسول الله - ﷺ -: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوى إلى ركن شديد».

قال ابن كثير فى البداية والنهاية:

ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطاً - ﷺ - جعل يمانع قومه الدخول، ويدافعهم، والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم، وينهاهم من وراء الباب، وذكروا أن جبريل - ﷺ - خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم، حتى قال: إنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن. فتقدمت الملائكة إلى لوط، أمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل، ولا يلتفت منكم أحد عند سماع صوت العذاب إذا حلّ بقومه، إلا امرأتك سيصيها ما أصابهم.

فلما جاء الأوان اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهنّ - وكن سبع مدن - بمن فيهن من الأمم، فقالوا: إنهم كانوا أربعمئة نسمة، وقيل: أربعة آلاف نسمة، وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن والمعتمرات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (٢)، وهو الشديد الصلب القوى ﴿مَنْصُودٍ﴾ (٣) أى يتبع بعضها بعضاً فى نزولها عليهم من السماء، ﴿مُسَوِّمَةٍ﴾ (٤) يعنى معلمة؛ مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه.

(٢) سورة الحجر: ٧٤، سورة هود: ٨٢.

(١) سورة هود: ٨٠.

(٤) سورة هود: ٨٣.

(٣) سورة هود: ٨٢.

فكيف كان جزاؤهم من جنس عملهم؟

قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (١).

تهكموا منهم بالتطهر من هذا الرجس القدر، وقد يكون إنكاراً عليه أن يسمى هذا تطهراً فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يشعرون ما فى ميلهم المنحرف من قذارة، وقد يكون ضيقاً بالطهر والتطهر، إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ!!.

لَمَّا عَمِيتْ بِصِيرَتِهِمْ أَعْمَى جَبْرِيلُ أَبْصَارَهُمْ ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ (٢).

لَمَّا قَلَبُوا الْفِطْرَةَ، قَلَبَ اللَّهُ قَرَاهِمَ ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ (٣).

يقول الشنقيطى:

قوم لوط لكونهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور دون الإناث، فكان الجزاء من جنس العمل قلب الله عليهم قراهم، والعلم عند الله تعالى. اهـ.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ (٤) يعنى المنقلبة أهوى بها منكسة عاليها سافلها.

﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ (٥).

يقول صاحب الظلال:

هى صورة للتدمير الكامل الذى يقلب كل شىء ويغير المعالم ويمحوها، وهذا القلب، وجعل عاليها سافلها أشبه شىء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة، المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان، بل أخط من الحيوان، فالحيوان واقف ملتزم عند فطرة الحيوان.

(٢) سورة القمر: ٣٧.

(٤) سورة النجم: ٥٣.

(١) سورة النمل: ٥٦.

(٣) سورة الحجر: ٧٤.

(٥) سورة هود: ٨٢.

والجزء من جنس العمل .

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ (١) .

ويقول أيضاً:

ولكننا نلحم في اختيار هلاك قوم لوط بالمطر، وهو الماء المحيي النبات أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة - ماء النطف - في غير ما جعل له، وهو أن يكون مادة حياة وخصب، والله أعلم بقوله ومراده، وأعلم بسننه وتدبيره، إن هو إلا رأى أراه في هذا التدبير .

والجزء من جنس العمل .

ويقول أيضاً:

وقد أمطروا مطراً مهلكاً، مع ما صاحبه من عواصف، ترى كان هذا المطر المغرق والماء الدافق؛ لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه، والوحد الذي عاشوا وماتوا فيه .

وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ﴾ (٢) .

حجارة ملوثة بالطين، وهي كذلك مناسبة وعلى قدر المقام .

﴿مَنْضُودٍ﴾ (٣) متراكم متتابع، مثل تتابعهم على بيت لوط .

﴿مُسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ (٤) كما تسوم الماشية أى تربي وتطلق بكثرة، فكأنما

هذه الحجارة مرباة ومطلقة؛ لتنمو وتتكاثر لوقت الحاجة .

قال الشنقيطى: السجيل هو الطين الشديد القوى يصدق ذلك: ﴿لِنُرْسِلَ

عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ (٥) وقال الراغب: حجر وطين مختلط .

﴿وَأَنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ (٦) .

(١) سورة النمل: ٥٨ . (٢) سورة هود: ٨٢ . (٣) سورة هود: ٨٢ .
(٤) سورة هود: ٨٣ . (٥) سورة الذاريات: ٣٣ . (٦) سورة الحجر: ٧٦ .

من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت أهلة عامرة هالكة غامرة؟. وجعل مكانها بحيرة منتنة.

لما أعرضوا عن الطهارة ماذا كان جزاؤهم؟

يقول ابن كثير:

جعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة، لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها؛ لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعظة، وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه، وعصى مولاه.

فناسبت نثانة البحيرة ننتهم.

والجزاء من جنس العمل.

قال القاسمي:

قال المهامبي: ولكفرهم بمطر الشرائع المحيي بإبقاء النسل وغيره، انقلب عليهم في صورة عذاب.

لطيفة:

نهى لوط قومه عن تعاطي الفواحش التي ذكر الله عنهم، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا حتى ولا رجل واحد منهم، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون، إلا أن قالوا: ﴿أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس ينظفون﴾.

فجعلوا غاية المدح ذمًا يقتضى الإخراج، وما حملهم على مقاتلتهم هذه إلا العناد واللجاج. فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محللتهم خالدين، لكن بعد ما صيرها عليهم بحيرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج، وحر يتوهج، وماؤها ملح أجاج.

ولهذا صاروا مثلةً فيها، وعبرة لمن عليها، كانوا يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، يأتون في ناديهم المنكر، حتى قيل: إنهم يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحيون من مجالسهم.

أمرهم لوط بقربان نسائهم، وحذرهم من طريقتهم وسيئاتهم، وهم في ذلك لا ينتهون، ولا يرعون، بل كلما نصح لهم يبالغون ويحرضون، لم يعلموا ما حمّ به القدر وما هم إليه صائرون، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١).

عن أبي جعفر -محمد الباقر- قال: قلت لمحمد بن علي -بن الحنفية-: أعذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم؟ قال: الله أعلى من ذلك؛ استغنى النساء بالنساء، والرجال بالرجال، قال حذيفة -رضي الله عنه-: إنما حق القول على قوم لوط حين استغنى النساء بالنساء، والرجال بالرجال.

فالعاقل اللبيب يقبل ما أرشده إليه الرسول الحبيب، من إتيان ما خلق من الزوجات الحلال، والجواري من السراري ذوات الجمال، ولا يتبع كل شيطان مرید، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبِيعْدٍ﴾ (٢).

[١٠] ب

هذه قصة البطر، قصة من صدق عليهم إبليس ظنه، فاتبعوه ونسوا النعم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سَدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا

(٢) سورة هود: ٨٣.

(١) سورة الحجر: ٧٢.

فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةٌ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لَيْالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ (١).

روى الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ - عن سبأ ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ فقال - ﷺ -: «بل هو رجل وُلد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمدحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير، وأما الشامية: فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان».

والمقصود أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها. وقال علماء النسب: سُمى سبأ؛ لأنه كان أول من سبى من العرب، وقد كان فيهم التبابعة، وكان لهم تيجان يلبسونها وقت الحكم، وكانت العرب تسمى من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تبعاً، وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس.

جاءتهم الرسل تأمرهم بتوحيد الله تبارك وتعالى، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال سيل العرم، فمنهم من أقام ببلاده، ومنهم من نزع إلى غيرها.

وكان من أمر السد أن الماء كان يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقدام، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً، حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة، والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار، وعلى رأسها مكمل أو زنبيل^(٢)، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير كلفة ولا قطف لكثرتة ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب، وهذه الجنان عن اليمن والشمال، ولذلك الخصب والوفرة والمتاع الجميل، ومن ثم

(١) سورة سبأ: ١٥-١٩.

(٢) هو الذى تغترف فيه الثمار.

كانت آية تُذَكِّر بالمنعم الوهاب، وقد أمرُوا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةً طَيِّبَةً رَبِّ غُفُورٌ﴾ وذكروا بالنعمة، نعمة البلد الطيب، وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر، والتجاوز عن السيئات، سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء، وسماحة في السماء بالعمو والغفران، فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران؟!

﴿بَلَدَةً طَيِّبَةً﴾ ليست بسبخة، قال ابن زيد: لم يكن يرى في قريرتهم بعوضة قط ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، وإن كان الركب ليأتون وفي ثيابهم القمل والدواب، فما هم إلا أن ينظروا إلى بيوتهم فتموت الدواب.

يقول ابن جرير:

فأعرضت سبأ عن طاعة ربها، وصدت عن اتباع ما دعتهإ إليه رسالها من أنه خالقها.

قال ابن عباس: سيل العرم الشديد، وكان السبب الذي سبب الله لإرسال ذلك السيل عليهم - فيما ذكر لى - جرذًا ابتعثه الله على سدهم فثقب فيه ثقبًا.

وعن قتادة: لما ترك القوم أمر الله بعث عليهم جرذًا يسمى الخلد، فثقبه من أسفله حتى غرق به جناتهم، وخرّب به أرضهم عقوبة بأعمالهم.

ويقول الضحاك: لما طغوا وبغوا بعث الله عليهم جرذًا فخرق السد، فأغرقهم الله.

وقال ابن زيد: بعث الله عليه^(١) جرذًا، وسلطه على الذى كان يحبس الماء الذى يسقيها، فأخرّب فى أفواه تلك الحجارة، وكل شىء منها من رصاص وغيره حتى تركها حجارة، ثم بعث الله سيل العرم، فاقتلع ذلك السد وما كان يحبس، واقتلع تلك الجنتين فذهب بهما.

(١) أى السد. والجرذ: الفأر.

يقول ابن جرير:

وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من جنى ثمر الأراك، والأراك هو الخمط.

قال الضحاك: بدلهم الله بجنان الفواكه والأعنان إذ أصبحت جناتهم خمطاً، وهو الأراك.

عن ابن عباس قال: الأثل الطرفاء.

قال ابن زيد: أذهب تلك القرى والجنتين، وأبدلهم الذى أخبرك: ﴿ذَوَاتِي أَكُلِ خَمَطٍ﴾، قال: فالخمط: الأراك.

قال: جعل مكان العنب أراكاً، والفاكهة أثلاً، وشيئاً من سدرٍ قليل.
وقال قتادة: بينما شجر القوم خير شجر، إذ صيره الله من شر الشجر بأعمالهم.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾.

يقول ابن جرير:

هذا الذى فعلنا بهؤلاء القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيل العرم حتى هلكت أموالهم، وخربت جناتهم؛ جزاءً منّا على كفرهم بنا، وتكذيبهم رسلنا.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾.

قال ابن جرير:

معنى الكلام: كذلك كافأناهم على كفرهم بالله، وهل يجازى إلا الكفور لنعمة الله، فإن قال قائل: أو ما يجزى الله أهل الإيمان به على أعمالهم، فلم يخص أهل الكفر بالجزاء؟ فيقال: إن المجازاة فى هذا الموضع المكافأة، والله تعالى ذكر وعد أهل الإيمان به التفضل عليهم، وأن يجعل لهم بالواحدة من أعمالهم الصالحة عشر أمثالها إلى ما لا نهاية له من التضعيف،

ووعده المسيء من عباده أن يجعل بالواحدة من سيئاته مثلها مكافأة له على جرمه، والمكافأة لأهل الكبائر الكفر، والجزاء لأهل الإيمان مع التفضل، فلذلك قال -جل ثناؤه- في هذا الموضع: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ كأنه قال جل ثناؤه: لا يُجَازَى لا يكافأ على عمله إلا الكفور، إذا كانت المكافأة مثل المكافأ عليه، والله لا يغفر له من ذنوبه شيئاً، ولا يحص شيئاً منها في الدنيا، وأما المؤمن فإنه يتفضل عليه.

قال مجاهد: نجازى نعاقب.

قال القرطبي:

وأولى ما قيل في هذه الآية، وأجل ما روى فيها أن الحسن قال: مثلاً

بمثل.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١).

يقول صاحب الظلال:

كانوا إلى هذا الوقت ما يزالون في قراهم ويوتهم، ضيق الله عليهم في الرزق، وبدلهم من الرفاهة والنعماء خشونة وشدة، وتبدلت تلك الجنان الفيح، صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشبة، ولكن لم يمزقهم ولم يفرقهم، وكان العمران ما يزال متصلاً بينهم وبين القرى المباركة مكة في الجزيرة، وبيت المقدس في الشام، وغلبت الشقوة على سبأ، فلم ينفعهم النذير الأول، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرضاء، بل دعوا دعوة الحمق والجهل.

قال ابن كثير:

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعيم، والعيش الهني الرغيد،

(١) سورة سبأ: ١٨، ١٩.

والبلاد الرضية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ويقل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سفرهم.

قال تعالى: ﴿الْقَرْىَ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، قال مجاهد والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، والسدى، وابن زيد وغيرهم: قرى الشام.

قال تعالى: ﴿قَرْىَ ظَاهِرَةً﴾. بينة واضحة، يعرفها المسافرون، ويقلون في واحدة، ويبيتون في أخرى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أى جعلناهم بحسب ما يحتاج إليه المسافر.

﴿سَيَرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أى الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلاً ونهاراً.

قال قتادة: ﴿سَيَرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ لا يخافون ظلمًا ولا جوعًا، وإنما يغدون فيقلون ويروحون فيبيتون فى قرية أهل جنة ونهر، وكان الرجل المسافر لا يحمل معه زادًا ولا سقاء.

وقال أيضاً:

كانوا يسيرون غير خائفين، ولا جياع ولا ظماء، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان، لا يحرك بعضهم بعضًا، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحركه.

وقال ابن زيد: إن كانت المرأة لتخرج معها مغزلها ومكتلها على رأسها، تروح من قرية، وتغدوها وتبيت فى قرية، لا تحمل زادًا ولا ماء لما بينها وبين الشام.

قال القمى النيسابورى: والمقصود من ذكر الليالى والأيام تقرير كمال الأمن ولذلك قُدمت الليالى فإنها مظنة الآفات، ويمكن تقرير الأمن بوجه آخر

وهو أن يقال: سيروا فيها، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياماً وليالي.

قال تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

قال ابن جرير: قالوا يا ربنا باعد بين أسفارنا، فاجعل بيننا وبين الشام فلولاً ومفاوز، لتركب فيها الرواحل، وتزود معنا فيها الأزواد، وهذا من الدلالة على بطر القوم نعمة الله وإحسانه إليهم، وجهلهم بمقدار العافية، ولقد عجل لهم ربهم الإجابة، كما عجل للقائلين: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١) أعطاهم ما رغبوا إليه، وطلبوا من المسألة.

قال ابن عباس: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فإنهم بطروا عيشتهم، وقالوا: لو كان جنى جناتنا أبعد مما هو كان أجدر أن نشتهي، فمزقوا بين الشام وسبأ، وبدلوا بجنتيهم ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أَكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلِ شَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

وقال قتادة: بطر القوم نعمة الله، وغمطوا كرامة الله، قال الله: ﴿وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث﴾.

وقال ابن زيد: ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ حتى نبيت في الفلول والصحارى.
قال ابن كثير:

بطروا هذه النعمة، كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد، وأحبوا مفاوز ومهامه، يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد من من وسلوى، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا

(١) سورة الأنفال: ٣٢.

(٢) سورة القصص: ٥٨.

رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ ﴿١﴾

يقول صاحب الظلال:

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى التي لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار
العام، لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل التي لا تُشبع لذة الرحلات،
وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس ﴿وَزَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ واستجبت دعوتهم
ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر. قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ
وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

قال ابن كثير:

جعلناهم حديثاً للناس، وسمراً يتحدثون به عن خبرهم، وكيف مكر
الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في
البلاد ها هنا وما هنا، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: أيدي سبأ،
وأيدى سبأ، وتفرقوا شذر مذر.

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم:

يقول صاحب الظلال:

عادوا أحاديث يزويها الرواة، وقصة على الألسنة والأفواه، بعد أن كانوا
أمة ذات وجود في الحياة، أصبحوا أثراً بعد عين، وحديثاً يُروى، وقصة
تحكى.

ويقول:

وهناك فهم آخر فقد يكون المقصود بقوله: ﴿قُرَى ظَاهِرَةً﴾ أي قرى غالبية
ذات سلطان، بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء، حياتهم صحراوية جافة، كثرت
أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعى، ومواضع الماء، فلم يصبروا على الابتلاء

(١) سورة النحل: ١١٢.

وقالوا: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أى قلل من أسفارنا، فقد تعبنا، ولم يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم، ففعل الله بهم ما فعل، وهو وجه رأيته فى الآية والله أعلم بمراده.

قال ابن كثير:

عن الشعبي: أما غسان فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان، فمزقهم الله كل ممزق، رواه ابن أبى حاتم وابن جرير.

يقول الأعشى:

وفى ذاك للمتوسى أسوة
رخام^(٢) بنته لهم حمير^(٣)
فأروى الزروع وأعتابها
فصاروا أيادى ما يقدر
ومأرب عفى عليها العرم^(١)
إذا جاء مواره^(٣) لم يرم^(٤)
على سعة ماؤهم إذ قسم^(٤)
ن منه على شرب طفلى فطم^(٤)

والجزء من جنس العمل.

يقول القشيري فى اللطائف:

أعرضوا عن السوفاق، وكفروا بالنعمة، وضيعوا الشكر، فبدلوا وبدل بهم الحال، كما قالوا:

تبدلت وتبدلنا يا حسرة لمن
ابتغى عوضاً لسلمى فلم يجد

ما عوملوا إلا بما استوجبوا، ولا سقوا إلا مما ثبطوا^(٤)، أو ما وقعوا إلا فى الوهدة التى حفروا، وما قتلوا إلا بالسيف الذى صنعوا.

(١) العرم: المسفة التى تحبس الماء. وقال سيد قطب: العرم: الحجارة.

(٢) حجر أبيض.

(٣) الشديد المور - مار يمور موراً أى جعل يذهب ويجىء، وعند ابن جرير: إذا جاء ماؤه لم

يرم:

(٤) حَمَقَ فى عمله.

كذلك من الناس من يكون في رغد من المال، واتصال من التوفيق، وطرب من القلب، ومساعدة من الوقت فيرتكب زلة أو يسيء أدباً أو يتبع شهوة، ولا يعرف قدر ما هو به، فيتغير عليه الحال، فلا وقت ولا حال، ولا طرب ولا وصال.

فتذكر.. ما الذي سبى قوم سبأ؟ إن للنعم أجنحة فمن قصها بمقراض الشكر جنحت إليه، ومن أهمل ريشها حتى نبتت نبت من بين يديه، أخصبت ديار قوم سبأ فطابت، فما يُخرج حيهم حية، ولا يقال: هذا عقير عقرب، ولا يرى في بلادهم بعوضة، ولا لأذلمهم بباب ذباب، فلما تمت النعمة، قام متقاضى الشكر يقول: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا﴾، فقابلوا الرسل مقابلة معاند، فرفعت قصة الشكوى في مسطور ﴿فَأَعْرَضُوا﴾، فكان مما أرسلناهم عليهم أن أرسلنا ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾، بعث الله عز وجل عليهم جروداً أجرد، نقب سكرهم^(١)، وهم في سكرهم فأغرق فيما جنى به على جنابهم، حتى أغرق جناتهم، فخرت الأشجار، بعد أن فُجرت الأنهار، وعثت كف الفساد في ديارهم ودام البكاء، وعلا العويل، وخلف غراب البين الورق على الورق، وبس البديل، ﴿وَبَدَّلْنَا هُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلِ شَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

[١١] عمرو بن لحي الخزاعي

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحي أبو خزاعة».

وفي حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه، مرفوعاً: «وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام».

لما وليت خزاعة البيت، وصار أمره إليهم، كانوا قوم سوء في ولايتهم.

(١) السد.

يقول الحافظ ابن كثير:

وذلك لأن في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحي -لعنه الله- فإنه أول من دعاهم إلى ذلك، وكان ذا مال جزيل جداً، يقال: إنه ملك عشرين ألف بعير، ومما ذكر الأزرقي والسهيلي: إنه ربما ذبح أيام الحجج عشرة آلاف بدنة، وكسى عشرة آلاف حلة في كل سنة، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل، ويكت لهم السويق، قالوا: وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع؛ لشرفه فيهم، ومحلته عندهم، وكرمه عليهم.

قال ابن هشام:

حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وهم ولد عملاق، ويقال: ولد عمليق بن لاوز بن سام بن نوح، رأهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً، أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه، فأعطوه صنماً يقال: له هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه^(١).

قال ابن إسحق:

كانت كنانة وقريش إذا هلوا قالوا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وقد ذكر السهيلي وغيره. أن أول من لبي هذه التلبية عمرو بن لحي، وأن إبليس تبدى له في صورة شيخ، فجعل يلقيه ذلك فيسمع منه، ويقول كما يقول واتبعه العرب في ذلك، ولم يقف شيطانه عند هذا الحد، وابتدع -لعنه الله- لهم أشياء في الدين غير بها دين الخليل فاتبعه العرب في ذلك.

(١) الروض الأنف، للسهيلي (١/ ٣٥٠).

وانظر أيضاً إلى ما ابتدعوه من الشرائع الباطلة الفاسدة، التي ظنها كبيرهم عمرو بن لحي -قبحه الله- أنها مصلحة ورحمة بالدوابِّ والبهائم، فهو أول من سيب السوائب، وهو كاذب مفتر في ذلك، ومع هذا الجهل والضلال اتبعه هؤلاء الجهلة الطغام، بعد ما تابعوه فيما هو أطم من ذلك وأعظم بكثير، وهو عبادة الأوثان، وقد قال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١).

فيا له من قزم دعا رعاغاً فأجابوه!

فهل كان جزاؤه من جنس عمله؟

قال -ﷺ-: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَهُ^(٢) في النار، وكان أول من سيب السوائب، وبحر البحيرة».

قال المناوي:

لكونه استخرج من باطنه بدعة جربها الجريرة إلى قومه، فكذا يجر أمعاه في النار، والجزاء من جنس العمل.

وقال -ﷺ-: «رأيت عمرو بن لحي بن قَمْعَةَ بن خندف، أخا بني كعب، وهو يجر قصبه في النار».

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إن أول من سيب السوائب، وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر، وإني رأيته في النار يجر أمعاه فيها».

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -ﷺ-: «رأيت جهنم

(١) سورة المائدة: ١٠٣.

(٢) القصب: بضم القاف وسكون الصاد أمعاه. قال الزمخشري: القصب واحد الأقسام، وهي الأمعاء ومنه القصاب؛ لأنه يعالجها، وقال ابن الأثير: اسم للأمعاء كلها، وقيل: ما كان أسفل البطن من الأمعاء (فيض القدير ٩/٤).

يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجرقصبه، وهو أول من سيب السوائب».

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: «يا أكثم، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجرقصبه في النار، فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به، ولا بك منه». فقال أكثم: عسى أن يضرتني شبهه يا رسول الله؟ قال: «لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيعة، وحمى الحامي».

[١٢] فرعون

انظر كيف كان جزاء هذا الطاغوت المطموس المتعجرف المتكبر من جنس قوله وعمله.

انظر كم ذبح من الأطفال من أجل ذبح موسى، ولسان القدر يصيح به: لن نربيه إلا في حجرك.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٦٥﴾ وَنَمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦٦﴾ (١).

تجبر وعتا وطغا وبغى وآثر الحياة الدنيا، وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم في أحسن الصنائع والحرف وأرداها وأدناها، ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ وكان الحامل له

(١) سورة القصص: ٤-٦.

على هذا الصنيع القبيح؛ أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما حفظوه عن إبراهيم -عليه السلام-، من أنه سيخرج من ذريته غلامٌ يكون هلاك مصر على يديه، وكانت هذه البشارة مشهورة في بنى إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل؛ حذراً من وجود هذا الغلام، فجعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذابحون من ساعته.

لقد ولد موسى والخطر محقق به، والموت يتلفت عليه، والشفرة مشرعة على عنقه تهتم أن تحتز رأسه، وها هي ذى أمه خائفة عليه، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين، وترجف أن تتناول عنقه السكين، ها هي ذى بطفلها الصغير فى قلب المخافة، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صوته الفطرى أن ينمّ عليه.

ويوحى الله إليها أن ترضعه، فإذا خافت عليه فلتلقه فى اليم، فهو فى رعاية الله الذى لا أمن إلا فى جواره، لا خوف معه، لا تقرب المخاوف من حماه، الذى جعل النار برداً وسلاماً، ويجعل من ثبج البحر ملجأً ومناماً. يقدر الطاغوت شيئاً، ويقدر الله شيئاً غيره، والله يريد غير ما يريد فرعون.

وإرادة الله وقدرته تتحدى، تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة فرعون وهامان وجنودهما، إنهم ليتبعون الذكور من بنى إسرائيل خوفاً على ملكهم وعرشهم وذواتهم، ويبثون العيون والأرصاد كى لا يفلت منهم ذكر، فها هي ذى إرادة الله تلقى فى أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكى وأى طفل؟ إنه الطفل الذى على يديه هلاكهم أجمعين، ها هي ذى تلقيه فى أيديهم، مجرداً من كل قوة ومن كل حيلة، عاجزاً عن نفسه، أو حتى يستنجد، ها هي ذى تقتحم به على فرعون حصنه، وهو الطاغية السقّاح المتجبر، ولا تعب فى البحث عنه فى بيوت بنى إسرائيل، وفى أحضان نساين الوالدات، ها هي

ذى تعلن عن مقصدها سافرة متحدية؛ ليكون لهم عدوًّا وحزناً، عدوًّا يتحداهم، وحزناً يدخل الهمّ على قلوبهم.

يا فرعون: موسى لن يكون مربّاه إلا فى دارك وعلى فراشك، ولن يُغذّى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك، وأنت الذى تتبناه وتربيته وتتعدّاه، ولا تطلع على سر معناه، لتعلم أن رب السموات هو الفعّال لما يريد، وأنه هو القوى الشديد.

اقتحمت إرادة الله على فرعون قلب امرأته، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه، لقد حمته بالمحبة، ذلك الستار الرقيق الشفيف، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، حمته بالحب الحانى فى قلب امرأة، وتحدّث به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره، وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الرضيع الضعيف بغير هذا الستار الشفيف، إرادة الله وقدرته ترعى موسى، تدبر أمره.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتُ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١) فقال فرعون: أمّا لك فنعم، وأمّا لى فلا. والبلاء مُوكل بالمنطق، يداك أوكتنا وفوك نفخ، فكان كذلك وهداها الله به، وأهلكه الله على يديه.

إرادة الله تكيّد لفرعون وآله، كما كادوا لبنى إسرائيل، تحرم عليه المراضع، يبحثون له عن ظئر ترضعه، وهم يخشون عليه الموت والذبول، حتى تبصر به أخته من بعيد، فتعرفه فتقول: ﴿ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ (٢)، فيتلقفون كلماتها وهم يستبشرون، يودون لو تصدق فينجو العزيز المحبوب، ويعود الطفل الغائب لأمه الملهوفة.

من لجأ إلى الله وتوكل عليه، وفوض الأمور إليه، يكن حاله كحال أم موسى ترضع ولدها، وتأخذ كظئر أجرها.

(٢) سورة القصص: ١٢.

(١) سورة القصص: ٩.

فكيف كان جزاء فرعون من جنس قوله وعمله؟

دعاه موسى إلى عبادة الله عز وجل، فأعرض واستكبر ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١).

أليس لى ملك مصر!! يا هذا حمارك ينهق من كف شعير، وما تساوى مصر؟ إن كانت الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة.

وقال موسى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ﴾ (٢).

قال ابن عباس ومجاهد: اطمس على أموالهم: أهلكتها.

وقال الضحَّاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت.

وقال محمد بن كعب القرظي: اجعل سكرهم حجارة.

فما كانت النهاية: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعَيُْونِ﴾ (٣).

قال فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ (٤).

إن الذى ينسى نعمة الله عليه، ويثبه بها، يعذبه الله بها وينغص عليه بها، فكانت معظم الآيات تدور حول الماء الذى تاه به واستكبر. هذا فى حياته.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٥).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٦).

(٢) سورة يونس: ٨٨.

(٤) سورة الزخرف: ٥١.

(٦) سورة الأعراف: ١٣٣.

(١) سورة الزخرف: ٥١.

(٣) سورة الدخان: ٢٥.

(٥) سورة الأعراف: ١٣٠.

يا فرعون، الطوفان ماء من جنس ما تفتخر به، ولكنه متلف للزروع
والثمار.

والقُمَّل: قال ابن جرير: واحدها قُمَّلة، وهى دابة تشبه القُمَّل، أو كما
قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: البراغيث.

كأن الماء لم يُجَد شيئاً فى نظافتك، فهى البراغيث والضفادع،
تتعصبي عليك فى قدحك وأنتك وثوبك.

والدم، استحال نهرك دمًا عبيطًا، فما جدوى نهرك ومياهك.

الآيات التى نغصت عيشك من جنس ما استكبرت به، ومتعلقة بالماء.

قال ابن جرير:

عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى -عليه السلام- فرعون قال له: أرسل
معى بنى إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان، وهو المطر، فصب عليهم منه
شيئًا، خافوا أن يكون عذابًا، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر،
فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا
معه بنى إسرائيل، فأثبت لهم فى تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزرع
والثمر والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلبه
على الكلأ، فلما رأوا أثره فى الكلأ عرفوا أنه لا يبقى، فقالوا: يا موسى،
ادع لنا ربك، ليكشف عنا الجراد، فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل،
فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل،
فدرسوا الحب وأحرزوه فى البيوت، فقالوا: قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم
القمل -وهو السوس الذى يخرج منه- فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى
الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا
القمل، فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم،
فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق
ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا. قال: وما عسى أن

يكون كيد هذا؟. فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فتؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل ففدعا ربه، فكشف عنهم فلم يؤمنوا^(١). وأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دمًا عبيطًا^(٢)، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب. فقال: إنه قد سحركم!! فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطًا؟

قال ابن إسحاق:

تابع الله عليهم الآيات، وأخذه بالسنين، فأرسل عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء، ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدر على أن يحرثوا أو يعملوا شيئًا، حتى جهدوا جوعًا، فلما بلغهم ذلك: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِنَكْشِفَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢) فدعا موسى ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر -فيما بلغني- حتى إنه كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لى أن موسى -عليه السلام- أمر أن يمشى إلى كتيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كتيب أهيل عظيم، فضربه بها، فانثال عليهم قملًا، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار فأجهدهم، قالوا له مثلما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والآنية والأطعمة، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل

(١) أى دمًا طريًا.

(٢) سورة الأعراف: ١٣٤.

الله، فكشفت عنهم، فلم يفوا له بما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دمًا، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يعترفون من إناء إلا عاد دمًا عيظًا.

يا الله . . هان فرعون على ربه حتى ما يساوى ضفدعًا ولا جرادًا.

هانوا عليه فعصوه وكفروا به؛ ولو عزوا عليه لعصمهم.

أيهما المعرض عنا إن إعراضك منا
لو أردناك جعلنا كل ما فيك يردنا

عن ابن عباس قال: كانت الضفادع بريّة، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت، وجعلت تغرق أنفسها في القدر وهي تغلى، وفي التناير وهي تفور، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء.

والجزاء عند الله من جنس العمل.

قال - صلى الله عليه -: «لا تقتلوا الضفادع..».

وقال - صلى الله عليه -: «لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم».

وكان غرقه في جنس ما افتخر به.

قال الشنقيطي:

أما فرعون، فقد كان يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ (١) فلما كان يتناول بها جعل الله هلاكه فيها، أى فى جنسها.

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ (٢).

كاد فرعون فكيد له، وأراد فارتدّ إليه، ودعا للاستعداد فأذل وأذيق

البأس.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَن

(٢) سورة طه: ٦٠.

(١) سورة الزخرف: ٥١.

﴿٦١﴾ فَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٦٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١).

هَذَا بِهِ مِنْ جَمْعِهِمْ لِمُوسَى وَمَنْ قَالُوا لَهُ يَوْمًا: ﴿أَتِنَّا لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٢) وَمَنْ قَالُوا يَوْمًا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٣).

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر وواجهته بكلمة الإيمان القوية، وباستعلاء الإيمان الواثق، وبتحذير الإيمان الناصع، وبرجاء الإيمان العميق.

وقال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (٤).

قال القشيري:

أراد فرعون إهلاك بنى إسرائيل واستئصالهم وأراد الحق نصرتهم وبقاءهم، فكان ما أراد الحق لا ما أراد اللعين.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرِّ ذِمَّةٍ قَلِيلُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ (٥).

يقول ابن كثير:

نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإنى أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم، فجزوى فى نفسه وجنده بما أراد لهم، فخرجوا من النعيم إلى الجحيم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (٦).

(٢) سورة الشعراء: ٤١.

(٤) سورة الإسراء: ١٠٣.

(٦) سورة القصص: ٤.

(١) سورة طه: ٦١-٧٣.

(٣) سورة الشعراء: ٤٤.

(٥) سورة الشعراء: ٥٤-٥٦.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذِرَكَ وَالْهَيْتَكَ قَالَ سَنَقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٢).

منطق الطغيان الغليظ، فكلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان، وخاف أن يستعلى الحق.

قال ابن كثير:

نكل فرعون ببني إسرائيل قبل ولادة موسى؛ حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه، وضد ما قصده فرعون، وهكذا عومل في صنيعه أيضاً، إنما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد، نصرهم الله عليه، وأذله وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده.

لما استذل فرعون بني إسرائيل أورثهم الله ملكه.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٤).

لقد خرجوا يتبعون خطى موسى وقومه، ويقفون أثرهم، فكانت خرجتهم هذه هي الأخيرة، وكانت إخراجاً لهم من كل ما هم فيه، فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم جزاء الظلم والبطر والبغى الوخيم، لما اقتفوا أثر المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾

(٢) سورة غافر: ٢٥.

(٤) سورة الشعراء: ٥٧-٥٩.

(١) سورة الأعراف: ١٢٧.

(٣) سورة الأعراف: ١٣٧.

وَنِعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينٌ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ
السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿١﴾ .

يقول صاحب الظلال:

انظر إلى هوانه وهوانهم على الله، وعلى هذا الوجود الذى كان يشمخ فيه بأنفه، فيطأطئ له المألأ المفتونون به، وهو أضل وأزهد من أن يحس به الوجود، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال، ولا يرثى له أحد على سوء المألأ، لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله فيها، ذهبوا ذهاب النمال، وهم كانوا جبارين فى الأرض، يطأون الناس بالنعال، ذهبوا غير مأسوف عليهم.

يقول القشيري:

تكبر فرعون بغير حق فأقمأه الله بحق، وتجبّر بغير استحقاق، فأذله الله باستحقاق: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ .

أبى إلا أن يدوم جحوده وعوده، فأغرقه الله فى البحر، كما أغرق قلبه فى بحر الكفر.

«من لا يرحم لا يرحم».

هذا الطاغية الذى ذبح الطفولة وملاحتها وبراءتها المحبوبة، ولثغتها التى تبتسم لها القلوب والوجوه، كذا لم يرحم فى دنيا ولا آخرة.

يقول رسول الله - ﷺ -: «قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من حمأ البحر، فأدسه فى فى فرعون مخافة أن تدركه الرحمة» .

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴿٣﴾ وَاللَّعْنَةُ طَرَدَ مِنَ الرَّحْمَةِ .

(٢) سورة القصص: ٣٩، ٤٠ .

(١) سورة الدخان: ٢٥-٢٩ .

(٣) سورة القصص: ٤٢ .

صار مآله إلى الطين المنتن، ألم يقل يوماً لهامان: يا هامان، أوقد لي على الطين.

واليوم كما يقول الله تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ (١).

يقول صاحب الظلال:

ضربة واحدة فإذا هم هالكون، ومن التعالى والتطاول والاستكبار إلى الهوى فى الأعماق والأغوار جزاءً وفاً.

لقد سقطت من فرعون الباغى العادى المتجبر الطاغى كل أرديته التى تنفخ فيه، فتضاءل وتصاغر واستخذى ﴿فَالْيَوْمَ نَنْجِيكَ بِيَدِنَا لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ (٢) لا تذهب منكراً مع التيار، هذا الذى تطاول وقال: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ (٣) كلمة فاجرة من فرعون كانت تبجحاً واستهتاراً، لقى جزاءه بها فى نهاية مطافه.

قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٤).

ضاعت عزة فرعون واقتداره على البغى والظلم، ضاعت العزة الباطلة، وسقط الاقتدار الموهوم، وأخذه الله أخذ عزيز مقتدر صدقاً، أخذهم أخذاً شديداً يناسب ما كانوا عليه من ظلم وبطش وجبروت.

لما تطاول فرعون وقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ (٥)، فكان الهوى إلى الأعماق والأغوار، وبتن الطين فى فمه يوم الغرق فى عاشوراء جزاء للقول الفاجرة.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ﴾

يقول الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا

آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٦).

(٢) سورة يونس: ٩٢.

(٤) سورة القمر: ٤٢.

(٦) سورة غافر: ٤٦.

(١) سورة الأعراف: ١٣٦.

(٣) سورة غافر: ٢٦.

(٥) سورة القصص: ٣٨.

قال ابن كثير:

الغرق في اليم، ثم النقلة إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُسِينُ﴾ (١)، قالها فرعون لقومه الذين استخفهم، ويعنى بها نبي الله موسى، وهو الشريف الرئيس الصادق البار المرشد، فكان جزاؤه من جنس قولته، أنه هو المهين خلقة وديناً ومالاً..

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٤١) وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٢).

يقول القشيري:

لا لشرفهم جعلهم أئمة، ولكن لسبب تلفهم قدمهم في الخزي والهوان على كل أمة، ولكن لم يُرشدوا إلا إلى الضلال، ولم يدلوا الخلق إلا على المحال، وما حصلوا إلا على سوء الحال، وما ذاقوا إلا خزي الوبال، أفاضوا على متبعيهم من ظلمات قلوبهم، فافتضحوا في خسة مطلوبهم.

كانوا في الدنيا مبعدين عن معرفته، وفي الآخرة مبعدين عن مغفرته، فانقلبوا من طرد إلى طرد، ومن هجر إلى بعد، ومن فراق إلى احتراق.

يقول صاحب الظلال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...﴾ (٣).

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...﴾ فيا بشاها دعوة! ويا بشاها إمامة الهزيمة في الدنيا والهزيمة والهزيمة في الآخرة، جزاء البغي والاستطالة، وليست الهزيمة وحدها، إنما هي اللعنة في الأرض، والتقيح في يوم القيامة،

(٢) سورة القصص: ٤١، ٤٢.

(١) سورة الزخرف: ٥٢.

(٣) سورة القصص: ٤١، ٤٢.

و ﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾ ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع، وجو التَّقَزُّزِ والاشمئزاز، ذلك فى مقابل الاستعلاء والاستكبار فى الأرض، وفتنة الناس بالمظهر والجاه والتطاول على الله وعلى عباد الله .

وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدُهُمُ النَّارَ وَيُسَّ الْوَرْدُ الْمُرْوُودُ﴾ (٩٨) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسَّ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ ﴿١﴾ .

قاد فرعون قومه إلى الضلال فى الحياة .

قال ابن كثير:

وكما أنهم اتبعوه فى الدنيا، وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردتهم إياها، وشربوا من حياض رَدَّأها، وله فى ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر .

يقول صاحب الضلال:

لما كانوا تبعاً لفرعون فى هذا الأمر، يمشون خلفه ويتبعون خطواته الضلالة بلا تدبير ولا تفكر، ودون أن يكون لهم رأى، لما كانوا كذلك، فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً .

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضى، ووعداً عن المستقبل، إذا المشهد ينقلب، وإذا المستقبل ماضٍ قد وقع، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار، وانتهى فأوردتهم النار، أوردتهم كما يورد الراعى قطيع الغنم، ألم يكونوا قطعاً يسير بدون تفكير، ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهى حرية الإرادة والاختيار؟ ﴿فَأُورِدُهُمُ النَّارَ﴾ ويا بئساه من ورد لا يروى غلة، ولا يشفى صدئ إنما يشوى البطون والقلوب ﴿بِسَّ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾ .

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسَّ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾ . هذه النار هى الرفذ والعطاء والمنة التى رفذ بها فرعون قومه!! ألم يعد السحرة عطاءً جزيلاً ورفداً مرفوداً، فهذا رفته لمن اتبعه . . النار ﴿وَبِسَّ الْوَرْدِ الْمُرْوُودِ﴾ و ﴿بِسَّ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾ .

(١) سورة هود: ٩٨، ٩٩ .

[١٣] نهاية السامري (١)

وانظر إلى بلاهة الفكر، وبلادة الروح، وتفاهة بني إسرائيل في قصة السامري .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حَلِيهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (٨٣) قال هم أولاء علي أثري وعجلت إليك رب لترضى ﴿ ٨٤ ﴾ قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴿ ٨٥ ﴾ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتكم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتكم موعدى ﴿ ٨٦ ﴾ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامري ﴿ ٨٧ ﴾ فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴿ ٨٨ ﴾ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ﴿ ٨٩ ﴾ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴿ ٩٠ ﴾ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴿ ٩١ ﴾ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ﴿ ٩٢ ﴾ ألا تتبعن أف عصيت أمري ﴿ ٩٣ ﴾ قال يا بنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴿ ٩٤ ﴾ قال فما خطبك يا سامري ﴿ ٩٥ ﴾ قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي ﴿ ٩٦ ﴾ قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لئحرقنه ثم لننسفته في اليم نسفا ﴿ (٣) .

حين ذهب موسى لميقات ربه، عمد رجل منهم يقال له السامري فأخذ ما كان استعاره من الحلوى فصاغ منه عجلا، وألقى فيه قبضة من التراب كان

(١) «الجزء» (١/ ٣٢٤ : ٣٢٦) .

(٢) سورة الأعراف: ١٤٨ .

(٣) سورة طه: ٨٣ : ٩٧ .

أخذه من فرس جبريل، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي، ويقال: إنه استحال عجلاً جسداً، أى: لحماً ودماً حياً يخور، قال قتادة وغيره: وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه، فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أى: فنسى موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو هاهنا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وتقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه.

وأقبل عليهم موسى فعنفهم ووبخهم فى صنعهم هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ تخرجوا من تملك حلى آل فرعون، وهم أهل حرب، وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم، ولم يتخرجوا -بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم- من عبادة العجل الجسد؛ الذى له خوار، مع الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القهار. وأقبل موسى على السامرى ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ ما حملك على ما صنعت؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أى رأيت جبرائيل وهو راكب فرساً ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أى من أثر فرس جبريل، فأخذ من أثر حافرها. فلما ألقاه فى هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان، ولهذا قال: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾.

قال ابن كثير:

هذا دعاء عليه أن لا يمس أحداً؛ معاقبة له على مسه ما لم يكن له

مسه.

قال القرطبي: «قال الحسن: جعل الله عقوبة السامرى ألا يماس الناس، ولا يماسوه؛ عقوبة له، ولما كان منه إلى يوم القيامة». . لا أمس ولا أمس.

تميم كرهط السامرى وقوله ألا لا يريد السامرى مساساً

قال ابن كثير: أى: كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه

من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول ﴿ لا مَسَاس ﴾ أى: لا تماس الناس ولا يماسونك. فمن كان يمسه تصيبه الحمى.

قال الألوسى، مبيناً كون الجزء من جنس العمل: إنه لما أنشأ الفتنة لما كانت ملامسته سبباً لحياة الموات، عوقب بما يضاذه؛ حيث جعلت ملامسته سبباً للحمى التي هي من أسباب موت الأحياء، وقيل: عوقب بذلك ليكون الجزء من جنس العمل. نَبَذَ فَنَبَذَ، فإن ذلك التحامى أشبه شىء بالنبذ. اهـ.

[١٤] نهاية قارون (١)

هذه قصة البطر والاستعلاء في الأرض، وترك شكر الله على النعم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يَسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣).

قال ابن حجر: روى ابن أبي حاتم، بإسناد صحيح، عن ابن عباس: أنه كان ابن عم موسى عليه السلام. قال: وكذا قال قتادة، وإبراهيم النخعي، وعبد الله بن الحارث، وسماك بن حرب، واختلف في تفسير بغى قارون فقيل: الحسد؛ لأنه قال: ذهب موسى وهارون بالأمر فلم يبق لى شىء، وقيل: إنه واطأ امرأة من البغايا أن تقذف موسى بنفسها فألهمها الله أن اعترفت بأنه هو الذى حملها على ذلك، وقيل: الكبر لأنه طغى بكثرة ماله، وقيل: هو أول من أطال ثيابه حتى زادت على قامته شبراً.

(١) «الجزء من جنس العمل» الجزء الأول ص (٣٢٠ : ٣٢٤).

(٢) سورة القصص: ٧٦ - ٧٨ .

(٣) سورة القصص: ٨٣ .

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾
تثقل.

﴿بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾: لا يرفعها العصبة من الرجال، واختلف في
العصبة فقليل: عشرة، وقيل: خمسة عشر، وقيل: أربعون، وقيل: من عشرة
إلى أربعين.

وكان من قصة قارون أنه حصل أموالاً عظيمة جداً حتى قيل: كانت
مفاتيح خزائنه من جلود تحمل على أربعين بغلاً.

أخرج ابن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: كان موسى
يقول لبني إسرائيل: إن الله يأمركم بكذا، حتى دخل عليهم في أموالهم،
فشق ذلك على قارون، فقال لبني إسرائيل: إن موسى يقول: من زنى رجم،
فتعالوا نجعل لبغى شيئاً حتى تقول: إن موسى فعل بها، فيرجم فنستريح منه،
ففعّلوا ذلك، فلما خطبهم موسى قالوا له: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت
أنا. فقالوا: فقد زنت، فجزع، فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت عظم عليها
موسى، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلا صدقت، فأقرت بالحق،
فخر موسى ساجداً يبكي، فأوحى الله إليه: إنى أمرت الأرض أن تطيعك
فأمرها بما شئت، فأمرها، فخشفت بقارون ومن معه.

وكان يسكن تنيس، فحكى أن عبد العزيز الحروري ظفر ببعض كنوز
قارون - وهو أمير تنيس - فلما مات تأمر ابنه على مكانه وتورع ابنه الحسن بن
عبد العزيز عن ذلك، فيقال: إن علياً كتب إلى أخيه الحسن: إنى استطيت
لك من مال أبيك مائة ألف دينار فخذها فقال: أنا تركت الكثير من ماله؛
لأنه لم يطب لى، فكيف آخذ هذا القليل؟!.

قال ابن كثير: خسف به إلى الأرض السابعة. قال قتادة: كان يسمى
النور لحسن صوته بالتوراة.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُتَّصِرِينَ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا جَمَعَهُ، وَلَا خَدَمَهُ وَحَشَمَهُ، وَلَا دَفَعُوا عَنْهُ نَقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ وَنِكَالَهُ، وَلَا كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُتَّصِرًا لِنَفْسِهِ، فَلَا نَاصِرَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا غَيْرِهِ.

يقول صاحب الظلال رحمه الله :

في كل زمان ومكان تستهوى زينة الأرض بعض القلوب فتطير لها قلوب، وتتهاولى لها نفوس، وتتشهاها أفئدة وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها، فلا يسألون بأى ثمن اشترى صاحب الزينة زينته، ولا بأى الوسائل نال ما نال من عرض الحياة، من مال، أو منصب، أو جاه، ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاولى.

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع، وهم أعلى نفساً وأكبر قلباً من أن يتهاووا أو يتصاغروا أمام قيم الأرض جميعاً، ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد، وهؤلاء هم الذين أوتوا العلم؛ العلم الصحيح الذى يقومون به الحياة حق التقويم.

﴿تلك الدار الآخرة﴾: الدار الآخرة العالية الرتبة، البعيدة الآفاق، للذين لا يريدون علواً، فلا يقوم فى نفوسهم خاطر استعلاء بأنفسهم لأنفسهم، ولا يهجمس فى قلوبهم الاعتزاز بذواتهم، إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملاها الشعور بالله، أولئك الذين لا يقيمون لهذه الدنيا وأشياؤها وأعراضها وقيمها وموازينها حساباً، ولا يبغون فيها كذلك فساداً.

قال أبو معاوية: الذى لا يريد علواً هو من لم يجزع من ذلها ولا ينافس فى عزها، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعاً، وأعزهم غداً ألزمهم لذل اليوم.

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله:

لما طغى بماله وكنوزه، والكنز: هو المخبوء المدخر من المال، ذهبت به الأرض. فهنا استكبار لثيم، وبطر ذميم لمغرور مظموس.

(١) سورة القصص: ٨١.

فهوى فى بطن الأرض التى علا فيها واستطال فوقها جزاءً وفاقاً،
 وذهب ضعيفاً عاجزاً، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال. ليعلم أنه هو
 وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم فليسوا
 هم الحكم ولا الأَشهاد، ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١).

لطيفة:

كان قارون غاية فى فقهه وفهمه، وكان فى النسب إلى موسى ابن
 عمه، فلما فاضت الدنيا عليه، فاضت نفس علمه، كانت مقاليد خزائن
 خزاياه وقرستين بغلاً، غير أن الذى فاته أعلى وأعلى، ملك الكثير والقليل
 ولم يسمح، نبه فلم يزل نومه، وليم فلا ينفع لومه. سحب ذيل ﴿فبغى﴾
 فقام قومه قومة زجر ﴿لا تفرح﴾ وألقوا إليه نصائح: ﴿وابتغ﴾، ﴿ولا
 تس﴾، ﴿وأحسن﴾، ﴿ولا تبغ﴾، فركب يوماً فى وقت اقتداره فى أربعة
 آلاف مقاتل، وسم الهوى يعمل فى المقاتل، وركب معه فى مِعمته ثلاثمائة
 جارية، وقد أنساه سفه الأمل أن سفينة الأمل جارية. فلما غلا وعلا، خُط
 إلى حضيض ﴿فخسفنا به﴾ فقال الجاهلون: إنما بادر موسى بادرته لأخذ
 بدرة (٢) بداره، فقال حاكم الغيب لإزالة الريب: ﴿وبداره﴾. فقال موسى: يا
 أرض خذيه فاستخذت (٣) لأمره، فسرت بسريره، فناشده قارون بالرحم فما
 رُحِم، فأخذته لتقدمه حتى غيبت قدمه، فما زال يردد القول حتى ذهب الغبى
 الغنى.

إن الدنيا إذا طلعت على الطعام تطغى، وإذا بغى نكاحها على العفاف
 تبغى، ثم إنها تقصد هلك محبها وتبغى، أما سحبت قرون قارون، مع أقرانه
 إلى القران فى قرن؟! .

فأين من جمع الأموال وتمولها، وطاف البلاد وجولها وشق أنهار
 الأرض وحولها رأت والله كل عاملة عملها، ونزلت بعد سفرها منزلها؟ .

(٢) أى: ماله.

(١) سورة القصص: ٧٨ .

(٣) أى: استرخت.

أين قارون؟ وقد هلك في الزمان ماله وجسده، ولقد ذهب من كان
وكان اسمه، فلا عينه تُرى ولا رسمه، ولا جوهره يُحس ولا جسمه، تدد
والله بالممات نظمه، ولحق بالرفات عظمه.

كم طوفوا بالبلاد وجولوا، كم أوعدوا وهولوا، كم جمعوا وتخولوا،
كم اقتنوا وتمولوا، كم تطاولوا وما تطولوا، فانظر الآن: أى غول تغولوا،
وأقاموا، فما قيل: فازوا، ولكن تحولوا.

أطاعوا إذا الخدع وصدقوه	وكم نصح النصيح فكذبوه
ولم يرضوا بما سكنوا مشيداً	إلى أن فضضوه وذهبوه
أظلموا بالقبيح فتابعوه	ولو أمروا به لتجنبوه
نهاهم عن طلاب المال زهد	ونادى الحرص ويلكم اطلبوه
فألقاها إلى أسماعٍ غثر ^(١)	إذا عُرف الطريق تنكبوه
حسبتم يا بنى حوا شقاء	نجاؤكم الذى لم تحسبوه
أدين الشر منكم فاحذروه	ومات الخير فيكم فاندبوه

[١٥] بلعام بن باعوراء

اختلف المفسرون في هذه القصة اختلافاً كثيراً، فمنهم من ضعفها
كالقاسمى في محاسن التأويل، ومن ذهب إلى أن الآيات من سورة الأعراف
لم تنزل في معين، وهناك روايات كثيرة أوردها الطبرى وابن كثير والألوسى
في تفاسيرهم.

قال ابن كثير:

وهذا الذى ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد
من علماء السلف.

(١) أى: سفلة الناس.

عن على بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين، يقال له: بلعام. وكان يعلم اسم الله الأعظم.

قال محمد بن إسحاق، عن سالم عن أبي النضر أنه حدث: أن موسى -عليه السلام- لما أنزل في أرض بنى كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه، فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بنى إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا، ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل، وإنا قومك وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم. قال: ويلكم! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه، حتى فتنوه فأتتن، فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بنى إسرائيل، وهو جبل حُسبان، فلما سار عليها غير كثير، ربضت به فنزل عنها فضربها، حتى إذا أذلقها^(١) قامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به، فضربها حتى إذا أذلقها، أذن الله لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعام، أين تذهب؟ أما ترى الملائكة تردني عن وجهي هذا؟. أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعوهم؟ فلم ينزع عنها بضربها، فخلق الله سبيلها حين فعل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حُسبان على عسكر موسى وبنى إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشرّاً إلا صرف لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل، فقال له قومه: أتدرى يا بلعام ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه!. قال: واندلع^(٢) لسانه فوقع على صدره. فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال. جملوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة من رجل أرادها، فإنهم إن زنا رجل منهم واحد كُفيتموهم، فافعلوا.

فلما دخل النساء المعسكر، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها: كُسبي ابنة

(١) الإذلاق: أن يبلغ منه الجهد.

(٢) خرج من الفم، واسترعى كلسان الكلب.

صور رأس أمّنه . برجل من عظماء بنى إسرائيل ، وهو زمري بن شلوم رأس سبط سمعان بن يعقوب بن إسحاق -عليهم السلام- فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى -عليه السلام- فقال : إني أظنك ستقول : هذا حرام عليك؟ قال : أجل ، هي حرام عليك ، لا تقربها . قال : فوالله ، لا نطيعك في هذا . ثم دخل بها قبته فوقع عليها ، وأرسل الله -عز وجل- الطاعون في بنى إسرائيل .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله:

قال تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ﴾ (١) .

اختلف المفسرون في معناها ، فأما على سياق ابن إسحاق ، عن سالم بن أبي النضر : أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره ، فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك .

وقيل : معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه ، وعدم انتفاعه بالدعاء والإيمان ، وعدم الدعاء كالكلب في لهثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته ، فهو يلهث في الحالتين ، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه .

فلما اندلع لسانه -الذي دعا به على نبي الله موسى- على صفة كان جزاؤه من جنس عمله .

يقول صاحب الظلال :

آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وتعرى عنها ، ولصق بالأرض ، واتبع الهوى ، استولى عليه الشيطان ، وأمسى مطروداً من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار .

إنسان يؤتية الله آيات ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع ، ولكن ها هو ذا ينسلخ من

(١) سورة الأعراف : ١٧٦ . وانظر للأهمية «أعلام الموقعين» (١/ ١٨١) ط . التوفيقية .

هذا كله انسلاخًا، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه، أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟ .

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله، ويتجرد من الغطاء الواقى، وينحرف عن الهدى؛ ليتبع الهوى، ويهبط من الأفق المشرق، فيلصق بالطين المعتم، فيصبح غرضًا للشيطان، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه، مشهد بائس نكد، إذا نحن بهذا المخلوق، لاصقًا بالأرض ملوثًا بالطين، ثم إذا هو مسخ فى هيئة الكلب، مشهد اللهات القلق الذى لا ينقطع ولا يطمئن أبدًا، والذى لا يترك صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبدًا.

مسخ شأنه الكيان، هابط عن مكان الإنسان إلى مكان الحيوان، مكان الكلب الذى يتمرغ فى الطين، وكان له من الإيمان جناح يرف به إلى عليين، وكان من فطرته الأولى فى أحسن تقويم، فإذا هو ينحط منها إلى أسفل سافلين .

فخلّ سبيلَ العينِ بعدك للبكاءِ فليس لأوقاتِ الصفاءِ رجوعُ

[١٦] مسخ بنى إسرائيل إلى قردة وخنازير (١)

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذِرُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢).

قال صاحب الظلال:

وإيذاء بنى إسرائيل لموسى - وهو منقذهم من فرعون وملئه، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم - إيذاء متطاوول متعدد الألوان، وجهاده فى تقويم اعوجاجهم جهاد مضمّن عسير شاق .

كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم، ويتعرض

(٢) سورة الصف: ٥ .

(١) «الجزاء» (١/ ٣١١ : ٣١٩) .

لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين:
﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ (١) كأنهم لا يرون في رسالته خيراً،
أو كأنما يحملونه تبعه هذا الأذى الأخير. وما كاد ينقذهم من ذل فرعون،
باسم الله الواحد الذى أنقذهم من فرعون، وأغرقه، وهم ينظرون، حتى
مالوا إلى عبادة فرعون وقومه. . ﴿فَاتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا
مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (٢) وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل
ليتلقى الألواح، حتى أضلهم السامرى ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا
هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (٣).

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم فى الصحراء: المن والسلوى،
فقالوا: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ
مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ (٤).

وفى حادث البقرة التى كلفوا ذبحها، ظلوا يماحكون ويتعللون ويسئون
الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِينْ لَنَا مَا هِيَ﴾ (٥) . . ﴿ادْعُ
لَنَا رَبَّكَ يَبِينْ لَنَا مَا لُونَهَا﴾ (٦) . ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِينْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ
عَلَيْنَا﴾ (٧) . ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٨) . .

ثم طلبوا يوم عطلة مقدساً، فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة -التي بشرهم الله بدخولها- وقفوا متخاذلين
يصعرون خدهم فى الوقت ذاته لموسى ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ
نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٩) فلما كرر عليهم

(٢) سورة الأعراف: ١٣٨ .

(٤) سورة البقرة: ٦١ .

(٦) سورة البقرة: ٦٩ .

(٨) سورة البقرة: ٧١ .

(١) سورة الأعراف: ١٢٩ .

(٣) سورة طه: ٨٨ .

(٥) سورة البقرة: ٦٨ .

(٧) سورة البقرة: ٧٠ .

(٩) سورة المائدة: ٢٢ .

التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (١).

وذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة، والاقتراحات، والعصيان، والتمرد، والاتهام الشخصي بالباطل، كما جاء في بعض الأحاديث.

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم في عتاب ومودة: ﴿يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾؟! وهم كانوا يعلمون عن يقين.. إنما هي لهجة العتاب والتذكير.

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعد ما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة، فزادهم الله زيغاً، وأزاع قلوبهم، فلم تعد صالحة للهدى. وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبداً ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢) وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر، وهم على هذا الزيغ والضلال.

قال القشيري:

لما زاغوا بترك الحد أزاع الله قلوبهم بنقض العهد.

ويقال: لما زاغوا عن طريق الرشد أزاع الله قلوبهم بالصد والرد والبعد عن الود.

ويقال: لما زاغوا بظواهرهم أزاع الله سرائرهم.

ويقال: لما زاغوا عن خدمة الباب أزاع الله قلوبهم عن التشوق إلى البساط.

ويقال: لما زاغوا عن العبادة أزاع الله قلوبهم عن الإرادة.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ (٣).

(٢) سورة التوبة: ٨٠.

(١) سورة المائدة: ٢٤.

(٣) سورة البقرة: ٤٠.

قال الرازى :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ قال الحسن : المراد منه العهد الذى أخذه الله تعالى على بنى إسرائيل فى قوله تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ﴾ (١) الآية، فمن وفى لله بعهده، وفى الله له بعهده .

قال ابن جرير :

عن ابن عباس : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ الذى أخذت فى أعناقكم للنبي - ﷺ - إذا جاءكم ﴿ أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أى : أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التى كانت فى أعناقكم؛ بذنوبكم التى كانت من أحداثكم. وعن أبى العالية ﴿ أَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ قال : عهده إلى عباده دين الإسلام، أن يتبعوه ﴿ أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ يعنى : الجنة .

قال ابن كثير :

وقال الضحاك، عن ابن عباس : ﴿ أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أرض عنكم وأدخلكم الجنة .

قال القرطبى :

وقيل : أوفوا بعهدى فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص، أوف بقبولها منكم ومجازاتكم عليها. وقال بعضهم : أوفوا بعهدى فى العبادات أوف بعهدكم، أى : أوصلكم إلى منازل الرعايات، أوفوا بعهدى فى حفظ أدب الظواهر، أوف بعهدكم بتزيين سرائركم .

وقيل : هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه، فيدخل فى ذلك ذكر محمد - ﷺ - الذى فى التوراة وغيره، هذا قول الجمهور من العلماء وهو الصحيح، وعهده - سبحانه وتعالى - وهو أن يدخلهم الجنة .

(١) سورة المائدة : ١٢ .

يقول صاحب الظلال:

يبدأ هذا الدرس بنداء علوى جليل إلى بنى إسرائيل، يذكرهم بنعمته -تعالى- عليهم، ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفى بعهدهم معهم.

يقول القشيري:

عهدُه -سبحانه- حفظ المعرفة، وعهدنا اتصال المغفرة. عهده حفظ محابه، وعهدنا لطف ثوابه. عهده حضور الباب، وعهدنا جزيل المآب. أوفوا بعهدى بحفظ السر، أوف بعهدكم بجميل البر، أوفوا بعهدى الذى قبلتم يوم الميثاق، أوف بعهدكم الذى ضمنت لكم يوم التلاق. أوفوا بعهدى فى ألا تؤثروا على غيرى؛ أوف بعهدكم فى ألا أمنع عنكم لطفى وخيرى. أوفوا بعهدى برعاية ما أثبت فيكم من الودائع؛ أوف بعهدكم بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع. أوفوا بعهدى بحفظ أسرارى؛ أوف بعهدكم بجميل مبارى. أوفوا بعهدى باستدامة عرفانى؛ أوف بعهدكم فى إدامة إحسانى. أوفوا بعهدى فى القيام بخدمتى؛ أوف بعهدكم فى المنّة عليكم بقبولها منكم. أوفوا بعهدى فى القيام بحسن المجاهدة والمعاملة؛ أوف بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة. أوفوا بعهدى بالتبرى عن الحول والمنّة؛ أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمنّة. أوفوا بعهدى بالتفضل والتوكل؛ أوف بعهدكم بالكفاية والتفضل. أوفوا بعهدى بصدق المحبة؛ أوف بعهدكم بكمال القربة. أوفوا بعهدى اكتفوا منى بى؛ أوف بعهدكم أرضى بكم عنكم. أوفوا بعهدى المطالبات بترك الشهوات؛ أوف بعهدكم بكفائتكم تلك المطالبات. أوفوا بعهدى بأن تقولوا أبداً: ربى ربى؛ أوف بعهدكم بأن أقول لكم: عبدى عبدى.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً...﴾ (١)

الآية.

قال ابن كثير:

(١) سورة المائدة: ١٣.

لما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم، وطرداً عن بابه وجنايه، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق؛ وهو العلم النافع والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١).

قال ابن كثير:

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل، وكثرة سؤالهم لرسولهم. ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق عليهم، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم.

قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٢﴾

قال ابن كثير:

قوله: ﴿وَاللِّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لما كان كفرهم سببه البغى والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٣).

قال تعالى: ﴿وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٤﴾

قال ابن كثير:

(١) سورة البقرة: ٦٨-٧١.

(٢) سورة البقرة: ٩٠.

(٣) سورة غافر: ٦٠.

(٤) سورة البقرة: ٦١.

ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه، من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم، أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد، وكساهم ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة؛ جزاءً وفاقاً.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (١).

قال ابن كثير:

يخبر تعالى عن اليهود -عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة- بأنهم وصفوا الله، عز وجل وتعالى عن قولهم علواً كبيراً؛ بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عن البخل بقولهم: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾.

وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واثبتكوه، فقال: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ وهكذا وقع لهم. فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم، قال تعالى: ﴿ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ... ﴾ الآية.

قال صاحب الظلال:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾. وذلك من سوء تصور يهود لله سبحانه، فقد حكى القرآن الكريم عن كثير من سوء تصورهم ذلك، وقد قالوا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ عندما سئلوا النفقة! وقالوا: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ يعللون بذلك بخلهم، فالله -بزعمهم- لا يعطى الناس ولا يعطيهم إلا القليل فكيف ينفقون؟.

وقد بلغ من غلظ حسهم، وجلافة قلوبهم، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذى أرادوه، وهو البخل بلفظه المباشر، فاختراروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفراً، فقالوا: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾.

(١) سورة المائدة: ٦٤.

ويجىء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم وطردهم من رحمة الله، جزاءً على قولهم: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وكذلك كانوا، فهم أبخل خلق الله بمال.

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم، ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥) فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين (١).

قال ابن كثير:

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود، ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطیاد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة قرده، وهى أشبه بالأناسى فى الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم، لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم.

هؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام.

عن أبى هريرة - رضي الله عنه -، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل».

(١) سورة البقرة: ٦٥، ٦٦.

قال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْنَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١).
قال ابن كثير:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، ﴿أَجْنَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا إثماً عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم.
قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢).

قال ابن كثير:

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى -ﷺ- لبني إسرائيل على الجهاد، ودخول بيت المقدس؛ الذي كان في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى أرض مصر أيام يوسف -ﷺ- ثم لم يزلوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قوماً من العمالقة، فأمرهم رسول الله موسى -ﷺ- بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه، والتمادى في سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تسلية لموسى -ﷺ- عنهم، أي لا تتأسف ولا تحزن عليهم، فمهما حكمت عليهم به فإنهم يستحقون ذلك.

(٢) سورة المائدة: ٢١-٢٦.

(١) سورة الأعراف: ١٦٣-١٦٦.

وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ورسوله، ونكولهم عن طاعتها فيما أمرهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله - ﷺ -، وكليمه وصفيه من خلقه في هذا الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال، والغرق له ولجنوده في اليم، وهم ينظرون لتقر به أعينهم، وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه. ويقولون مع ذلك: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾^(١) ففتح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقروود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضى لهم فيها بتأييد الخلود وقد فعل، وله الحمد من جميع الوجود.

لَمَّا قَالُوا: ﴿إِنَّا لَنَدْخُلُهَا﴾ ونكصوا حرموا من دخولها أربعين سنة والجزاء من جنس العمل.

[١٧] مدين قوم شعيب

كان أهل مدين قوماً عرباً، يسكنون مدينتهم مدين، التي هي قرية من أرض معان في أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط، وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة، وكان بها غيضة من الأشجار فأرسل الله إليهم أخاهم شعيباً.

وعن أبي ذر الغفاري قال رسول الله - ﷺ -: «أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونيك يا أبا ذر».

(١) سورة المائدة: ١٨.

قال تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴿١٨٥﴾ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبعونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثرتكم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴿١٨٦﴾ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴿١﴾.

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يومٍ محيظ ﴿١٨٤﴾ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقيسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿١٨٥﴾ بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴿٢﴾.

وقال تعالى: ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴿١٧٦﴾ إذ قال لهم شعيب ألا تنفون ﴿١٧٧﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٧٨﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٧٩﴾ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين ﴿١٨٠﴾ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴿١٨١﴾ وزنوا بالقيسط المستقيم ﴿١٨٢﴾ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿١٨٣﴾ واتقوا الذي خلقكم والجيل الأولين ﴿١٨٤﴾ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴿١٨٥﴾ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴿١٨٦﴾ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴿١٨٧﴾ قال ربى أعلم بما تعملون ﴿١٨٨﴾ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يومٍ عظيم ﴿٣﴾.

كان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك، حولها غيضة^(٤) ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يخسون المكيال والميزان، ويطفون^(٥) فيهما، يأخذون

(٢) سورة هود: ٨٤-٨٦.

(٤) مجتمع الشجر.

(١) سورة الأعراف: ٨٥-٨٧.

(٣) سورة الشعراء: ١٧٦-١٨٩.

(٥) الطفيف: القليل.

بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله إليهم شعبيًا، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفعال القبيحة، فأمن بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد.

﴿وَمَنْ يَظْمُرْ كُفْرًا فَسَيُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَسَلًا يَدْرِيكُمْ﴾ (١).

قال ابن عباس: كانوا قومًا طغاة بغاة، يجلسون على الطريق، يبخسون الناس يعنى يعشرونهم، وكانوا أول من سن ذلك.

﴿وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية.

وذكرهم بنعمة الله عليهم فى تكثيرهم بعد القلة: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وحذرهم سلب نعمة الله عليهم فى دنياهم، وعذابه الأليم فى أخراهم.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام، فإن الحلال مبارك وإن قل، وإن الحرام محقق وإن كثر.

﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْ طُؤِ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٢) معناه فى الزمان، أى ما بالعهد من قدم مما بلغكم ما أحل الله بهم على كفرهم وعتوهم.

وقيل: معناه ما هم منكم ببعيد فى المحلة والمكان.

وقيل: فى الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية، بأنواع الحيل والشبهات.

والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا ببعيدين منهم لا زمانًا ولا مكانًا ولا فى الصفات.

فماذا كان موقف أهل مدين:

(١) أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك، وتخيفون السبل.

(٢) سورة هود: ٨٩.

في تبجح تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه، يقولون قولة فاجرة:
﴿لنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مَلَّتِنَا﴾ (١).

وقالوا أيضاً: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٢).

وهو رد واضح التهكم، بين السخرية في كل مقطع من مقاطعه، وإن كانت سخرية الجاهل المطموس والمعاند بلا معرفة ولا فقه، يتوَّح القوم بالسخرية فيقولون: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ وهم يعنون عكس معناها، فالحلم والرشد عندهم ما يعبد آباؤهم بلا تفكير، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق.

وقالوا أيضاً: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ (٣).

فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح، لا يريدون أن يدركوه، وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (٤) ففي حسابهم عصبية العشيرة لا عصبية الاعتقاد، وصلة الدم لا صلة القلب، ثم هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه، فلا يضعونها في الحساب.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (٥). حين تفرغ النفوس من العقيدة القويمية، فإنها

تقع على الأرض ومصالحها القربية وقيمها الدنيا، فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة، ولا لحقيقة كبيرة، ولا تتخرج عن البطش بالداعية، إلا أن تكون عصبية تؤيده، وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه، أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية.

يقول لهم نبيهم شعيب: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ

(٢) سورة هود: ٨٧.

(١) سورة الأعراف: ٨٨.

(٤) سورة هود: ٩١.

(٣) سورة هود: ٩١.

(٥) سورة هود: ٩١.

وَرَأَيْكُمْ ظَهْرِيًّا ﴿١﴾ هؤلاء أشد قوة ورهبة في نفوسكم من الله، لا تلتفون إليه: ﴿وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ ترك وإعراض وشناعة فعل.

وقالوا له أيضاً: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (٢) فهو عندهم من المسحورين يخلط ويهذى ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِرُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٨٦) فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴿٣﴾ في تحدى المستهتر الهازئ المستهين، طلبوا منه أن يسقط عليهم جانباً من السماء، أو كما يقول قتادة: قطعاً من السماء إن كان من الصادقين.

قال ابن حجر:

جاء عن قتادة: أنه -أى شعيب- أرسل إلى أمتين: أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة، ورجح بأنه وُصف في أصحاب مدين بأنه أخوهم بخلاف أصحاب الأيكة، وقال في أصحاب مدين ﴿أخذتهم الرجفة﴾ و ﴿الصيحة﴾ وفي أصحاب الأيكة ﴿أخذهم عذاب يوم الظلة﴾.

والجمهور على أن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة، وأجابوا عن ترك ذكر الأخوة في أصحاب الأيكة، بأنه لما كانوا يعبدون الأيكة، ووقع في صدر الكلام بأنهم أصحاب الأيكة ناسب ألا يذكر الأخوة، وعن الثاني بأن المغايرة في أنواع العذاب إن كانت تقتضى المغايرة في المعذبين فليكن الذين عذبوا بالرجفة غير الذين عذبوا بالصيحة؛ والحق أنهم أصابهم جميع ذلك؛ فإنهم أصابهم حر شديد، فخرجوا من البيوت فأظلمت سحابة فاجتمعوا تحتها، فرجفت بهم الأرض من تحتهم، وأخذتهم الصيحة من فوقهم. اهـ.

قال قتادة: قال عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-: إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء، ثم إن الله أنشأ سحابة فانطلق إليها أحدهم واستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه، فأتوها

(١) سورة هود: ٩٢. (٢) سورة الشعراء: ١٨٥.

(٣) سورة الشعراء: ١٨٦، ١٨٧.

جميعاً، فاستظلوا تحتها فأججت ناراً، وهكذا روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة.

وقال محمد بن كعب القرظي: إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كالיום ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا، هلموا، أيها الناس، فدخلوا جميعاً تحت الظلة، فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا جميعاً ثم تلا محمد بن كعب: ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾.

وسئل ابن عباس عن هذه الآية فقال: بعث الله عليهم ومدة^(١) وحرّاً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا البيوت، فدخل عليهم أجواف البيوت فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية، فبعث الله سحابة فأظلمت من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة فنأى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله على الناس، قال ابن عباس: فذلك: ﴿عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾.

فكيف كان الجزاء من جنس العمل؟

قال ابن كثير:

قد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثالب، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات؛ سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أحمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار في سائر أرجائها والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ويوافق طباقها:

في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه، وتوعدوهم

(١) ندى من البحر يقع على الناس في شدة الحر وسكون الريح.

بالإخراج من قريتهم، أو ليعودن في ملتهم راجعين، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾، فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق، ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾^(١)؛ وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لِأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٢) فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم، مع رجفة أسكتتهم.

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظَنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٣) فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴿٣﴾.

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقله ضعيف، وإنما عمدتهم شيثان:

أحدهما: أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴿٤﴾ ولم يقل: أخوهم كما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٥).

والثاني: أنه ذكر عذابهم يوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول أنه لم يذكر الإخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٦) لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها

(٢) سورة هود: ٨٧.

(١) سورة هود: ٩٤.

(٤) سورة الشعراء: ١٧٦، ١٧٧.

(٣) سورة الشعراء: ١٨٦، ١٨٧.

(٦) سورة الشعراء: ١٧٦.

(٥) سورة هود: ٨٤.

هنا، ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم، وهذا الفرق من
النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمجردده على أن هؤلاء أمة
أخرى فليكن تعدد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان؛
وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن.

قال ابن كثير:

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنَّ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْكُمْ إِذَا
لَخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا
كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ (١) وهذا فى مقابلة
قولهم: ﴿ لَنَّ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾.

والجزء من جنس العمل.

ولننظر إلى عبارات المفسرين التى تدور حول هذا المعنى.

قال الألوسى:

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ (٢) أى لم يقيموا فى دارهم،
عوقبوا بتوعدهم السابق بالإخراج، وصاروا هم المخرجين من القرية إخراجاً
لا دخول بعده دون شعيب.

وقال الألوسى: فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا
فِيهَا ﴾ (٣).

الذين كذبوه - عيسى عليه السلام - عوقبوا بقولهم: ﴿ لَنَّ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْكُمْ إِذَا
لَخَاسِرُونَ ﴾ (٤) فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لتكذيبهم، لا المتبعون
لشعيب - عيسى عليه السلام -، الرد عليهم بعين ما تلفظوا به، ما جعلوه نصيحة صار
فضيحة.

(٢) سورة الأعراف: ٩٢.

(١) سورة الأعراف: ٩٠-٩٢.

(٤) سورة الأعراف: ٩٠.

(٣) سورة الأعراف: ٩٢.

قال القرطبي:

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾^(١) ولما قالوا: من اتبع شعيباً خاسر، قال الله: الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ﴾^(٢).

يقول صاحب الظلال:

الرجفة والجثوم جزاء التهديد والاستطالة، وبسط الأيدي بالأذى والفتنة، ويرد السياق على قولهم: ﴿لَنْ اتَّبِعْتُمْ شَعِيبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ﴾^(٣) وهى التى قالوا مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة، فيقرر - فى تهكم واضح - أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيباً، إنما كان من نصيب قوم آخرين.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤) ففى ومضة ها نحن أولاء فى دارهم جاثمين، لا حياة ولا حراك كأن لم يعمروا هذه الدار، وكان لم يكن لهم فيها آثار.

ويطوي صفحتهم مشيعة بالتبكيك والإهمال، والمفارقة والانفصال، من رسولهم الذى كان أحاهم، ثم افترق طريقه عن طريقهم، فافترق مصيره عن مصيرهم، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم، وعلى ضيعتهم فى الغابرين ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾^(٥).

خلت منهم الدور، كأن لم يكن لهم فيها دور، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهر، مضوا مشيعين باللعنة، طويت صفحتهم السوداء فى الوجود، وصفحتهم فى القلوب ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾^(٦).

يقول ابن كثير:

- | | |
|-----------------------|-----------------------|
| (١) سورة الأعراف: ٩٢. | (٢) سورة الأعراف: ٩١. |
| (٣) سورة الأعراف: ٩٠. | (٤) سورة الأعراف: ٩٢. |
| (٥) سورة الأعراف: ٩٣. | (٥) سورة هود: ٩٥. |

لما قالوا: ﴿لنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ (١) ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾ (٢) أَرَجَفُوا بَنِي اللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَهُ، فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ، فَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ الَّتِي ظَلَمُوا بِهَا، وَأَرَادُوا إِخْرَاجَ نَبِيِّهِمْ مِنْهَا. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا....﴾ (٣).

قال ابن كثير:

لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم على نبيهم، وتهكموا به، فجاءت الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم.

وقال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فَأَسْقُطْ عَلَيْنَا كَسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ... ﴿٤﴾ وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِهِمْ كَمَا سَأَلُوا جِزَاءً وَفَاءً، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ (٥) وَهَذَا مِنْ جِنْسِ مَا سَأَلُوا مِنْ إِسْقَاطِ الْكَسْفِ عَلَيْهِمْ، قَالُوا هِيَ عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ، فَنَاسَبَ أَنْ يَحِقَّ عَلَيْهِمْ مَا اسْتَبَعَدُوا وَقَوَعَهُ.

وقال ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

كأنهم لما أصابتهم النعمة لم يقيموا بدارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها، ثم قال مقابلاً لقيلمهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦).

وقال - رحمه الله -:

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن في الأعراف، وهود، والشعراء، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، والله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

يقول الألوسي:

- | | |
|------------------------|----------------------------|
| (١) سورة الأعراف: ٨٨. | (٢) سورة الأعراف: ٩١. |
| (٣) سورة هود: ٨٧. | (٤) سورة الشعراء: ١٨٧-١٨٩. |
| (٥) سورة الشعراء: ١٨٩. | (٦) سورة الأعراف: ٩٢. |

فى إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها؛ إيدانًا بأن لهم عذابًا آخر غير عذاب الظلة، وفى ترك بيانه تعظيم لأمره.

نكت بلاغية:

قال تعالى فى سورة هود فى قصة ثمود ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ (١) وقال فى هود ومدين ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ (٢)، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ (٣).

يقول الشيخ محمد رشيد رضا:

من دقيق نكت البلاغة فى الآيات فى قوله تعالى فى إهلاك مدين هنا ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ فعطف لما على ما قبلها بالواو، ومثله فى قوم هود، ولكنه عطفها بالفاء فى قصة ثمود وقصة قوم لوط، ووجه هذا الأخير أن الآيتين جاءتا عقب الإنذار بالعذاب، واستحقاقه وحلول مواعده، فعطفنا بالفاء الدالة على التعقيب، وأما عطف مثلهما فى قوم هود، وقوم شعيب فليس كذلك، فعطف بالواو على الأصل، أما الأول فظاهر؛ لأنه ليس قبل الآية وعيد بالعذاب، وأما الثانى ففيه وعيد مسوف فيه مقرون بالارتقاب لا الاقتراب، فلا يناسب العطف عليه بالفاء التى تفيد التعقيب بدون انفصال، فهل تصادف مثل هذه الدقائق اللغوية فى غير القرآن. اهـ.

[١٨] نهاية قاتلة يحيى بن زكريا (٤)

قال الحافظ ابن كثير: روى الحافظ ابن عساكر فى «المستقصى فى فضائل الأقصى عن قاسم مولى معاوية، قال: كان ملك هذه المدينة -يعنى: دمشق- هداد بن هدار وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أربل ملكة صيدا، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، قال: وكان قد حلف

(٢) سورة هود: ٥٨.

(١) سورة هود: ٦٦.

(٤) «الجزء» (١/٣٢٦ : ٣٢٧).

(٢) سورة هود: ٩٤.

بطلاقها ثلاثاً ثم إنه أراد مراجعتها، فاستفتى يحيى بن زكريا فقال: لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا؛ وذلك بإشارة أمها، فأبى عليها، ثم أجابها إلى ذلك، وبعث إليه - وهو قائم يصلى فى مسجد جيرون- من أتاه برأسه فى صينية، فجعل الرأس يقول: لا تحل له، لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، فأخذت المرأة الطبق، وحملته على رأسها، وأتت به أمها، وهو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها، ثم إلى حقوبها، وجعلت أمها تولول، والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن، ثم خسف بها إلى منكيبيها، فأمرت أمها السيف أن يضرب عنقها، لتسلى برأسها، ففعل، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك، ووقعوا فى الذل والفناء، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً.

وكان جزاؤها من جنس عملها: لما اجتزت رأس يحيى بن زكريا - عليهما السلام- اجتز رأسها، جزاءً وفاقاً.

[١٩] أصحاب الأخدود

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ (١)

وعن صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت، فابعث إلى غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان فى طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب، وقعد إليه، فإذا

(١) سورة البروج: ٤-١٠.

أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسنى أهلى. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنى الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضى الناس. فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال الراهب: أى بنى، أنت اليوم أفضل منى، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل على، وكان الغلام يبرئ الأكمة والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هنا لك أجمع إن أنت شفيتنى. فقال: إنى لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك. فآمن بالله، فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيرى؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل به حتى دلّ على الغلام، فجىء بالغلام، فقال له الملك: أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمة والأبرص وتفعل وتفعل؟! فقال: إنى لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب، فجىء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار، فوضع فى مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه. ثم جىء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك: فأبى، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جىء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم، اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه فى قُرُقُور^(١) فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، ولا فاقدفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء

(١) السفينة الصغيرة.

يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلى، حتى تفعل ما أمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام. ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام. ثم رماه فوق السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: رأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرک، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فحُدَّتْ، وأضرَمَ النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها - أو قيل له: اقتحم: ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبرى فإنك على الحق».

فكيف كان جزاء الظالمين من جنس عملهم:

القوم الذين أرادوا أن يلقوا بغلام الراهب من فوق الجبل، رجف بهم الجبل فسقطوا، والذين أرادوا أن يقذفوا به في البحر غرقوا هم.

قال ابن كثير:

روى ابن أبي حاتم عن الربيع - هو ابن أنس - في قوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ سمعنا أنهم كانوا قومًا في زمان الفترة، فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون، اعتزلوا إلى قرية سكنوها، وأقاموا على عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين، وحدث حديثهم، فأرسل إليهم، فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التي اتخذوا، وإنهم أبوا عليه كلهم، وقالوا: لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له، فقال لهم: إن لم تعبدوا هذه الآلهة التي عبدت، فإنى قاتلكم. فأبوا عليه،

فخذ أخذوداً من نار، وقال لهم الجبار ووقفهم عليها فقال: اختاروا هذه أو الذى نحن فيه. فقالوا: هذه أحب إلينا، وفيهم نساء وذرية ففرغت الذرية، فقالوا لهم -أى آبائهم-: لا نار من بعد اليوم، فوقعوا فيها. فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسه حرها، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين، فأحرقهم الله بها، ففى ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ إلى قوله تعالى: ﴿والله على كل شىء شهيد﴾.

قال تعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ أى حرقوا، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة.

قال ابن جرير: ﴿إن الذين فتنوا..﴾ قال قتادة: حرقوهم بالنار، قوله تعالى: ﴿ثم لم يتوبوا﴾ أى لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل.

وعن الربيع: ﴿فلهم عذاب جهنم﴾ فى الآخرة، ﴿ولهم عذاب الحريق﴾ فى الدنيا.

قال الألوسى:

﴿فلهم عذاب جهنم﴾ بسبب كفرهم، ﴿ولهم عذاب الحريق﴾ بسبب فتنتهم المؤمنين والمؤمنات، وفى جعل ذلك جزاء للفتنة من الحسن ما لا يخفى.

قال القرطبي:

روى أبو صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود، فصارت على الملك وأصحابه، أربعين ذراعاً فأحرقتهم.

وقال القرطبي فى قوله تعالى: ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾.

قال: ﴿عذاب جهنم﴾ لكفرهم، ﴿ولهم عذاب الحريق﴾ فى الدنيا، لإحراقهم المؤمنين بالنار، وقد تقدم عن ابن عباس، وقيل: ﴿ولهم عذاب الحريق﴾ أى ولهم فى الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم، بما أحرقوا المؤمنين.

قال القمى النيسابورى فى قوله تعالى: ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب
الحريق﴾ .

عذاب جهنم، وعذاب الحريق مختلفان فى الدركة، الأول لكفرهم،
والثانى لأنهم فتنوا أهل الإيمان، وجوز أن يكون الحريق فى الدنيا، لما روى
أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم .

قال ابن كثير:

قال ابن أبى حاتم عن صفوان بن عبد الرحمن بن زهير، قال: كانت
الأخدود فى اليمن زمان تُبع، وفى القسطنطينية زمان قسطنطين، حين حرف
النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتوناً وألقى فيه النصارى
الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفى العراق فى أرض بابل . يختنصر
الذى صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباها عزريا
وميشائيل، فأوقد لهم أتوناً وألقى فيها الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه،
فجعلها الله عليهما برداً وسلاماً، وأنقذهما منها، وألقى الذين بغوا عليه،
وهم تسعة رهط فأكلتهم النار .

والجزء من جنس العمل .

يقول صاحب الظلال:

﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ . ومضوا فى ضلالتهم سادرين، لم
يندموا على ما فعلوا، ﴿ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾
وينص على الحريق، وهو مفهوم من عذاب جهنم، ولكنه ينطق به وينص
عليه؛ ليكون مقابلاً للحريق فى الأخدود، وبنفس اللفظ الذى يدل على
الحدث، ولكن أين حريق؟! فى شدته أو مدته؟! وحريق الدنيا يوقدها الخلق،
وحريق الآخرة يوقدها الخالق، وحريق الدنيا لحظات وتنتهى، وحريق الآخرة
آباد لا يعلمها إلا الله، ومع حريق الدنيا رضا الله على المؤمنين، وانتصار
لذلك المعنى الإنسانى، ومع حريق الآخرة غضب الله، والارتكاس الهابط
الذميم .

[٢٠] إن أبيت إلا ذبحى فاذبحنى عند تلك الصخرة (١)

ذكر بعض العلماء أن رجلاً كان عنده والد كبير لا يستطيع أن يخدم نفسه، وكان ولده يخدمه، فتأفف من خدمته ومن القيام بأمره، ففكر فى قتله، فأخذه إلى الصحراء ليذبحه، فلما وصل إلى صخرة أنزله هناك. فقال الرجل: يا بنى، ماذا تريد أن تفعل بى؟ فقال الولد: أريد أن أذبحك فقد أتعبتنى وأسأمتنى، فقال الرجل: إن أبيت إلا ذبحى فاذبحنى عند الصخرة التالية، أنا كنت قبلك عاقاً لوالدى، وذبحته عند تلك الصخرة، ولك يا بنى مثلها.

[٢١] النضيرة بنت الساطرون قتلت أباهما فقتلها القاتل (٢)

الساطرون هو الضيزن بن معاوية صاحب الحضرم، وهو حصن على حافة الفرات، وبداخله مدينة عظيمة.. أغار عليه سابور وحصره ستين، فأشرفت النضيرة بنت الساطرون فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلاً، فدست إليه أتتزوجنى إن فتحت لك باب الحضرم؟ فقال: نعم، فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكران، فأخذت مفاتيح باب الحضرم من تحت رأسه، وبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب - ويقال: بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع - فولجوا منه إلى الحضرم، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضرم وخرّبته، وسار بها معه فتزوجها، فيينا هى نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تلملم لا تنام، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس. فقال لها سابور: أهذا الذى أسهرك! قالت: نعم. قال: فما كان أبوك يصنع بك؟ قالت: كان يفرش لى الديباج، ويلبسنى الحرير،

(١) ذكرها الشيخ على القرنى فى شريط «هكذا علمتنى الحياة».

(٢) انظر «الجزء من جنس العمل» (١٩١/٢) وانظر أيضاً «أخبار النساء» باب غدر النساء وهو بتحقيقى ط التوفيقية.

ويطعمنى المخ، ويسقيني الخمر. قال: أفكان جزاء أبيك ما صنعت به؟ أنت إلى بذلك أسرع، فربطت قرون رأسها بذنوب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها.

كما كانت سبباً فى مقتل أبيها.

[٢٢] أبرهة صاحب الفيل

قال ابن جرير:

عن ابن إسحاق أن أبرهة -الأشرم- بنى كنيسة بصنعاء، وكان نصرانياً، وسماها: القليس.

وانظر إلى أبرهة اللعين -صاحب الفيل- والصاحب يكون من جنس القوم. فكأن الله أشار إلى أنه من جنس البهائم بل أضل. لما ابتنى كنيسته القليس بصنعاء وأراد حج الناس إليها، وأراد بذلك صرف الناس عن الحج إلى البيت.

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله:

فصرف الله عنها الناس، وأوقد الحريق فيها كما قال القمى النيسابورى. والجزاء من جنس العمل.

يقول الشنقيطى فى أضواء البيان:

وكذلك جيش أبرهة، لما جاء مدلاً بعدده وعدته، وجاء معه بالفيل أقوى الحيوانات، سلط الله عليه أضعف المخلوقات والطيور ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿١﴾﴾ (١).

يقول ابن كثير:

يقول ابن إسحاق: أرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف،

(١) سورة الفيل: ٣-٥.

مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر فى منقاره، وحجران فى رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هارين يتدرون الطريق التى منها جاءوا يسألون عن نفيل ابن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن، وفى ذلك يقول نفيل:

حمدت الله إذ أبصرت طيراً وخفت حجارة تلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نفير كأن علىّ للحبشان دَبنا

قال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك، على كل منهل، وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أئمة أئمة، كلما سقطت أئمة اتبعتها منه مدة تمت قيحاً ودماً، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

فلما أراد أبرهة هدم البيت حجراً حجراً، كذلك سقطت أئمة أئمة.

لما أراد تصديع البيت فكذا انصدع صدره عن قلبه.

لما زها وعتا بنفسه، وخرج بقوته يريد مكة، فالآن يعود إلى بلاده مثل فرخ الطائر.

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ (١).

أبابيل: أى متفرقة يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى، قال ابن عباس: يتبع بعضها بعضاً. وقال عبد الله: فرق. وقال ابن عباس: كانت طيراً لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأف الكلاب.

والسجيل: هو الطين فى حجارة، كما قال ابن عباس.

فانظر رحمك الله.. لما تتابعوا على البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، يتبع بعضها بعضاً.

(١) سورة الفيل: ٣-٥.

ولما أرادوا نقض البيت، وهدمه حجراً حجراً عذبهم الله بالحجارة.
والجزء من جنس العمل.

لا هم إنَّ العبيد
لا يغلبن صليبيهم
نع رحله فامنع رحالك
ومحالهم غدواً محالك

قال ابن كثير:

قال ابن إسحاق: بعثت ثقيف أبا رغال مع أبرهة، ليدله على الطريق إلى مكة، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك، فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذي يرمم الناس بالمغمس، كقول جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه
كرجمكم لقبر أبي رغال
فلما أعان القوم كدليل لهدم الكعبة، وجعلها أنقاضاً وحجارة، فكذا يرمم قبره بالحجارة.

والجزء من جنس العمل.

أما قائد الفيل وسائسه: روى ابن إسحاق عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل، وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان. تحركت أقدامهما بالفيل، فأصبحا يقادان في شوارع مكة، وأقعدهما الله.

والجزء من جنس العمل.

يقول صاحب الظلال:

ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعزَّ بالفيل - وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسمًا - ويهلك بحيوان صغير، لا يظهر للنظر، ولا يدرك بالبصر، حيث ساقه القدر، لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر. فلما شرفت الكعبة بإضافة ﴿وطهر بيتي﴾^(١)، قصدها فوج الفيل،

(١) سورة الحج: ٢٦.

فَقِيلَ (١) مرادهم، لما باتوا على ما بيتوا، أقبل الطير الذى رمى كالغمام، فكانت قطراته للحصاد لا للبذر، فأصبح لزرع الأجساد كالمنجل الهاشم؛ ليكون معجزاً لظهور بنى هاشم، فأمسوا فى بيدر الدياس ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.

[٢٣] عاقبة التكبر على الناس (٢)

ذكر ابن كثير قصة الرجلين المؤمن والكافر:

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَنْ رُدَّتْ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ (٣).

قال بعض الناس: هذا مثل مضروب، ولا يلزم أن يكون واقعاً، والجمهور أنه أمر قد وقع وقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾، أى لكفار قريش كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ (٤).

قال ابن عباس وقتادة: حسبانا؛ أى عذاباً من السماء. والظاهر أنه المطر المزعج الباهر، الذى يقتلع زروعها وأشجارها.

﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (٥) وهو التراب الأملس الذى لا نبات فيه.

﴿أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غُورًا﴾ (٦) وهو ضد المعين السارح.

(١) خاب. والسياق من «الجزء من جنس العمل».

(٢) «الجزء من جنس العمل» الجزء الأول ص (٥١٧ : ٥١٨).

(٣) سورة الكهف: ٣٢ - ٣٦ . (٤) سورة الكهف: ٤٠ .

(٥) سورة الكهف: ٤٠ . (٦) سورة الكهف: ٤١ .

﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا ﴾ (١) فلا تقدر على استرجاعه .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ (٢) أى جاءه أمر أحاط بجميع حواصله، وخرب جنته

ودمرها .

﴿ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أى خربت

بالكلية فلا عودة لها، وذلك ضد ما كان عليه أمل حيث قال: ﴿ وما أظن أن

تبيد هذه أبداً ﴾ .

إن من قدم شيئاً على طاعة الله، والإنفاق فى سبيله عذب به، وربما

سُلب منه معاملة له بنقيض قصده، والجزاء من جنس العمل .

[٢٤] نهاية معذبة زنيرة (٣)

كانت زنيرة فتاة صغيرة مملوكة عند امرأة مشركة فى قريش، ولما أسلمت قامت سيدتها تعذبها بالليل والنهار، وذات يوم جمعت الجوارى وأمرتهن أن يضربنها على رأسها، حتى فقدت البصر، فإذا عطشت قالت: اعطونى ماءً . قالت: الماء أمامك فابحثى عنه . قالت لها سيدتها: يا زنيرة، إن كان ربك الذى تؤمنين به حقاً كما تزعمين، ادعيه فليرد عليك بصرك لكى ترى الماء والطعام . فرفعت يديها إلى الله، وقالت: اللهم، إني أسألك أن ترد على بصرى: فأبصرت، وإذا بسيدتها تصرخ، وتصيح من رأسها وارأساه . وتقول للجوارى: احملن النعال والقباقيب، واضربونى على رأسى . فضربنها حتى فقدت البصر .

وهكذا ينتقم الله لأوليائه والجزاء من جنس العمل .

وكان العمى جزاءً على الكفر .

(٢) سورة الكهف: ٤٢ .

(١) سورة الكهف ٤١ .

(٣) «الجزاء» (١/ ٢٦٤) بواسطة عن شريط حلاوة الإيمان للشيخ أحمد القطان .

[٢٥] نهـاية أبى لهب

[٢٦] نهـاية امرأته حمالة الحطب

[٢٧] نهـاية ولدهما (١)

وأبو لهب هذا الذى أفرد الله ذكره من كفار قريش، هو أحد أعمام رسول الله - ﷺ -، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمي أبا لهب؛ لإشراق وجهه، ولتلهب وجنتيه، وكأن كنيته من جنس عمله وماله إلى ذات اللهب، فوافقت حاله كنيته فحسن ذكره بها، وامرأته أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهى أخت أبى سفيان.

ولقد كان أبو لهب كثير الأذية لرسول الله - ﷺ - والبغض له، والازدراء به. والتقص له ولدينه.

وانظر إلى نموذج من نماذج كيد أبى لهب لدعوة الرسول - ﷺ -، التى عاها من اليوم الأول للدعوة.

روى الإمام أحمد، عن ربيعة بن عباد من بنى الدبلى - وكان جاهلياً، فأسلم - قال: رأيت النبى - ﷺ - فى الجاهلية، فى سوق ذى المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

وروى محمد بن إسحاق عن ربيعة بن عباد الدبلى قال: إنى لمع أبى غلام شاب، أنظر إلى رسول الله - ﷺ - يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضىء ذو جمة، يقف رسول الله - ﷺ - على القبيلة فيقول: «يا بنى فلان، إنى رسول الله إليكم، أمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً وأن تصدقونى وتمنعونى، حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به» وإذا فرغ من مقالته قال الآخر، من

(١) «الجزء من جنس العمل» (١/٢٥١ : ٢٦٠).

خلفه: يا بنى فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيس، إلى ما جاء به من البدعة والضلة، فلا تسمعوا له وتتبعوه.

فقلت لأبى: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب.

قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٣) وَأَمْرَاتِهِ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ۚ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ (٥)﴾ (١).

روى البخارى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبى -صلى الله عليه وسلم- خرج إلى الطحاء فصعد الجبل، فنادى: «يا صباحاه». فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى؟» قالوا: نعم. قال: «فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: ألهدنا جمعتنا؟ تباً لك. فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ﴾.

وفى رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: تباً لك سائر اليوم، ألهدنا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ﴾.

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله:

من أول يوم ينفرد هذا الكافر بالكيد للرسول -صلى الله عليه وسلم- وتتبع خطوه، والرد على مقالته، فأفرد الله ذكره، وشهره بكنيته دون بقية صناديد الكفر من قريش.

ولما قال للرسول -صلى الله عليه وسلم-: تباً لك وقام ينفض يديه، فتنزل السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبى لهب وامراته، وتولى الله سبحانه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر المعركة.

قال: تباً لك، فكان الجزاء: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ﴾ . . دعاء بدعاء، ولفظٌ بلفظ.

(١) سورة المسد: ١-٥ .

نفض يديه، فجاء ذكر اليمين: ﴿تَبَّ يَدَا﴾ .. واحدة بواحدة.. يداك
أو كتا وفوك نفخ أبا لهب.

سائر اليوم: سائر الدهر وأنت بعد في دار الدنيا ﴿وتب﴾.

ولم يقض الله له ولا لامرأته أن يؤمنا، ولا لواحد منهما ولا ظاهراً
ولا باطناً، ولا سرّاً، ولا معلناً؛ فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة
الظاهرة.

﴿تَبَّ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ تباب وهلاك وبوار وقطع.. في آية قصيرة
واحدة، تصدر الدعوة وتحقق، وتنتهي المعركة، ويسدل الستار!

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي - ﷺ - ولو لم
يكونوا على دينه؛ تلبية لدافع العصبية القبلية، خرج أبو لهب على إخوته،
وحالف عليهم قريشاً، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بنى
هاشم، وتجويعهم كي يسلموا لهم محمداً - ﷺ -، وكان قد خطب بنتي
الرسول - ﷺ - رقية وأم كلثوم، لولديه قبل بعثة النبي - ﷺ - فلما كانت
البعثة أمرهما بتطليقهما، حتى يثقل كاهل محمد بهما!

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

قال ابن عباس: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعني ولده، وروى عن عائشة ومجاهد
وعطاء والحسن وابن سيرين مثله. لما دعا الرسول - ﷺ - قومه إلى الإيمان،
قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإنني أفتدى نفسي يوم القيامة
من العذاب بمالي وولدي. قال الله - عز وجل - لنبيه محمد - ﷺ -: ﴿إِنَّ
شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (١).

عن عطاء: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن الرسول - ﷺ -،
فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بتر محمد الليلة. فأنزل الله في ذلك
﴿إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

(١) سورة الكوثر: ٣.

والجزاء من جنس العمل .

قال القاسمي :

قال الشهاب : والذي صححه أهل الأثر أن أولاده -لعنه الله- ثلاثة :
معتب ، وعتبة ، وهما أسلما ، وعتيبة -مصغراً- وهذا هو الذي دعا عليه النبي
-ﷺ- لما جاهر بإيذائه وعداوته ، وردّ ابنته وطلقها . وقال صلوات الله عليه
وسلامه : «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» . وفيه يقول حسان -رضي الله عنه- :

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع

قال ابن كثير :

روى ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب من طريق محمد بن
إسحاق عن هبار بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى
الشام ، فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلق إلى محمد ولأؤذينه في
ربه -سبحانه- فانطلق حتى أتى النبي -ﷺ- فقال : يا محمد ، هو يكفر
بالذي دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى . فقال النبي -ﷺ- : «اللهم ،
ابعث إليه كلباً من كلابك» . ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه ، فقال : يا بني ما
قلت له ؟ . فذكر ما قال له ، قال : فما قال لك ؟ . قال : اللهم ، سلط عليه
كلباً من كلابك . قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاءه .

وفي رواية عروة بن الزبير : أن عتبة بن أبي لهب وكان تحتة بنت رسول
الله -ﷺ- أراد الخروج إلى الشام ، فقال : لآتين محمداً فلاؤذينه . فأتاه
فقال : يا محمد ، هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في
وجه رسول الله -ﷺ- وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول الله -ﷺ- :
«اللهم ، سلط عليه كلباً من كلابك» وكان أبو طالب حاضراً ، فوجم لها
وقال : ما كان أغناك يا بن أخى عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه
فأخبره .

فسرنا حتى نزلنا الشراة^(١)، وهى مأسدة^(٢)، فنزلنا إلى صومعة راهب، فقال: يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد، فإنها تسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم، فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كبر سنى وحقى وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة، والله ما آمنها عليه، فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها، ففعلنا فجاء الأسد فشمّ وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد؛ تقبض، فوثب فإذا هو فوق المتاع فشم وجهه ثم هزمه هزيمة^(٣) ففضح^(٤) رأسه، فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد.

فانظر أخى يرحمك الله.. لما تفل فى وجه رسول الله - ﷺ - أتى الأسد، فشم وجهه، وفضح رأسه، لم يأكله من يديه أو رجله، وإنما وجه بوجه..

بصق فى وجه نبي... وفضح فى رأس شقى، ومعدرة لرسول الله - ﷺ -.

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل السيف أمضى من العصا

فابن أبى لهب لا يناسبه إلا كلب.

وهل أغنى عنه ولده يوم موته...؟!؟

فهل الجزاء إلا من جنس العمل!؟

قال أبو رافع مولى رسول الله - ﷺ -: رماه الله بالعدسة فقتلته، فلقد تركه ابنه بعد موته ثلاثاً، ما دفناه حتى أنتن، وكانت قريش تتقى هذه العدسة، كما تتقى الطاعون، حتى قال لهم رجل من قريش: ويحكما، ألا

(١) الشراة: صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول - ﷺ -. وفى اللسان: موضع تنسب إليه الأسد. يقال للشجعان: ما هم إلا أسود الشرى، والشرى طريق فى سلمى كثير الأسد.

(٢) الأرض كثيرة الأسود.

(٣) أى ضربه ضربة.

(٤) أى شدخه.

تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفناه؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدار، ثم رخموا عليه بالحجارة.

عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت لا تمر على مكان أبي لهب هذا، إلا تسترت بثوبها حتى تجوز.

﴿ سَيِّئَلِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ .

من للأحول غير أم قبيح، أم جميل العوراء.

قال ابن العربي: العوراء أم قبيح وكانت عوراء، من لها غير أبي النار، أبي لهب؟! حقق الله نسبه، لقد صرفهم الله على أن يقولوا: أبو النور. وأبو الضياء، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب، الذي هو مخصوص بالمكروه والمذموم وهو النار، ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقررًا.

قال ابن كثير عن أم جميل:

كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال: ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ في جيدها حبلٌ من مسدٍ يعني: تحمل الحطب فتلقى على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهي مهياة لذلك، مستعدة له.

والجزاء من جنس العمل.

﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ عن مجاهد وعكرمة، والحسن، وقتادة، والثوري، والسدي: كانت تمشي بالنميمة.

وعن عباس، وعطية الجدلي، والضحاك، وابن زيد، كانت تضع الشوك في طريق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، واختاره ابن جرير.

قال الإمام ابن جرير:

وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي هو قول من قال: كانت تحمل الشوك، فتطرحه في طريق رسول الله - ﷺ -؛ لأن ذلك أظهر.

قال الربيع: فكان النبي - ﷺ - يطؤه كما يطأ الحرير.

ومثلما حملت الشوك والعضة تطرحه في طريق رسول الله - ﷺ -، فكذا تحمل الحطب تطرحه على زوجها في النار جزاءً وفاقاً، قال قتادة وغيره: كانت تُعير رسول الله - ﷺ - بالفقر، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب لشدة بخلها، فعيرت بالبخل.

بل كان موتها بجنس عملها.

قال مرة الهمداني: كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة^(١) من الحسك^(٢) فتطرحها في طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذات يوم حزمة أعيت، فقعدت على حجر لتستريح، ف جذبها الملك من خلفها فأهلكها خنقها الله بحبلها.

قال سعيد بن جبير: حمالة الخطايا والذنوب، من قولهم: فلان يحتطب على ظهره، دليله قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾^(٣). ولا يظلم ربك أحداً. والجزاء من جنس العمل.

﴿فِي جِيدِهَا﴾^(٤) حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴿.

قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقباها الله بها حبلاً في جيدها من مسد النار.

وعن الثوري: هي قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً. والجزاء من جنس العمل.

يقول سيد قطب في الضلال:

(١) الإبالة: الحزمة الكبيرة.

(٢) الحسك: نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم، وهو السعدان.

(٣) سورة الأنعام: ٣١. (٤) الجيد: العنق.

أبو لهب ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴿سَتَصْلَاهَا﴾ وفي عنقها جبل من مسد، تناسق في اللفظ، وتناسق في الصورة، فجهنم هي نار ذات لهب، يصلها أبو لهب، وامراته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه، والحطب مما يوقد به اللهب، وهي تحزم الحطب بحبل، فعذابها في النار ذات اللهب، أن تُغل بحبل من مسد؛ ليتم الجزء من جنس العمل.

وانظر يا أخي، مثلما أراد أن ينغصا عيش رسول الله - ﷺ - بتطبيق ابنتيه وتتبعه في المجالس بتكذيبه، مثلما أثارا حرباً شعواء على النبي - ﷺ -، وعلى الدعوة لا هواده فيها ولا هدنة، انظر إلى وقع السورة في نفس أم جميل، التي ذعرت لها وجن جنونها، وحسبت أن الرسول - ﷺ - قد هجاها بشعر، وبخاصة حين انتشرت هذه السورة، وما تحمله من تهديد ومذمة، وتصوير رزى لأم جميل خاصة، تصوير يثير السخرية، من امرأة معجبة بنفسها، مدلة بحسبها ونسبها، ثم ترسم لها هذه الصورة ﴿حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾ (٣) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٤﴾ في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عند العرب.

عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ ﴿٤﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة وفي يدها فهر^(١)، وهي تقول:

مذمماً أيينا

ودينه قلينا

وأمره عصينا

ورسول الله - ﷺ - جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك. فقال رسول الله - ﷺ - : «إنها لن تراني» وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ

(١) أي: حجر أملس.

الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿١﴾ فَأَقْبَلْتُ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ تَرِ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -، فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أَخْبَرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي؟ قَالَ: لَا، وَرَبُّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكَ. فَوَلْتُ، وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمْتَ قَرِيشَ إِنِّي ابْنَةُ سَيِّدِهَا. قَالَ: وَقَالَ الْوَلِيدُ فِي حَدِيثِهِ، أَوْ غَيْرِهِ: فَعَثَرَتْ أُمُّ جَمِيلٍ مَرِطَهَا وَهِيَ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقَالَتْ: تَعَسَ مَذْمُومٌ. فَقَالَتْ أُمُّ حَكِيمِ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ: إِنِّي لِحِصَانٍ فَمَا أُكَلِّمُ، وَثِقَافٍ (٢) فَمَا أَعْلَمُ، وَكَلْنَا مِنْ بَنِي الْعَمِّ، وَقَرِيشٍ بَعْدَ أَعْلَمُ.

وروى الحافظ عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وجاءت امرأة أبي لهب ورسول الله - ﷺ - جالس ومعه أبو بكر، فقال له أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيك بشيء. فقال رسول الله - ﷺ -: «إنه سيحال بيني وبينها»، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، فقالت: يا أبا بكر هجانا صاحبك. فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما نطق بالشعر ولا يتفوه به. فقالت: إنك لمصدق. فلما ولت قال أبو بكر - ﷺ -: ما رأيتك؟. قال: «لا ما زال ملك يسترني حتى ولت».

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعراً، وكان الهجاء لا يكون إلا شعراً مما نفاه أبو بكر، وهو صادق، ولكن الصورة المزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها قد سجلت في الكتاب الخالد، وسجلتها صفحات الوجود أيضاً، تنطق بغضب الله وحره أبي لهب وامرأته.

[٢٨] نهاية الوليد بن المغيرة قبضه الله (٣)

شيخ أهل الكفر وأشد الناس عداوة لرسول - ﷺ -

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ

(١) سورة الإسراء: ٤٥.

(٢) جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله، والثبات والسخرية.

(٣) «الجزء» (١/ ٢٦٥ : ٢٧٤).

لَلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَتَيْمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتِنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١﴾ .

قال سيد قطب:

وقد قيل: إنه الوليد بن المغيرة، وإنه هو الذى نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...﴾ (٢) الآيات.

ورويت عنه مواقف كثيرة فى الكيد لرسول الله - ﷺ -، وإنذار أصحابه، والوقوف فى وجه الدعوة، والصدّ عن سبيل الله.

وهذه الحملة القرآنية العنيفة فى هذه السورة، والتهديدات القاصمة فى السورة الأخرى وفى سواها، شاهدٌ على شدة دوره - سواء كان هو الوليد أو الأحنس، والأول أرجح - فى حرب الرسول والدعوة، كما هى شاهد على سوء طويته وفساد نفسه، وخلوها من الخير.

فهو ﴿زَنِيمٌ﴾، وهذه خاتمة الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة فى عدو من أعداء الإسلام، وما يعادى الإسلام ويصر على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميم.

والزنييم من معانيه: اللصيق فى القوم، لا نسب له فيهم، أو أن نسبه فيهم ظنين. ومن معانيه الذى اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره، والمعنى الثانى هو الأقرب فى حالة الوليد بن المغيرة، وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهيناً فى القوم، وهو المختال الفخور.

ومن ثم يجىء التهديد من الجبار القهار، يلمس فى نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين، كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه، ويسمع وعد الله القاطع: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾...

والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوى نوعين من الإذلال والتحقير.

(١) سورة القلم: ١٠-١٦ .

(٢) سورة المدثر: ١١ .

الأول: الوسم كما يوسم العبد..

والثاني: جعل أنفه خرطومًا كخرطوم الخنزير...

إنها القاصمة التي يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم.

قال الفخر الرازي:

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ إن في الآية احتمالاً آخر عندي، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول، وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية.

فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية، كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية، فعبر عن هذا الاختصاص بقوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.

قال ابن عباس: سنحطمه بالسيف، فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش.

قال ابن كثير:

قال ابن جرير: سنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه، ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم، وهكذا قال قتادة: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه، وفي رواية عنه: سنسمه سيمًا على أنفه، وكذا قال السدي، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال، وقال آخرون سنسمه سمة أهل النار، يعنى: نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم، وحكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة.

من مات همازًا لمآزًا ملقبًا للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين.

قال العوفى عن ابن عباس: يقال: هو الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة، وزعم أناس من بنى زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهرى، وليس به.

وقال الرازى: فى مفاتيح الغيب:

وهذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان له عشرة من البنين، وكان يقول لهم وما قاربهم: لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبداً، فمنعهم الإسلام.

وعن ابن عباس: أبو جهل، وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث، وعن السدى: الأخنس بن شريق.

قال البقاعى:

لما كان هذا المذكور قد أغرق فى الشر، فتوقع السامع جزاءه، قال معلماً أنه يجعل له من الخزى والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق فى الدنيا والآخرة ﴿سَنَسِمُهُ﴾ أى: نجعل ما يلحق به من العار فى الدارين كالوسم الذى لا ينمحي أثره، تقول العرب: وسمه ميسم سوء، ولما كان الوسم منكئاً، وكان جعله فى موجه لا يُستر أنكأ، وكان الوجه أشرف ما فى الإنسان، وكان أظهر ما فيه وأكرمه الأنف، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة.

﴿عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ أى: الأنف الطويل جميعه وما قاربه من الحنكين، وسمماً مستعلياً عليه بوضوح جداً؛ ليكون هتكه بين الناس وفضيحة لقومه، وذلاً وعاراً، وكذا كان لعمري له بهذا الذكر الشنيع، والذنب القبيح من الكفر وما معه، وسيكون له يوم الجمع الأعظم ما هو أشنع من هذا، على أنه حقق فى الدنيا هذا الخطم حساً بأنه ضرب يوم بدر ضربة خطمت أنفه.

قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا

عَيْدًا ﴿١٦﴾ سَأْرَهُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَفَقُلَّ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ
كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأْصَلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا
سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿١﴾ .

يقول الشيخ سيد قطب: ﴿سَأْرَهُهُ صَعُودًا﴾ . التصعيد في الطريق هو أشق السير وأشدّه إرهاقًا، فإذا كان دفعًا من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة، وأعظم إرهاقًا، وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة، فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الورود، يندب في طريق وعر شاقّ مبتوت؛ ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق، كأنما يصعد في السماء، أو يصعد في وعر صلد، لا يرى فيه ولا زاد، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق! .

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية، والرجل يكد ذهنه! ويعصر أعصابه! ويقبض جبينه! وتكلح ملامحه وقسماته، كل ذلك ليجد عيبًا يعيب به هذا القرآن، وليجد قولاً يقوله فيه؛ جدّ مصطنع، متكلف يوحى بالسخرية منه والاستهزاء، وبعد هذا المخاض كله؛ وهذا الحزق كله، لا يفتح عليه بشيء، إنما يدبر عن النور، ويستكبر عن الحق .

إنها لمحات تدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر، وتثبت صورته الرزية في صلب الوجود، تتملأها الأجيال بعد الأجيال .

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات، عقب عليها بالوعيد المفزع: ﴿سَأْصَلِيهِ سَقَرٌ﴾ . . . وزاد هذا الوعيد تهويلًا بتجهيل سقر، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك، ثم عقب على التجهيل بشيء من صفاتها أشد هولاً: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ فهي تكس كسًا، وتبلع بلعًا، وتمحو محوًا، فلا يقف لها شيء، ولا يقف وراءها شيء ولا يبقى وراءها شيء، ولا يفضل منها شيء!

هذا دين رفيع، لا يُعرض عنه إلا مطموس، ولا يعيبه إلا منكوس .

قال القاسمي:

اتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش -لعنه الله- وكان من خبره ما رواه ابن إسحاق، أن الوليد بن المغيرة، اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت، يا أبا عبد شمس، فقل، وأقم لنا رأياً نقل به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن. لا. والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفنا، فما هو بختقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر - قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله؛ إن لقوله حللوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: هو ساحر، جاء بقول هو ساحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فنفروا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه: وذكروا لهم أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...﴾ الآيات.

وعن قتادة: قال الوليد: لقد نظرت فيما قال هذا الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له حللوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى، وما أشك أنه ساحر، فأنزل الله الآيات. رواه ابن جرير.

قال محمد الطاهر بن عاشور:

كان الوليد بن المغيرة، يلقب فى قريش بالوحيد، لتوحده وتفرده
باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته، وهى كثرة الولد، وسعة المال،
ومجده ومجد أبيه من قبله، وكان مرجع قريش فى أمورهم؛ لأنه كان أسن
من أبى جهل وأبى سفيان، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى
الوليد بن المغيرة المشتهر به. وجاء هذا الوصف بعد فعل: خلقت. ليُصرف
هذا الوصف عما كان مراداً به؛ أى أوجدته وحيداً عن المال والبنين والبسطة،
فيغير عن غرض المدح والثناء الذى كانوا يخصونه به إلى غرض الافتقار إلى
الله الذى هو حال كل مخلوق.

عن ابن عباس: كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل، والغنم،
والعبيد، والجوارى، والجنان، وكانت غلة ماله ألف دينار فى السنة.

﴿وَمَهَّدَتْ لَهُ تَمَهِيدًا﴾ تيسير أموره، ونفاذ كلمته فى قومه، بحيث لا
يعسر عليه مطلب. ولا يستعصى عليه أمر.

وأكد ﴿مَهَّدَتْ﴾ بمصدره على المفعولية المطلقة؛ ليتوسل بتكبيره لإفادة
تعظيم ذلك التمهيد.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ثم للتراخى الرتبى، أى وأعظم من ذلك أنه يطمع
فى الزيادة من تلك النعم.

﴿كَلَّا﴾ ردع وإبطال لطمعه فى الزيادة من النعم، وقطع لرجائه.

والمقصود إبلاغ هذا إليه، مع تطمين النبى - ﷺ - بأن الوليد سيقطع
عنه مدد الرزق.

من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها
بعقالها. عوقب بنقيض قصده.

ثم قال الشيخ الطاهر بن عاشور:

الصَّعُودُ: العقبة الشديدة التصعد الشاقة على الماشى، وهى فعول مبالغة

من صعدا، فإن العقبة صعدة، فإذا كانت عقبة أشد تصعداً من العقبات المعتادة قيل لها: صعود.

وقوله: ﴿سَأْرَهْقُهُ صَعُودًا﴾ تمثيل لضعف الحالة المحملة في قوله: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أى سينقلب حاله من حال راحة وتنعم إلى سوأى فى الدنيا، ثم إلى العذاب الأليم فى الآخرة، وكل ذلك إرهاب له.

قيل: إن طال به النزح فكانت تتصاعد نفسه ثم لا يموت، وقد جعل له من عذاب النار ما أسفر عنه عذاب الدنيا.

قال ابن كثير:

﴿سَأْرَهْقُهُ صَعُودًا﴾ قال قتادة عن ابن عباس: صعوداً صخرة فى جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه. وقال السدى: صعوداً صخرة ملساء فى جهنم يكلف أن يصعداها.

وقال مجاهد: ﴿سَأْرَهْقُهُ صَعُودًا﴾ أى مشقة من العذاب، وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه، واختاره ابن جرير.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾: أى إنما أرهقناه صعوداً لبعده عن الإيمان؛ لأنه فكر وقدر أى وتروى ماذا يقول فى القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال.

وقال ابن كثير أيضاً:

خرج على قريش، فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة، فوالله ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بهذى من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا، وقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام. قال: أنا والله أكفيكم شأنه فانطلق حتى دخل بيته فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟. فقال: أأست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه فقال الوليد: أفقد تحدث به عشيرتى؟ فلا

والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا بسحر يؤثر، فأنزل الله على رسوله - ﷺ - : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إلى قوله: ﴿ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴾ (٢٨) لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿ قال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل. وقال قتادة: أى حراقة للجلد. وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان. وقال قتادة:

قال البقاعي فى نظم الدرر:

أكملت له من سعادة الدنيا ما أوجب التفرد فى زمانه من أهل بيته وفخذه، بحيث كان يسمى: الوحيد، وريحانة قريش. فلم يرع هذه النعمة العظيمة، ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلًّا ﴾ لم يزد بعد ذلك شيئاً، بل لم يزل فى نقصان حتى هلك، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ (١). ليرتدع عن هذا الطمع، وليزدجر وليرتجع، فإنه حمق محض، وزحرف بحت، وغرور صرف.

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِنَا عَيْدًا ﴾ أى: بالغ العناد، على وجه لا يعد عناده لغيرها، بسبب مزيد قبحه عناداً.

والعناد، كما قال الملوى: من كبر فى النفس، أو يبس فى الطبع، أو شراسة فى الخلق، أو خبل فى العقل، وقد جمع ذلك كله إبليس.

لما كان العناد غلظة فى الطبع، أو شكاسة فى الخلق يوجب النكد والمشقة جعل جزاءه من جنسه، فقال: ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ أى: ألحقه بعنف وغلظة وقهر، إلحاقاً يغشاه ويحيط به وعيداً لا خلف فيه.

﴿ صَعُودًا ﴾ أى: شيئاً من الدواهى والأنكاد. كأنه عقبة.

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ (١٨) فَفَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ حاد عن وجوه الأفكار إلى أفتائها، سكت ألفاً ونطق خلقاً، فكان شبيهاً من بعض الوجوه بما قاله بعضهم:

(١) سورة الأنعام: ١١٥ .

لو قيل خمس وخمس لاغتدى
ويقول معضلة عجب أمرها
حتى إذا خدرت يدها وغورت
أوفى علي شرف وقال ألا انظروا
خمس وخمس ستة أو سبعة
يومًا وليلتنه بعدٌ وبحسب
ولئن عجبت لها لأمرى أعجب
عيناها مما قد يخط ويكتب
ويكاد من فرح يجن ويسلب
قولان قالهما الخليل وثعلب

قال تعالى: ﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ﴾ أى: الدركة النارية، التى تفعل فى الأدمغة من شدة حموها ما يجعل عن الوصف، فأدخله إياها، وألوحه فى الشدائد حرها، وأذيب دماغه بها، وأسيل ذهنه وكل عصارته بشديد حرها، جزاءً على تفكيره هذا. الذى قدره، وتخيله وصوره بإرادته فى طبقات دماغه؛ ليحرق أكباد أولياء الله وأصفيائه.

[٢٩] نهاية أبى جهل « فرعون هذه الأمة » (١)

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٢).

قبل بدر لما نجا أبو سفيان بغير قريش، ولما ترك بدرًا بيسار، نزلت قريش بالجحفة.

يقول ابن إسحاق:

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز غيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم تمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام، والله لا نرجع حتى نرد بدرًا - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا.

(١) انظر «الجزء من جنس العمل» (١/٢٤٨ : ٢٥٠).

(٢) سورة الأنفال: ٤٧.

فكان جزاؤهم من جنس عملهم، وصاروا حديث الناس في الذل والهوان.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرف، فأحنه^(١) الغداة، فكان هو المستفتح.

قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وقال الأمدى عن مطرف في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾. قال: قال أبو جهل: اللهم أعز الفئتين، وأكرم القبيلتين، وأكثر الفريقين، فنزلت: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا...﴾ الآية.

وقال الطبراني عن رفاعة بن رافع قال: لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر، أشفق أن يخلص إليه، فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقه بن مالك، فوكز في صدر الحارث، ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه فقال: اللهم إنى أسألك نظرتك إياى. وخاف أن يخلص القتل إليه، وأقبل أبو جهل فقال: يا معشر الناس، لا يهولنكم خذلان سراقه بن مالك، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهولنكم قتل شيبه وعتبة والوليد، فإن عجلوا فواللات والعزى، لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال، فلا ألفين رجلاً منكم قتل رجلاً، ولكن خذوهم أخذاً، حتى تُعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم، ورغبتهم عن اللات والعزى، ثم قال أبو جهل متمثلاً:

ما تنقم الحرب الشמוש منى

بأذل عامين حديث سن

لمثل هذا ولدتنى أمدى

(١) أى: اجعل حينه غداً.

(٢) سورة الأنفال: ١٩.

فانظر كيف كان جزاء هذا المنتفخ من جنس عمله:

روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال: إني لفي الصف يوم بدر، إذا التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن، فكأنى لم آمن لكانهما، حتى قال لى أحدهما سرّاً من صاحبه: يا عم، أرنى أبا جهل. فقلت: يا ابن أخى، ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيتَه أن أقتله، أو أموت دونه. وقال لى الآخر سرّاً من صاحبه مثله. قال: فما سرنى أننى بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدّا عليه مثل الصقرين، حتى ضرباه وهما ابنا عفراء.

وفى الصحيحين أيضاً: من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ - «من ينظر ماذا صنع أبو جهل؟». قال ابن مسعود: أنا يا رسول الله. فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء، حتى برد. قال: فأخذ بلحيته، قال: فقلت: أنت أبو جهل؟ فقال: وهل فوق رجل قتلتموه، أو قال: قتله قومه.

وعند البخارى: عن ابن مسعود: أنه أتى أبا جهل فقال: هل أخزأك الله؟. فقال هل أعمد^(١) من رجل قتلتموه.

وقال الأعمش عن ابن إسحاق عن أبى عبيدة عن عبد الله قال: انتهيت إلى أبى جهل وهو صريع وعليه بيضة، ومعه سيف جيد، ومعى سيف ردىء فجعلت أنقف^(٢) رأسه بسيفى، وأذكر نقفاً كان ينقف رأسى بمكة، حتى ضعفت يده، فأخذت سيفه، فرفع رأسه فقال: على من كانت الدائرة لنا أو علينا؟ أأست رويبعياً^(٣) بمكة؟. قال: فقتلته ثم أتيت النبى ﷺ - فقلت: قتل أبا جهل. فقال: «والله الذى لا إله إلا هو؟» فاستحلفنى ثلاث مرات، ثم قام معى إليهم فدعا عليهم.

فكان جزاؤه من جنس قوله، بل ومن جنس عمله، فنقف ابن مسعود بالسيف فى رأسه مثلما فعل به فى مكة.

(١) أى: أعجب.

(٢) أى: أضرب.

(٣) تصغير «راعى».

[٣٠] نهاية المالك أبي بن خلف

على يد رسول الله - ﷺ - (١)

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه» - يشير إلى راعيته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله - ﷺ - في سبيل الله (٢).

عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: «اشتد غضب الله على من قتل النبي في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دموا وجه نبي الله - ﷺ -» (٣).

قال ابن إسحاق: كان أبي بن خلف يلقي رسول الله - ﷺ - بمكة، فيقول: يا محمد، إن عندى العوذ، فرساً أعلفه فى كل يوم فرقاً (٤) من ذرة، أقتلك عليه، فيقول رسول الله - ﷺ - : «بل أنا أقتلك إن شاء الله».

قال ابن كثير:

عن عروة بن الزبير قال: كان أبي بن خلف أخو بنى جمع، قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله - ﷺ -، فلما بلغت رسول الله - ﷺ - حلفته قال: «بل أنا أقتله إن شاء الله». فلما كان يوم أحد أقبل أبي فى الحديد مقتنعاً، وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله - ﷺ - يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار يقى رسول الله - ﷺ - بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله - ﷺ - ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة، فطعنه فيها بالحربة، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه، وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك، إنما هو خدش؟. فذكر لهم قول رسول الله - ﷺ - : «أنا أقتل أبياً». ثم قال: والذى نفسى بيده. لو كان هذا

(١) «الجزاء» (١/ ٢٦١ : ٢٦٣).

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه البخارى.

(٤) بفتح الراء وإسكانها: مكيال يسع تسعة عشر منا، وقيل: اثنا عشر منا.

الذى بى بأهل ذى المجاز لمتوا أجمعون. فمات إلى النار ﴿ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ
السَّعِيرِ ﴾ (١).

وقد رواه موسى بن عقبة فى مغازيه عن الزهري عن سعيد بن المسيب نحوه، وقال ابن إسحاق: لما أسند رسول الله - ﷺ - فى الشعب أدركه أبى ابن خلف، وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوت. فقال القوم: يا رسول الله، يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله - ﷺ -: «دعوه». فلما دنا منه، تناول رسول الله - ﷺ - الحربة من الحارث بن الصمة فقال بعض القوم - كما ذكر لى - فلما أخذها رسول الله - ﷺ - انتفض انتفاضة تطايرنا عنه، تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفضه، ثم استقبله رسول الله - ﷺ -، فطعنه فى عنقه تدأداً منها مراراً.

لما رجع إلى قومه، وقد خدشه الرسول - ﷺ - بالحربة خدشاً غير كبير، قال: قتلنى والله محمد. قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله ما بك من بأس. قال: إنه قد كان قال بمكة: أنا أقتلك فوالله، لو بصق علىّ لقتلنى، فكان هذا الشقى هو الوحيد الذى قتله رسوله الله - ﷺ - بيده الكريمة.
فكان جزاؤه من جنس قوله للرسول - ﷺ - بمكة.

قال حسان:

أبى يوم بارزه الرسولُ
وتوعده وأنت به جهولُ

لقد ورث الضلالة عن أبيه
أتيت إليه تحمل رمَّ عظمٍ

وقال أيضاً:

فقد ألقيت فى سحق السعير
وتقسم إن قدرت مع النذور
وقول الكفر يرجع فى غرور
كريم البيت ليس بذى فجور
إذا نابت ملِّمات الأمور

ألا من مُبلِّغ عنى أبياً
تمنى بالضلالة من بعيد
تمنيك الأمانى من بعيد
فقد لاقتك طعنة ذى حفاظ
له فضل على الأحياء طراً

(١) سورة الملك: ١١ .

[٣١] نهاية عقبة بن أبي معيط

وضع رجله على عنق النبي - ﷺ - فقطعت عنقه (١)

هذا الشقى الذى آذى رسول الله - ﷺ - ، وانفرد بما لم يفعله أحد، ووضع رجله على عنق أطهر الخلق رسول الله - ﷺ - ، فقطعت عنقه جزاء وفاقاً .

قال ابن إسحاق فى أسرى بدر، وعن عقبة بن أبى معيط وكيف قتل صبراً .

قال عقبة، حين أمر رسول الله - ﷺ - بقتله: فمن للصيبة يا محمد؟ . قال: «النار». وكان الذى قتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، وكذا قال موسى بن عقبة فى مغازيه .

ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت، قال: يا معشر قريش علام أقتل من بين من هنا؟ قال على عداوتك لله ورسوله .

وقال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال: لما أمر النبي - ﷺ - بقتل عقبة قال: أتقتلنى يا محمد، من بين قريش؟ قال: «نعم، أتدرون ما صنع هذا بى، جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة، فألقاه على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى» .

قال ابن هشام: بل قتل عقبة على بن أبى طالب، فيما ذكره الزهري وغيره من أهل العلم .

وذهب عقبة إلى مزبلة التاريخ، وأطيح بعنقه جزاء كفره وعناده وحسده للإسلام ورسوله - ﷺ - .

(١) «الجزء من جنس العمل» (١/ ٢٦٠) .

[٣٢] نهاية عبد الله بن قمئة أقمأه الله (١)

عن ابن عباس قال: اشتد غضب الله على من رمى وجه رسول الله ﷺ .

قال ابن حجر:

ومجموع ما ذكر في الأخبار أنه شُجَّ وجهه، وكسرت رباعيته، وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها، ووهى منكبه من ضربة ابن قمئة وجحشت ركبته.

وعند ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري: أن عبد الله بن قمئة جرحه - أي الرسول - ﷺ - في وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته - ﷺ - .

فماذا كان جزاء هذا الشقي؟!

قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر: إن الذي رمى رسول الله ﷺ - بأحد، فجرحه في وجهه، قال: خذها مني وأنا ابن قمئة، فقال: «أقمأك الله».. قال فانصرف إلى أهله، فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها فشد عليه تيسها فنطحه نطحه أرداه من شاهق الجبل فتقطع.

وفي الطبراني، من حديث أبي أمامة قال: رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ - يوم أحد، فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ -، وهو يمسخ الدم عن وجهه: «ما لك، أقمأك الله».

فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعةً قطعةً.

وكان جزاؤه من جنس عمله.

فانظر رحمك الله.. لم يرسل الله عز وجل إلى ابن قمئة ملكاً؛ لينتقم

(١) «الجزاء» (١/٢٦٣ : ٢٦٤).

لنبيه - ﷺ -، وإنما سلط عليه تيساً قطعه، وألقاه من فوق الجبل، لهوانه على الله .

يا لذل قزم تطاول على النبي - ﷺ -، وشج وجهه، فأخزاه الله، وقطعه تيس . . وتردى من فوق الجبل إلى الهاوية، ليخزي في الدنيا والآخرة .

[٣٣] نهاية بنى النضير - عليهم لعنة الله - (١)

قال ابن إسحاق: خرج رسول الله - ﷺ - إلى بنى النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتلها عمرو بن أمية للعهد الذي كان رسول الله - ﷺ - أعطاهما، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عهد وحلف، فلما أتاهم - ﷺ - قالوا: نعم، نعينك يا أبا القاسم على ما أحببت، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله - ﷺ - إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت؛ فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقى عليه صخرة، كما قال، ورسول الله - ﷺ - في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فأتى رسول الله الخبير من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبي - ﷺ - أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلًا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله - ﷺ - حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به. قال الواقدي: فبعث رسول الله - ﷺ - محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده، فبعث إليهم أهل النفاق، يثبتونهم، ويحرضونهم على المقام، ويعدونهم النصر؛ فقويت عند ذلك نفوسهم وحمى حبي بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله أنهم لا يخرجون، ونابدوه بنقض العهد فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم .

(١) «الجزاء» (١/٣٤١ : ٣٤٣).

قال ابن إسحاق: فسار حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال. وتحصنوا في الحصون. فأمر رسول الله - ﷺ - بالشروع في إتلاف وإحراق اللينة، أردأ أنواع نخيل اليهود الذى لا يقتاتون منه، وهو نوع يخالف العجوة والبرنى الذى كان الغذاء الرئيسى لأهل المدينة، ولم يكد اليهود الدخان يتصاعد وفروع هذه النخيل تتساقط حتى دخلهم الذعر فنادوا أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه، فما بال النخيل وتحريقها؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١).

ولم يستمر اليهود في المقاومة طويلاً، فقد خارت قواهم؛ إذ لم يمض على ضرب الحصار أكثر من عشرين يوماً حتى بعثوا بمندوبهم إلى النبي - ﷺ - للتفاوض.

وكانت نهاية التفاوض اتفاقية الجلاء. أن يجلو يهود بنى النضير عن منطقة يثرب جلاءً تاماً إلى أى مكان يشاءون.

أن يسلم اليهود للمسلمين كل ما يمتلكون من سلاح بكافة أنواعه، ويكونوا ساعة جلائهم من يثرب مجردين من السلاح تماماً.

لليهود أن يحملوا من أموالهم ما يقدرون على حمله ما عدا السلاح، مهما كانت قيمة أو نوع هذا المال.

بعد الذى يقدر اليهود على حمله من المال، يكون كل ما تبقى من أموالهم المنقولة وغير المنقولة فيئاً للمسلمين، وملكاً من أملاكهم.

على القيادة الإسلامية فى اليهود أن تضمن لليهود بنى النضير سلامة أرواحهم، ما داموا فى داخل المنطقة الخاضعة لسلطان المسلمين.

وحملوا على الإبل ما يقدرون على حمله، حتى أن أحدهم صار يعمد إلى عتبة باب دأوه فيخلعها، ثم يضعها على ظهر البعير فينطلق.

(١) سورة الحشر: ٥

أوقر اليهود ستمائة بعير من الأموال التي قدروا على حملها، خرجوا وكلهم رعب وغيظ يقول سلام بن أبي الحقيق، وقد حمل معه جلد ثور مملوء ذهباً، فكان يضرب بيده على هذا الجلد ويقول: هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنا تركنا نخلاً، ففي خير النخل.

وكان اليهود يعمدون - عند مغادرتهم المدينة - إلى سقْف بيوتهم وعمدها وجدرانها فينقضونها؛ لئلا يستفيد منها المسلمون.

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (١).

هذه سنة الله في إذلال المفسدين وقهرهم. فهؤلاء اليهود الذين غدروا وتحصنوا بحصونهم، ولشدة بأسهم ومنعتهم وشدة حصونهم وفرط وثوقهم بها اعتقدوا في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة، لا يباليون بأحد يطمع في منازعتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فجعلهم ﴿يُخْرِبُونَ﴾ أو كما قرأ أبو عمرو (يُخْرِبُونَ) بيوتهم، حسدوا المسلمين أن يسكنوا مساكنهم ومنازلهم، فجعلوا يخربونها من داخل والمسلمون من خارج.

نقضوا بيوتهم كالحصون على أبواب الأزقة.

بداية غرتهم منعة الحصون حتى نسوا قوة الله التي لا تردّها الحصون! فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، أتاهم من داخل أنفسهم، لا من داخل حصونهم. أتاهم من قلوبهم؛ فقذف فيها الرعب، ففتحو حصونهم بأيديهم وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم، ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم، فضلاً على أن يمتنعوا عليه ببنائه وحصونه.

لقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم، فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت؛ يخربونها بأيديهم، ويمكنون المؤمنين من خرابها، وأجزاء من جنس العمل.

(١) سورة الحشر: ٢ .

ليقف المشاقون لله ولرسوله، المخاليق الضئيلة الهزيلة تقف في وجه الخالق يشاقونه. هل بعد هذا تبجح قبيح والله شديد العقاب؟!

أما الذى أراد رمى الحجر:

فقد ذكر ابن إسحاق: أن رسول الله - ﷺ - قال لليهودى الذى أسلم - يامين: ألم ترى ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني؟! فجعل يامين للرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش، فقتله، لعنه الله. والجزاء من جنس العمل.

لقد خزيت بغدرتها الجبور كذاك الدهر ذو صرف يدور

[٣٤] نهاية كعب بن الأشرف لعنه الله (١)

روى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله - ﷺ -: مَنْ لَكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله، فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم». قال: فأذن لى أن أقول شيئاً، قال: قل، فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عَنَّا، وإنى قد أتيتك أستسلفك. قال: وأيضاً، والله لتملَّته. قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا. قال: نعم، أرهنونى. قلت: أى شىء تريد؟ قال: أرهنونى نساءكم. فقالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب. قال فأرهنونى أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسبُّ أحدهم فيقال: رهن بوسق (٢) أو وسقين، هذا عار علينا، ولكن نرهنك اللأمة، قال سفيان: يعنى السلاح. فواعده أن يأتيه ليلاً فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة - وهو أخو كعب من الرضاعة - فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ وقال غير عمرو قالت: أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخى محمد بن مسلمة

(١) «الجزاء» (١/ ٣٣٧ : ٣٤١).

(٢) أى: حمل بغير.

ورضيعى أبو نائلة. إن الكريم لو دُعِيَ إلى طعنة لبلى لأجاب. قال: ويدخل محمد بن مسلمة ومعه رجلان فقال: إذا ما جاء فإنى مائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتمنى استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه. وقال مرة: ثم أشمكم، فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفخ منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كالיום ريحاً، أى: أطيب. وقال غير عمرو: عندى أعطر نساء العرب وأجمل العرب. قال عمرو: أتأذن لى فى أن أشم رأسك؟ قال: نعم: فشمه، ثم أشم أصحابه، ثم قال: أتأذن لى؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم فقتلوه، ثم أتوا النبى - ﷺ - فأخبروه. قال محمد بن إسحاق: كان من حديث كعب بن الأشرف - وكان رجلاً من طيىء ثم أحد بنى نبهان، وأمه من بنى النضير - أنه لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، قال: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها. فلما تيقن عدو الله الخبر، خرج إلى مكة، فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى، وعنده عاتكة بنت أبى العيص بن أمية بن عبد شمس، فأنزله، وأكرمه، وجعل يحرض على قتال رسول الله - ﷺ - وينشد الأشعار، ويندب من قتل من المشركين يوم بدر، فذكر ابن إسحاق قصيدته التى أولها:

طحنت رحي بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع

ثم عاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين، ويهجو النبى - ﷺ - وأصحابه.

وقال موسى بن عقبة: وكان كعب بن الأشرف أحد بنى النضير أو فيهم قد آذى رسول الله - ﷺ - بالهجاء، وركب إلى قريش فاستغواهم، وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أناشدك، أديتنا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق: إنا نطعم الجزور الكوماء ونسقى اللبن على الماء ونطعم ما هبت الشمال؟ فقال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلاً. قال: فأنزل الله على رسوله - ﷺ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا

مَنْ الْكُتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ
آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ (١).

قال موسى ومحمد بن إسحاق: وقدم للمدينة يعلن بالعداوة ويحرض
الناس على الحرب ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول
الله - ﷺ -، وجعل يشيب بأمر الفضل بن الحارث وبغيرها من نساء
المسلمين.

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله - ﷺ - كما حدثني عبد الله بن
المغيث ابن أبي بردة: من لابن الأشرف؟ فقال له محمد بن مسلمة أخو بني
عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «فافعل إن قدرت على
ذلك»، قال: فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما
يعلق نفسه، فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فدعاه، فقال له: «لم تركت
الطعام والشراب؟» فقال: يا رسول الله، قلت لك قولاً لا أدري هل أفي لك
به أم لا. قال: إنما عليك الجهد. قال: يا رسول الله، إنه لا بد لنا أن نقول،
قال: «فقولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك». قال: فاجتمع في قتله
محمد بن مسلمة، وسلطان بن سلامة بن وقش، وهو أبو نائلة أحد بني عبد
الأشهل. وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وقش
أحد بني عبد الأشهل، والحارث بن أوس بن معاذ أحد بني عبد الأشهل،
وأبو عيس ابن جبر أخو بني حارثة، قال: فقدموا بين أيديهم إلى عدو الله
كعب، سلطان بن سلامة أبا نائلة، فجاءه فتحدث معه ساعة فتناشدا شعراً -
وكان أبو نائلة يقول الشعر- ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إنى قد جئتكَ
لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني، قال: افعل.

قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس
واحدة، وقطعت عنا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد
جهدنا وجهد عيالنا. فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرك

(١) سورة النساء: ٥١، ٥٢.

يابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول؛ فقال له سلكان: إنى قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن فى ذلك، قال: ترهنونى أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إن معى أصحاباً لى على مثل رأى، وقد أردت أن آتیک بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء، وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها. فقال: إن فى الحلقة لوفاء. قال: فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله - ﷺ -.

قال ابن إسحاق: فحدثنى ثور بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: مشى معهم رسول الله - ﷺ - إلى بقیع الغرقد، ثم وجههم، وقال: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم»، ثم رجع رسول الله - ﷺ - إلى بيته، وهو فى ليلة مقمرة، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب فى ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: أنت امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة، قال: إنه أبو نائلة، لو وجدنى نائماً ما أيقظنى. فقالت: والله إنى لأعرف فى صوته الشر. قال: يقول لها كعب: لو دُعى الفتى لطعنة أجاب، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا: هل لك يابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم، فخرجوا فمشوا ساعة. ثم إن أبا نائلة شام يده فى فود رأسه، ثم شم يده، فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها فأخذ بفودى رأسه، ثم قال: اضربوا عدو الله!

فاختلفت عليه أسياهم فلم تغن شيئاً. قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغولاً فى سيفى فأخذته، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، قال فوضعتة فى ثنية، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عاتته، فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح فى رجله أو فى رأسه أصابه بعض سيوفنا، قال: فخرجنا حتى سلكننا على بنى أمية بن زيد، ثم على بنى قريظة، ثم على بعات، حتى أسدنا فى حرة العريض وقد أبطأ

علينا الحارث بن أوس ونزف الدم، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا. فاحتملناه، فجبنا به رسول الله - ﷺ - آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه، فخرج إلينا، فأخبرنا بقتل عدو الله وتفل رسول الله - ﷺ - على جرح صاحبنا ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله؛ فليس بها يهودى إلا وهو خائف على نفسه.

وفى ذلك يقول كعب بن مالك:

فعودر منهم كعب صريعاً	فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد	علته بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دس ليلاً	إلى كعب أخا كعب يسير
فما كره فأنزله بمكر	ومحمود أخو ثقة جسور

أراد جمع الكفار على قتال رسول الله وقتله ونقض العهد؛ فكان جزاؤه من جنس عمله.

[٣٥] نهاية شيطان بنى النضير: حبي بن أخطب (١)

كان حبي بن أخطب عندما نجح في حمل بنى قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين، قد تعهد لسيد بنى قريظة بأن يدخل معه حصنه؛ ليصبيه ما أصاب بنى قريظة إذا ما انسحبت جيوش الأحزاب، دون أن تستأصل شأفة المسلمين، وتقضى عليهم قضاء تاماً، وفعلاً، فقد وفى له حبي بذلك، فقد أتى الله به إلى حصون بنى قريظة ليحجى ثمار أعماله الشريرة، فبقى معهم داخل حصونهم حتى نهاية أمرهم.

قال ابن إسحاق، يصف موقف حبي بن أخطب ساعة إعدامه:

وأتى بحبي بن أخطب -عدو الله- مجموعة يدها إلى عنقه بحبل، فلما

(١) «الجزء» (١/٣٢٨ : ٣٢٩).

نظر إلى رسول الله - ﷺ - قال: أما والله ما لُمتُ نفسي في عداوتك، ولكن من يخذل الله يخذله الله. وزاد السهيلي في الروض الأنف: أن النبي - ﷺ - قال لحبي بن أخطب حين رآه موثقاً: ألم يمكني الله منك؟ فقال: بلى، ولكن من يخذلك يخذل.

وحينما تقدم لضرب عنقه قال: يا أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس، فضربت عنقه. يقول جبي بن جوال الغطفاني، أحد شعراء اليهود:

لعمرك ما لم ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل
والجزء من جنس العمل.

[٣٦] نهاية زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول (١)

قال البخارى فى باب قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: كنا فى غزاة فكسع (٣) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصارى: يالأنصار. وقال المهاجرين: يا للمهاجرين. فسمعه الله رسوله - ﷺ - قال: «ما هذا» فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصارى: يالأنصار، وقال المهاجرى: يا للمهاجرين. فقال - ﷺ - : «دعوها فإنها مُتَنَتَةٌ».

قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي - ﷺ - أكثر ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبد الله بن أبي: أو قد فعلوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

(١) «الجزء» (٢٧٧ : ٢٨٢).

(٢) سورة المنافقون: ٨ .

(٣) المشهور فيه ضرب الدبر باليد أو بالرجل. وذلك عند أهل اليمن شديد.

وفى البخارى من حديث زيد بن أرقم قال: كنت فى غزاة فسمعت عبد الله بن أبى يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا ليخرجن الأعز منها الأذل... الحديث.

كان ذلك فى غزوة بنى المصطلق من خزاعة، وهى غزوة المريسيع وهو ماء من مياههم.

قال ابن إسحاق:

فبينما الناس على ذلك الماء، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار، يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه، وسان بن دبر الجهنى حليف بنى عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا فصرخ الجهنى، يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أبى بن سلول وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم، غلام حدث. فقال: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدنا وجلايب قريش^(١) هذه إلا كما قال الأول: تُسَمَّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله - ﷺ - فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال عمر: مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله - ﷺ -: «كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذن بالرحيل». وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله - ﷺ - يرتحل فيها، فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبى بن سلول إلى رسول الله - ﷺ -، حيث بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان فى قومه شريفاً عظيماً، فقال من حضر رسول الله - ﷺ - من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن

(١) اسم كان يلقب به المنافقون أصحاب رسول الله - ﷺ - فى المهاجرين.

يكون الغلام أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبا على ابن أبي ودفعاً عنه، فلما استقل رسول الله - ﷺ - وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحيّاه بتحية النبوة، وسلم عليه وقال: يا رسول الله، والله لقد رححت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله - ﷺ -: «أو ما بلغك صاحبك؟» أي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبي». قال: وما قال؟. قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعمز منها الأذل». قال: فأنت والله يا رسول الله، تخرجه إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز. قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لتوجه، فإنه يرى أن قد سلبته ملكاً.

ثم مشى رسول الله - ﷺ - بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي...

فكيف كان جزاؤه من جنس عمله؟

قال ابن إسحاق:

حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول أتى رسول الله - ﷺ -، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله، لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني، وإنى أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله ابن أبي يمشى في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله - ﷺ -: «بل تترفق به، ونحسن صحبته ما بقى معنا». وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعلمونه، ويأخذونه، ويعنفونه، فقال رسول الله - ﷺ - لعمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله، لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنوف، لو أمرتها

اليوم بقتله لقتلته». فقال عمر: قد والله، علمت لأمر رسول الله - ﷺ - أعظم بركة من أمرى.

وقد ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما، أن ابنه عبد الله - ﷺ - وقف لأبيه عبد الله بن أبي بن سلول عند مضيق المدينة، فقال: قف، فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله - ﷺ - في ذلك فلما جاء رسول الله - ﷺ - استأذنه في ذلك، فأذن له، فأرسله حتى دخل المدينة.

وفي التفسير عند ابن كثير:

ذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي، قال له ابنه: وراءك. فقال: مالك ويلك؟ فقال: والله، لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله - ﷺ - فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله - ﷺ -، وكان يسير ساقية^(١) فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله، لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله - ﷺ - فقال: أمّا إذا أذن لك رسول الله - ﷺ - فجز الآن.

وقال أبو بكر بن عبد الله بن الزبير الحميدى فى مسنده:

قال هارون المدنى: قال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول: رسول الله الأعز وأنا الأذل. قال: وجاء النبى - ﷺ -، فقال: يا رسول الله؟ إنه بلغنى أنك تريد أن تقتل أبى: فوالذى بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك، فإنى أكره أن أرى قاتل أبى.

فانظر إلى رأس النفاق.. الذى لم يهد الله قلبه للإيمان، ولم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة، وتقف دون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير إحنة فى صدره؛ أن لم يكن ملكاً على الأوس والخزرج؛ بسبب مقدم رسول

(١) أى: فى مؤخرة الجيش.

الله - ﷺ - إلى المدينة! فتكفه هذه وحدها عن الهدى. . ويقول ما قال، قوله يتجلى فيها خبث الطبع، ولؤم التحيزة، فيكون جزاؤه من جنس عمله وقوله، على يد ابنه؛ ليتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل، فى نفس الواقعة وفى ذات الأوان ولم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز.

ويضم الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جانبه، ويضفى عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله، وأى تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسوله والمؤمنين معه إلى جواره، ويقول: ها نحن أولاء، هذا لواء الأعرءاء، وهذا هو الصف العزيز.

عزة مستمدة من عزته، لا تهون ولا تهن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تزايل القلب المؤمن فى أوج اللحظات، إلا أن يتضعض فيه الإيمان، فإذا استقر الإيمان ورسخ، فالعزة معه مستقرة راسخة.

انظر إلى هذا الرجل الذى كان وجيهاً عند قومه، جاء إليه رسول الله - ﷺ - وهو على حمارة مر بها على طريق سبخة، وجعل يدعو إليه الإيمان، وهو يقول له: ابعدهنى يا محمد، فإن رائحة حمارة تؤذنى، فيقول له ابن عم له، والله لريح حمارة رسول الله أطيب من ريحك.

أى هوان كان هذا، وصدق الله العظيم إذ يقول عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ (١) أشباح وقوالب، ليس وراءهم الباب وحقائق كالجوز الفارغ، مزين ظاهره، ولكنه للعب الصبيان.

هذا الذى تولى كبره، وخاض فى عرض أم المؤمنين عائشة فى قصة الإفك، فقال الله - عز وجل - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴿ (٢) جزاءً وفاقاً كما استطالت.

ثم انظر إلى كرم الرسول - ﷺ - معه؛ ليدل ذلك على أن الجزاء من جنس العمل، ما يرويه ابن كثير فى البداية والنهاية. من أنه لما مات عبد الله

(٢) سورة النور: ٢٣، ٢٤ .

(١) سورة المنافقون: ٤ .

ابن أبي - قبحه الله - ألبسه رسول الله - ﷺ - قميصه. وفي صحيح البخارى: أنه إنما ألبسه قميصه؛ مكافأة له لما كان كسا العباس قميصاً حين قدم المدينة، فلم يجدوا قميصاً يصلح له إلا قميص عبد الله بن أبي.

[٣٧] نهاية ملك خيبر: أسير بن زارم (١)

نصّب اليهود ملكاً على خيبر خلفاً لأبي رافع، وجدّ أسير لشن حملة أحزاب جديدة على المسلمين فى المدينة، وحاول أن يصنع برسول الله - ﷺ - ما لم يصنعه قادة اليهود الذين سبقوه؛ فذهب إلى مناطق القبائل النجدية - غطفان وغيرها - وصار يتنقل بين مضارب البدو ومخيمات العشائر الوثنية؛ يحرضها على حرب رسول الله - ﷺ - ويجمعها لغزو المدينة، وأرسل رسول الله - ﷺ - ثلاثين من أصحابه على رأسهم عبد الله بن رواحة، لأسير بن زارم برسالة شفوية تتضمن دعوة ملك اليهود للذهاب إلى المدينة لمقابلة النبي - ﷺ - بنفسه، لينهوا حالة الحرب القائمة بين الفريقين على أن يبقى النبي - ﷺ - أميراً على خيبر، حيث قال له ابن رواحة: يا أسير، إن رسول الله - ﷺ - بعثنا إليك لتخرج إليه، فيستعملك على خيبر ويحسن إليك.

وخرج أسير بن زارم فى ثلاثين من خالص أصحابه، بصحبة عبد الله ابن رواحة وصحبه، وقد أردف كل رجل من أصحاب عبد الله بن رواحة رجلاً من أصحاب أسير بن زارم، وكان سيد خيبر أسير رديف عبد الله بن أنيس.

وبينما كانوا سائرين فى اتجاه المدينة، حاول اليهود الغدر بالمسلمين، فأهوى أسير بن زارم بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس ليقتله، إلا أن ابن أنيس كان أسرع منه؛ إذ فطن لذلك، فانتزع السيف من يده وقتله، ثم دارت معركة بين بقية الركب، تمكن فيها المسلمون من القضاء على ابن زارم وجماعته، ما عدا رجلاً واحداً تمكن من الفرار.

وكان جزاؤهم من جنس عملهم، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

(١) «الجزء» (١/ ٣٢٨ : ٣٢٩).

[٣٨] نهاية كسرى ملك الفرس (١)

روى محمد بن إسحاق عن أبي سلمة أن رسول الله - ﷺ - بعث عبد الله بن حذافة السهمي بكتابه إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فلما بلغ رسول الله - ﷺ - قال: «مزق ملكه».

وعند ابن جرير: عن أيد بن أبي حبيب قال: وبعث عبد الله بن حذافة ابن قيس إلى كسرى بن هرمز ملك فارس، وكتب معه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس».

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله. وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاء الله، فيأني أنا رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، فإن تسلم تسلم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

قال: فلما قرأه شقه، وقال: يكتب إلى بهذا وهو عبيدي. قال: ثم كتب كسرى إلى باذان - وهو نائبه على اليمن - أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك، جليدين، فليأتياي به. فبعث باذان قهرمانه، وكان كاتباً حاسباً بكتاب فارس، وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له: فرخرة، وكتب معهما إلى رسول الله - ﷺ - يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لباذويه: ائت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره. فخرج حتى قدم الطائف فوجدا رجلاً من قريش، في أرض الطائف، فسألوه عنه، فقال: هو بالمدينة، واستبشر أهل الطائف - يعنى وقريش - بهما وفرحوا، وقال بعضهم لبعض: أبشروا، فقد نصب له كسرى ملك الملوك، وكفيتم الرجل. فخرجا حتى قدما على رسول الله - ﷺ - فكلمه باذويه، فقال: شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتتطلق معي، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك يكفه عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك. ودخلا على

(١) «الجزء» (١/ ٢٧٤ : ٢٧٦).

رسول الله ﷺ - وقد حلقا لهما، وأغنيا شواربهما، فكره النظر إليهما، وقال: «ويلكما، من أمركما بهذا؟» قالوا: أمرنا ربنا -يعنيان كسرى- فقال رسول الله ﷺ -: «ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيته وقص شاربي». ثم قال: «ارجعا حتى تأتيا غداً». قال: وأتى رسول الله الخبر من السماء، بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله في شهر كذا وكذا، في ليلة كذا وكذا من الليل، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله.

قال: فدعاهما فأخبرهما. فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، فنكتب عنك بهذا، ونخبر الملك باذان؟ قال: «نعم، أخبره ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى، ويتهي إلى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، ومملكك على قومك من الأبناء». ثم أعطى خرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، فقال: والله، ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبياً، كما يقول، وليكونن ما قد قال، فلئن كان هذا حقاً فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسرى فيه رأياً، فلم ينشب باذان أن قدم على كتاب شيرويه: أما بعد، فإنني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس، لما كان استحل من قتل أشرفهم، ونحرمهم في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا، فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجر حتى يأتيك أمرى فيه، فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان، قال: إن هذا الرجل لرسول. فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس، من كان منهم باليمن.

قال: وقد قال باذويه لباذان: ما كلمت أحداً أهيب عندي منه. فقال له باذان. هل معه شرط؟ قال: لا.

وكسرى إذ تقاسمه بنوه
تمخضت المنون له بيوم
بأسياف كما اقتسم اللحم
أتى ولكل حامله تمام

قال الشافعي: لما أتى كسرى بكتاب رسول الله - ﷺ - مزقه، فقال: رسول الله - ﷺ -: «يمزق ملكه». وحفظنا أن قيصر أكرم كتاب رسول الله - ﷺ - ووضعه في مسك. فقال رسول الله - ﷺ -: «ثبت ملكه». ولما كانت العرب تأتي الشام والعراق للتجارة، فأسلم من أسلم منهم، شكوا خوفهم من ملكي العراق والشام إلى رسول الله - ﷺ -، فقال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده». فباد ملك الأكاسرة بالكلية، وزال ملك قيصر عن الشام بالكلية، وإن ثبت لهم ملك في الجملة، بركة دعاء النبي - ﷺ - لهم حين عظموا كتابه، والله أعلم.

[٣٩] نهاية القرطاء البكرين (١)

بعث رسول الله - ﷺ - إلى القرطاء البكرين، بناحية ضرية في نجد شرقى المدينة، بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام، فاستهزءوا به وبكتابه، فأخذوا الصحيفة التي تحمل دعوتهم إلى التوحيد، فغسلوها من الخبر، ثم رقعوا بها است دلو لهم وأبوا أن يجيبوا الرسول - ﷺ - إلى ما دعاهم إليه، فأنكرت امرأة عاقلة منهم ما فعلوا بكتاب الرسول - ﷺ -، وهى أم حبيب بنت عامر بن خالد بن عمرو ابنة ابن أخى سيد القوم حارثة بن عمرو، واستهجت ما صنعوا، فقالت وقولها يدل على أنها مسلمة:

إذا ما أتتهم آية من محمد
محوها بماء البئر فهى عصير

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم:

يذكر أصحاب السير أن القرطاء لما فعلوا بكتاب رسول الله - ﷺ - ما فعلوا، فصاروا دائماً أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط وأهل سفه، وكان الذى جاءهم بالكتاب رجل من عريثة، يقال له: عبد الله بن عوسجة.

قال الواقدي: رأيت بعضهم عيباً لا يبين الكلام.

(١) «الجزء» (١/٢٨٣).

جرد رسول الله - ﷺ - حملة عسكرية بقيادة الضحاك بن سفيان الكلاب، في شهر ربيع الأول سنة تسع هجرية، فهزمهم في مكان بنجد يقال له: زج لاوة.

[٤٠] جزاء الذين يسعون في الأرض فساداً (١)

عن سعيد بن أبي عروبة عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رهطاً من عكل وعرينة أتوا رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا رسول الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف فاستوخمنا المدينة فأمر لهم رسول الله - ﷺ - بدود أن يخرجوا فيها فليشربوا من ألباننا وأبوالها، فقتلوا راعي رسول الله - ﷺ - واستاقوا الدود فبعث رسول الله عليه السلام في آثارهم فأتى بهم فقتلهم وأرجلهم وثلث (٢) أعينهم فتركوا في الحرة حتى ماتوا على حالهم.

قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت فيهم:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ . والحديث رواه مسلم .

قال ابن عباس في قطاع الطريق: «إذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال. قُتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نُفوا من الأرض» واختلفوا: هل يصلب حياً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو يقتل برمح أو نحوه، أو يقتل أولاً ثم يصلب تنكيلاً وتشديداً لغيره من المفسدين، وهل يصلب ثلاثة أيام ثم يترك أو يترك حتى يسيل صديده؟ في ذلك كله خلاف.

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٤٢).

(٢) سورة المائدة: ٣٣، ٣٤.

(٢) أي: فقأها.

[٤١] نزلت عليه صاعقة من السماء فأحرقته (١)

عن أنس -رضي الله عنه- قال: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوهم إلى الله تبارك وتعالى، فقال: إيش ربك الذي تدعونني إليه؟! من حديد هو؟! من نحاس هو؟! من فضة هو؟! من ذهب هو؟! فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فأعادته النبي -صلى الله عليه وسلم- الثانية فقال مثل ذلك فأتى النبي فأخبره فأرسله الثالثة فقال مثل ذلك فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فأرسل الله تبارك وتعالى عليه صاعقة فأحرقته فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله تبارك وتعالى قد أرسل على صاحبك صاعقة فأحرقته». فنزلت هذه الآية: ﴿... وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (٢).

[٤٢] رفض أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- فشلت يداه (٣)

روى مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- أن رجلاً أكل عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشماله فقال «أى النبي -صلى الله عليه وسلم-»: «كل بيمينك». قال: لا أستطيع. قال «أى النبي -صلى الله عليه وسلم-»: «لا استطعت. ما منعه إلا الكبر» قال: فما رفعها إلى فيه.

قلت: شلت يده بسبب التكبر على سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبسبب دعاء النبي عليه، ولو كان الأكل باليمين واتباع النبي بالأمر الهين لما استحق هذا الرفض لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- هذه الدعوة التي شلت يده بسببها فتأمل، وهذا الحديث يبين أهمية السنة في الإسلام، ويحذر من إهمالها أو التهاون في تطبيقها، أو الحط من شأنها كما يحدث في عصرنا ممن ينعمون ليل نهار بالسخرية منها، ويضعون تطبيقها حجر عثرة في طريق الدعوة!! «سبحانك

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٣٣). ط. الفجر.

(٢) سورة الرعد: ١٣.

(٣) «نهاية الظالمين» (ص ١٤٥).

هذا بهتان عظيم» وهذا الحديث المتقدم يضرب على أيدي هؤلاء العابثين الذين رفضوا صورة النبي - ﷺ -، وتشبهوا بالأجانب في زيهم وأكلهم، وشربهم وكان هدى الكفار أقرب إلى قلوبهم من هدى نبيهم فالإله المشتكى .

[٤٣] نهاية الأسود العنسى - لعنه الله - (١)

جاء في مختصر السيرة النبوية ص ٤٧٧ - أنه في مدة مرض رسول الله - ﷺ -، قتل الأسود العنسى - وكان اسمه (عبهله) كان يتعبد ويرى الجهال الأعاجب ثم ادعى النبوة. وأجمع جماعة من المسلمين على قتله. واتفقوا مع امرأته وكان الأسود قد قتل أباه فقالت: والله إنه أبغض الناس إلى ولكن الحرس يحيطون بقصره. فأشارت عليهم أن ينقبوا عليه البيت. فواعدوها على ذلك ونقبوا عليه فدخل عليه فيروز الديلمي فقتله واحتز رأسه فخار خوار الثور فابتدر الحرس الباب. فقالت زوجته (على مهلكم) هذا النبي يوحى إليه. فلما طلع الفجر أسروا المؤذن فقال: أشهد أن محمداً رسول الله وأن عبهله كذاب. وكتب أصحاب النبي - ﷺ - إليه بذلك، فورد الخبر من السماء إلى النبي وأعلم أصحابه بقتل الأسود (قبل أن يصل الكتاب) ووصل الكتاب بقتله في خلافة أبي بكر - رضوان الله عليه -.

والعنسى المذكور هو - عبهله بن كعب بن غوث. كما جاء في البداية ج ٦ ص ٣٠٧ - هو من بلد يقال لها. كهف حنان. خرج في سبعمائة مقاتل وكتب إلى عمال النبي - ﷺ - بقوله - أيها المتمردون علينا. أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا. ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به. وأنتم على ما أنتم عليه ثم ركب فتوجه إلى نجران. فأخذها بعد عشر ليال من مخرجه. ثم قصد إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذان فتقاتلا فغلبه الأسود فقتله وكسر جيشه من الأبناء واحتل صنعاء لخمسة وعشرين ليلة من مخرجه، ففر معاذ بن جبل من هناك واجتاز بأبي موسى الأشعري. فذهبا إلى حضرموت وانحاز عمال

(١) «أدعياء النبوة الكاذبة» (٢٦ : ٢٨).

رسول الله - ﷺ - إلى الطاهر ورجع عمر بن حرام وخالد بن سعيد بن العاص إلى المدينة. واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسى. وجعل أمره يستطير استطارة الشرارة. وكان جيشه يوم لقي شهراً سبعمائة فارس وأمراؤه قيس بن عبد يغوث ومعاوية بن قيس ويزيد بن محرم بن حصن الحارثي. ويزيد الأزدي. واشتد ملكه واستغلظ أمره وارتد خلق كثير من أهل اليمن وعامله المسلمون الذين هناك بالتقية. وكان خليفته على مذبح عمرو بن معدى كرب. وأسند أمر الجند إلى قيس بن يغوث. وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الديلمي وداذويه. وتزوج بامرأة شهر باذام وهي ابنة عم فيروز الديلمي (التي سهلت على قتله فيما بعد) واسمها زاذ. وكانت امرأة حسناء جميلة وهي مع ذلك مؤمنة بالله ورسوله محمد - ﷺ - ومن الصالحات.

قال سيف بن عمر التميمي وبعث رسول الله - ﷺ - كتابه حين بلغه خبر الأسود العنسى ومصاولته وقام به معاذ بن جبل يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلته ومصاولته وبلغوا هذا الكتاب إلى عمال رسول الله - ﷺ - ومن قدروا عليه من الناس. واتفق اجتماعهم بقيس بن عبد يغوث أمير الجند. وكان قد غضب على الأسود واستخف به. وهم بقتله. وتوافق المسلمون على قتله. فلما تم الجهاد اطلع شيطان الأسود للأسود على شيء من تلك (المؤامرة) فدعا قيس. فقال له: يا قيس ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟

قال: يقول عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل. وصار في العز مثلك مال ميل عدوك.

وحاول ملكك وأضمر على الغدر أنه يقول: يا أسود يا أسود يا سواه يا سواه. فظف به وخذ من قيس أعلاه. وإلا سلبك وقطف قلبك.

لهذا كان الأمير قيس في حرج وفي خوف شديد من بطش هذا الظالم الكذاب. فقال له قيس وحلف له فكذب وذى الخمار لأنت أعظم في نفسى وأجل عندي من أن أحدث بك نفسى. فقال له الأسود. ما أخالك تكذب الملك فقد صدق الملك وعرف الآن أنك تائب عما اطلع عليه منك، فأمر

بانصرافه إلى إمرته. ثم تمت المؤامرة عليه فقتل الأسود العنسي لعنه الله كما ذكرنا عنه آنفاً.

[٤٤] ارتد عن الإسلام فردته الأرض (١)

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن رجلاً كان يكتب للنبي -صلى الله عليه وسلم- وقد كان قرأ البقرة وآل عمران، وكان الرجل إذا قرأ البقرة، وآل عمران جد فينا، فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، فمات. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إن الأرض لا تقبله» فحفروا له، فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له، فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذاً. قال أنس: فأخبرني أبو طلحة أنه أتى الأرض التي مات فيها، فوجده منبوذاً، قال أبو طلحة: ما شأن هذا؟ فقالوا: قد دفناه مراراً، فلم تقبله الأرض.

وفي لفظ آخر قال أنس: كان رجلاً نصرانياً فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي -صلى الله عليه وسلم- فعاد نصرانياً، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماته الله، فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم، فألقوه خارج القبر، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح قد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه».

[٤٥] نهاية مدعى النبوة والألوهية (٢)

مسئلة الكذاب

كذاب اليمامة، وكان يدعى رحمان اليمامة، ادعى النبوة في عهد رسول

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٣٤).

(٢) «الجزء من جش العمل» الجزء الأول ص (٢٨٣ : ٢٨٦).

الله - ﷺ - قصده سجاح لما ادعت النبوة بجنودها؛ لأخذ اليمامة منه، فهابه قومها، وقالوا: إنه قد استفحل أمره وعظم، فقالت لهم فيما تقوله: عليكم باليمامة، دفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة. قال: فعمدوا لحرب مسيلمة، فلما سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده، فبعث إليها يستأمنها، ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت، فقد رده الله عليك فحباك به، وراسلها، ليجتمع بها في طائفة من قومه، فركب إليها في أربعين من قومه، فلما خلا بها عرض عليها ما عرض من نصف الأرض، وقبلت ذلك، قال مسيلمة: سمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا يزال أمره في كل ما يسر مجتمع، راكم ربكم فحياكم، ومن وحشته أخلاكم، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم... إلى آخر الهراء، وإلى آخر ما فعل اللعين مما يعف القلم عن ذكره... فلما رجعت سجاح إلى قومها قالوا: ما أصدقك؟ فقالت: لم يصدقني شيئاً، فقالوا: إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق، فبعثت إليه تسأله صداقاً، فقال: أرسلني إلى مؤذنك، فبعثته إليه - وهو شبت بن ربيعي - فقال: ناد في قومك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضعت عنكم صلاتين، مما أتاكم به محمد - يعني صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة - ثم أسلمت بعد ذلك سجاح.

هذا الكذاب الذي كذب على الله ورسوله، فشانه الله وفضحه بكذبه، فما يسمى إلا مسيلمة الكذاب، وكفى به جزاء في الدنيا، فكيف بالقتل وقد قتله وحشى العبد؟.. فكيف بيوم القيامة، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (١) ويقول تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الشَّاهِدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٢).

وجاء في قرآن مسيلمة الكذاب مما يثير الضحك والعجب العجيب: يا

(١) سورة الزمر: ٦٠.

(٢) سورة هود: ١٨.

ضفدع بنت الضفدعين، نقي لكم نقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء، وذنبك في الطين.

وكان يقول:

«المبذرات ذرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قحماً، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزاً، والثارذات ثرداً، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمناً، لقد فضلتكم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، رفيقكم فامنعوه، والمعتر فأووه، والناعي فواسوه».

والله، إنها لخرافات يأنف من قولها الصبيان، وهم يلعبون.

قال الصديق لوفد بني حنيفة: ويحكم، أين كان يذهب بقولكم؟ إن هذا لم يخرج من آل.

وكان الكذاب يقول: والفيل، وما أدراك ما الفيل، له زلوم طويل.

وكان يقول: والليل الدامس، والذئب الهامس.

وفد عمرو بن العاص في أيام جاهليته على مسيلمة، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هي؟ قال: أنزل عليه: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾^(١) قال: ففكر مسيلمة ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: ولقد أنزل على مثلها، فقال له عمرو: وما هي؟ فقال مسيلمة: يا وبر يا وبر، إنما أنت إيراد وصدور، وسائرُك حفر نقر.

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله، إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب.

وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبى - ﷺ -، بلغه أن رسول الله - ﷺ - بصق في بئر فغزر ماؤه، فبصق في بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفي أخرى فصار ماؤه أجاجاً.

(١) سورة العصر: ١، ٢.

وتوضأ وسقى بوضوئه نخلأ فيست وهلكت .

وأتى بولدان يبرك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم ، فمنهم من قرع رأسه ،
ومنهم من لثغ لسانه .

والجزاء من جنس العمل ، فضوح الدنيا قبل الآخرة وتكذيب الناس له .
ويقال : إنه دعا لرجل أصابه وجع فى عينيه فمسحهما فعمى .

وعن عمير بن طلحة عن أبيه أنه جاء إلى اليمامة ، فقال : أين مسيلمة؟
فقال : مه رسول الله . فقال : لا ، حتى أراه . فلما جاء قال : أنت مسيلمة؟
قال : نعم . قال : من يأتيك؟ قال : رجس . قال : أفى نور أم فى ظلمة؟
فقال : فى ظلمة . فقال : أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب
رببعة أحب إلينا من صادق مضر ، واتبعه هذا الأعرابى الجلف -لعنه الله-
حتى قُتل معه يوم عقربا لا رحمه الله .

قدم هذا اللعين المدينة وافداً إلى رسول الله -ﷺ- ، وقد وقف عليه
رسول الله -ﷺ- ، فسمعه وهو يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده
اتبعته . فقال له : لو سألتنى هذا العود -لخرجون فى يده- ما أعطيتكه ، ولئن
أدبرت ليعقرنك الله ، إنى لأراك الذى أريت فيه ما أريت . وكان رسول الله
-ﷺ- قد رأى فى المنام كأن فى يديه سوارين من ذهب ، فأهمه شأنهما ،
فأوحى الله إليه فى المنام : انفخهما ، فنفخهما فطارا ، فأولهما بكذابين
يخرجان ، وهما صاحب صنعاء ، وصاحب اليمامة ، وهكذا وقع فإنهما ذهبا
وذهب أمرهما ، أما الأسود فذبح فى داره ، وأما مسيلمة فعقره الله على يدى
وحشى بن حرب ، رماه بالحربة فأنفذه كما تعقر الإبل ، وضربه أبو دجاجة على
رأسه ففلقه ، وذلك بعقر داره فى حديقة الموت ، وقد قتل قبله وزيراه : محكم
ابن الطفيل ، والرجال بن عنقوة .

روى البخارى أن مسيلمة كتب إلى رسول الله -ﷺ- : بسم الله
الرحمن الرحيم .

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك .

أما بعد... فإنني قد أشركت معك في الأمر، فلك المدر ولي الوبر -
ويروى فلكم نصف الأرض، ولنا نصفها- ولكن قريشاً قوم يعتدون. فكتب
إليه رسول الله -ﷺ-:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله -ﷺ- إلى مسيلمة
الكذاب. سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». لما
مات رسول الله -ﷺ- زعم أنه استقل بالأمر من بعده، واستخفَّ
قومه فأطاعوه، وكان يقول:

خذى الدف يا هذه والعبى

وبثى محاسن هذا النبي

تولى نبي بنى هاشم

وقام نبي بنى يعرب

فلم يمهله الله بعد وفاة رسوله -ﷺ-، حتى سلط الله عليه سيفاً من
سيوفه، وحتفاً من حتوفه، فعج بطنه، وفلق رأسه، وعجل الله بروحه إلى
النار، فبئس القرار.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ
يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ غَيْرِ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١) فمسيلمة والأسود وأمثالهما -
لعنهما الله- أحق الناس دخولاً في هذه الآية الكريمة، وأولاهم بهذه العقوبة
العظيمة. اهـ.

[٤٦] أصابتني دعوة سعد

عن جابر بن سمرة -رضي الله عنه-: شكى أهل الكوفة سعداً -يعني سعد بن
أبي وقاص- إلى عمر -أي ابن الخطاب- رضي الله عنه، فعزله، واستعمل عليهم

(١) سورة الأنعام: ٩٣.

عمَّاراً - رضي الله عنه - . فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن الصلاة، فأرسل إليه، فقال: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن الصلاة.

قال سعد: أمَّا أنا، والله، فإنني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ما أحرم عنها، أصلي صلاة العشاء، فأركد في الأولين، وأخف في الآخرين.

قال عمر: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق.

فأرسل معه رجلاً أو رجلاً إلى الكوفة، فسأل عنه أهل الكوفة، ولم يدع مسجداً لبنى عبيس، فقال رجل منهم يقال له: أسامة بن قتادة، يُكنى: أبا سعدة، قال: إذ نشدتنا، فإن سعد كان لا يسير بالسرية - أي لا يسير مع الجيش للقتال - ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية.

قال سعد: أما - والله - لأدعون بثلاث:

اللهم إن كان عبدك كاذباً وقام رياءً وسمعةً، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن.

قال: فكان بعد ذلك إذا سئل، يقول: شيخٌ كبيرٌ مفتون، أصابتنى دعوةٌ سعد.

قال عبد الملك بن عمير: فأنا رأيتُه بعد أن سقط حاجباه على عينيه من الكبير، وإنه ليتعرَّض للجوارى في الطُّرق يغمزهنَّ.

[٤٧] انتقام الله لأوليائه (١)

عن محمد بن سيرين - رحمه الله تعالى - قال: «كنت أطوف بالكعبة وإذا رجل يقول: اللهم اغفر لي وما أظن أن تغفر لي!، فقلت: يا عبد الله ما سمعتُ أحداً يقول ما تقول: قال: كنت أعطيتُ لله عهداً إن قدرتُ أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قُتل ووضعتُ على سريرته في البيت والناس يجيئون

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٦١).

يصلون عليه، فدخلت كأنى أصلى عليه فوجدت خلوة فرفعت الثوب عن وجهه ولحيته ولطمته فأيس الله يدي اليمنى، فأصبحت كالخشبة لا تتحرك».

[٤٨] هتك الله ستره وقطع يده (١)

جاء فى كتاب «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير -رحمه الله-:

«أن أعين بن ضبيعة المجاشعى اطلع فى اليهودج -أى على السيدة عائشة -رضي الله عنها أيام موقعة الجمل يريد أن ينظر إليها، وكان من أرباب الفتن - فقالت: إليك لعنك الله، فقال: والله ما أرى إلا حميراً، فقالت: هتك الله سترك وقطع يدك وأبدي عورتك. فقتل بالبصرة وسلب وقطعت يده ورمى عرياناً فى خربة من خرابات الأزد.

[٤٩] غضب الملائكة لأولياء الله عز وجل (٢)

ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب «المُجابين»:

عن الحسن قال: «كان رجل من أصحاب النبى -صلى الله عليه وسلم- يُكنى أباً معلق، وقد كان تاجراً يتجر بماله له ولغيره، ويضرب به فى الآفاق، وكان ناسكاً ورعاً، فخرج مرة فلقبه لص مقنع فى السلاح. فقال له: ضع ما معك، فإنى قاتلك. قال: ما تريد من دمي؟ شألك بالمال. قال: أما المال فلى، ولست أريد إلا دمك. قال: أما إذا أبيت فذرني أصلى أربع ركعات قال: صل ما بدالك. فتوضأ ثم صلى أربع ركعات. فكان من دعائه فى آخر سجوده أنه قال: يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما تريد، أسألك بعزك الذى لا يرام، وبملكك الذى لا يضام، وبنورك الذى ملأ أركان عرشك: أن

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٥٤).

(٢) «نهاية الظالمين» (ص ١٦٤).

تكفينى شر هذا اللص: يا مغيث أغثنى، ثلاث مرات. فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه، فلما بصر به اللص أقبل نحوه، فطعنه فقتله. ثم أقبل إليه فقال: قُم. فقال: من أنت بأبى أنت وأمى؟ قد أغائنى الله بك اليوم.

فقال: «أنا مَلَكٌ من السماء الرابعة، دعوت بدعائك الأول فسمعتُ لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعتُ لأهل السماء ضجة. ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لى: دعاء مكروب. فسألت الله أن يولينى قتله».

[٥٠] «يشرب ولا يروى»

لما قُتل كل أصحاب الحسين وجاء رجل من بنى يَدَاء يقال له مالك بن البشر فضرب الحسين على رأسه بالسيف فأدمى رأسه وكان على الحسين برنس فقطعه وجرح رأسه فامتلاً البرنس دمًا فقال الحسين: لا أكلت بها ولا شربت وحشرك الله مع الظالمين وقد اشتد العطش بالحسين فحاول أن يشرب من ماء الفرات فما قدر بل منعوه عنه فخلص إلى شربة منه فرماه رجل يقال له: حصين بن تميم بسهم فى حنكه فأثبتته فانتزعه الحسين من حنكه ففار الدم فتلقاه بيده ثم رفعها إلى السماء وهما مملوتان دمًا ثم رمى به إلى السماء وقال اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تبقى منهم أحدًا ودعا عليهم دعاءً بليغًا.

قال ابن كثير: إن مكث الرجل الرامى له إلا يسيرًا حتى صب عليه الله الظمًا فجعل لا يروى ويسقى الماء مبردًا وتارة يبرد له اللبن والماء جميعًا ويسقى فلا يروى بل يقول ويلكم اسقونى قتلنى الظمًا قال: فوالله ما لبث إلا يسيرًا حتى انقد بطنه انقداد البعير (انشرح) (البداية والنهاية ح ٨ ص ١٨٩).

ولقد أورد ابن أبى الدنيا فى كتابه «مجابوا الدعوة» أن سنان بن أبى

عمرو بن أنس النخعي طعن الحسين بالرمح فوقع ثم نزل فذبحه وحز رأسه ثم دفع رأسه إلى خولى بن يزيد وجاء سنان بن أنس إلى فسطاط عمر بن سعد فنادى بأعلى صوته:

أوقد ركابي فضة وذهباً أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أمًّا وأباً وخيرهم إذ ينسبون نسباً

[٥١] هذا حية تدخل في فمه وتخرج من منخره

روى ابن كثير في البداية والنهاية ح ٨ ص ٢١٠ أما عبید الله بن زياد رأس الفسق الذي كتب كتاباً لعمر بن سعد في قتل الحسين فلما طلب منه الكتاب أنكره وقال مضيت لأمرك وضاع الكتاب أو قال ترك والله يقرأ على عجائز قريش أعتذر إليهم أما والله لكنت قد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها إلى سعد بن أبي وقاص لكنت قد أدبت حقه ولقد قتل عبید الله في يوم عاشوراء سنة سبع وستين وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين.

فانظر رحمك الله ماذا فعل مع الحسين وماذا فعل الله به لما حملوا إليه رأس الحسين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إليه وُضِعَ في طست فجعل ينكت فيه بقضيب في يده ويقول ما رأيت حسناً مثل هذا فقال له رجل ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت شفتي رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على هاتين الشفتين يقبلها.

فانظر كيف قتله الله؟ ظفر به ابن الأشتر فقتله شر قتلة على شاطئ نهر الخاز قريباً من الموصل بخمس مراحل بعد هزيمة جيشه أمام جيش ابن الأشتر ثم بعث ابن الأشير برأسه إلى المختار ومع رأس حصين بن نمير وشراحيل بن ذى الكلاع وجماعة من رؤساء أصحابه، فلما طرحت بين يدي المختار جاءت حية رقيقة ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت في فم ابن مرجانة (ابن زياد) وخرجت من منخره ودخلت منخره فخرجت من فمه وجعلت تدخل وتخرج من رأسه من بين الرءوس.

[٥٢] أراد أن يخيف أنس بن مالك فأخافه عبد الملك بن مروان^(١)

دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له: إيه إيه يا أنيس^(٢) يوم لك مع على، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة^(٣). فقال أنس: أياي يعنى الأمير أصلحه الله؟

قال: إياك أعنى صك الله سمعك. قال أنس: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أى قتلة قتلت. ولا أى ميتة مت، ثم خرج من عند الحجاج، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً، وشفق عجباً، وتعاضم ذلك من الحجاج، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك.

أما بعد: فإن الحجاج قال لى هُجرًا، وأسمعنى نكرًا، ولم أكن لذلك أهلاً، فيخذ لى على يديه، فإنى أمت بخدمتى رسول الله ﷺ - وصحبتى إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وفى رواية أخرى: كتب أنس إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول فى كتابه:

ولو أن رجلاً خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصرارى أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة، ولعرفوا له ذلك، ولو أن رجلاً خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود، لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا، وإنى خادم رسول الله ﷺ -

(١) الجزء (٢٧٩ : ٢٨١).

(٢) للتصغير والتحقير.

(٣) الصمغة: شئ يسيل من الشجر.

وصاحبه ورأيته، وأكلت معه، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه، وإن الحجاج قد أضرب بى وفعل وفعل .

قال محمد بن الزبير: أخبرنى من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكى، وبلغ به الغضب ما شاء الله .

فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر - وكان مصادقاً للحجاج - فقال له: دونك كتابى هذين، فخذهما واركب البريد إلى العراق، وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله - ﷺ - فارفع كتابى إليه، وأبلغه منى السلام، وقل له: يا أبا حمزة، قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك^(١) .

ولما دخل إسماعيل على الحجاج، فقال الحجاج: مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاءه، فقال إسماعيل: أنا والله كنت أحب لقاءك فى غير ما أتيتك به، فتغير لون الحجاج وخاف، وقال: ما أتيتنى به؟ قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضباً عليك، ومنك بعداً، قال: فاستوى الحجاج جالساً مرعوباً، فرمى إليه إسماعيل بالطومار^(٢)، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق، وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما فضه قال: قم بنا إلى أبى حمزة نعتذر إليه ونترضاه، فقال له إسماعيل: لا تعجل! فقال: كيف لا أعجل وقد أتيتنى بأبدة^(٣) .

وكان فى الطومار:

بسم الله الرحمن الرحيم

من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف .

أما بعد: فإنك عبد طمّمت بك الأمور، فسموت فيها وعدوت طورك،

(١) أمتك: جاريتك .

(٢) الطومار: جمعها طوامير: الصحيفة .

(٣) أبدة: جمعها أوابد: الداهية الخالدة الذكر .

وجاوزت قدرك، وركبت داهية إدا^(١)، وأردت أن تبدو لى فإن سوغتكها مضيت قدماً، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى، فلعنك الله من عبد أخفش^(٢) العينين، منصوص الجاعرتين^(٣)، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف، وحفرهم الآبار، ونقلهم الصخور على ظهورهم فى المناهل^(٤)، يابن المستفرية بعجم^(٥) الزبيب، والله لأغمرنك غمر الليث الثعلب، والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - بين أظهرنا، فلم تقبل له إحسانه، ولم تتجاوز له عن إساءته، جرأة منك على الرب عز وجل، واستخفاً منك بالعهد، والله لو أن اليهود والنصارى رأيت رجلاً خدع عذير ابن عذرى، وعيسى بن مريم لعظمتته وشرفته وأكرمته وأحبته، بل لو رأوا من خدع حمار العذير أو خدع حوارى المسيح لعظموه وأكرموه، فكيف وهذا أنس ابن مالك خادم رسول الله - ﷺ - ثمانى سنين، يطلعه على سره، ويشاوره فى أمره، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابى هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك منى سهم بكل حتف قاضٍ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

جزاءً وفاقاً، والجزاء من جنس العمل، هذا فى الدنيا، فكيف فى الآخرة؟! رحمك الله يا عبد الملك، وكفاك بالجنة.

[٥٣] نهاية المختار بن أبى عبيد الثقفى^(٦)

المختار الكذاب.

سلطه الله على قتلة الحسين، وهو الكذاب الذى قال فيه الرسول

(١) قاسية شديدة.

(٢) ضعيف.

(٣) مضرب الدابة.

(٤) موارد الشرب على الطريق.

(٥) بعود.

(٦) «الجزاء من جنس العمل» الجزء الأول ص (٣٨٢ : ٣٨٦).

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إنه سيكون في ثقيف كذاب ومبير». فهذا هو الكذاب، ولفظ مسلم : «إن في ثقيف كذاباً ومبيراً» .

وقد كان في بداية أمره ناصبياً يبغض علياً بغضاً شديداً، ثم ادعى التشيع، وتتبع قتلة الحسين ومن شهد الواقعة بكربلاء، وطابت نفس المختار بالملك، وظن أنه لم يبق له عدو ولا منازع .

ولم يكن المختار في نفسه صادقاً، بل كان كاذباً يزعم أن الوحي يأتيه على يد جبريل .

وروى الإمام أحمد عن رفاة القباني قال : دخلت على المختار فألقى لى وسادة، وقال : لولا أن أخى جبريل قام عن هذه لألقيتها لك .

وقد قيل لابن عمر : إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه، فقال : صدق، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (١) .

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قدمت على المختار فأكرمني وأنزلى عنده، وكان يتعاهد مبتي بالليل، قال : فقال لى : اخرج فحدث الناس، قال : فخرجت، فجاء رجل فقال : ما تقول في الوحي؟ فقلت : الوحي وحيان، قال الله تعالى : ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (٣) قال : فهموا أن يأخذوني، فقلت : ما لكم وذاك! إنى مفتيكم وضيغكم . فتركوني، وإنما أراد عكرمة أن يعرض بالمختار وكذبه في ادعائه أن الوحي ينزل عليه .

وروى الطبراني من طريق أنيسة بنت زيد بن الأرقم أن أباه دخل على المختار بن أبي عبيد، فقال له : يا أبا عامر، لو شفت رأى جبريل وميكائيل، فقال له زيد : خسرت وتعست، أنت أهون على الله من ذلك، كذاب مفتر على الله ورسوله .

(١) سورة الأنعام: ١٢١ .

(٢) سورة يوسف : ٣ .

(٣) سورة الأنعام: ١١٢ .

وقد ذكر العلماء أن المختار كان يظهر التشيعُ ويطن الكهانة، وأسر إلى أخصائه أنه يوحى إليه. وكان قد وضع له كرسى يعظم ويحف به الرجال، ويستتر بالحريز، ويحمل على البغال، وكان يضاهى به تابوت بنى إسرائيل المذكور فى القرآن.

وروى ابن جرير بإسناده إلى طفيل بن جعدة بن هبيرة قال: أعدمت مرة من الورق، فإني كذلك إذ مررت بباب رجل هو جار لى له كرسى قد ركبته وسخ شديد، فخطر فى بالى أن لو قلت فى هذا، فرجعت فأرسلت إليه أن أرسل إلى بالكرسى، فأرسل به، فأتيت المختار فقلت له: إني كنت أكتمك شيئاً وقد بدا لى أن أذكره إليك، قال: وما هو؟ قال: قلت: كرسى كان جعدة بن هبيرة يجلس عليه، كأنه كان يرى أن فيه أثره من علم. قال: سبحان الله! فلم أخرجت هذا إلى اليوم؟ ابعثه إلى، قال: فجئت به وقد غسل فخرج عوداً ناضراً وقد شرب الزيت، فأمر لى باثنى عشر ألفاً، ثم نودى فى الناس: الصلاة جامعة، قال: فخطب المختار الناس فقال: إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن فى هذه الأمة مثله، وإنه قد كان فى بنى إسرائيل تابوت يستنصرون به، وإن هذا مثله، ثم أمر فكشف عنه أثوابه، وقامت السبئية، فرفعوا أيديهم وكبروا ثلاثاً، فقام شيبث بن ربعى فأنكر على الناس وكاد أن يكفر من يصنع بهذا التابوت هذا التعظيم. وأشار بأن يكسر، ويخرج من المسجد، ويرمى فى الخنس، فشكرها الناس لشيبث بن ربعى، فلما قيل: هذا عبيد الله بن زياد قد أقبل، وبعث المختار بن الأشتر، بعث معه بالكرسى يحمل على بغل أشهب قد غشى بأثواب الحريز، عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة، فلما تواجهوا مع الشاميين وغلبوا الشاميين وقتلوا ابن زياد ازداد تعظيمهم لهذا الكرسى حتى بلغوا به الكفر، قال الطفيل بن جعدة: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، وندمت على ما صنعت.

وهذا وأمثاله مما يدل على قلة عقل المختار وأتباعه، وضعفه وقلة علمه، وكثرة جهله، ورداءة فهمه، أو ترويعه الباطل على أتباعه، وتشبيهه الباطل بالحق، ليضل به الطغام، ويجمع عليه جهال العوام.

قال عبد القاهر البغدادي: لما تمت ولاية الكوفة والجزيرة والعراقين إلى حدود أرمينية تكهن بعد ذلك، وسجع كأسجاع الكهنة.

ثم إن المختار خدعته السبئية الغلاة من الرافضة، فقالوا له: أنت حجة هذا الزمان، وحملوه على دعوى النبوة، فادعها عند خواصه، وزعم أن الوحي ينزل عليه.

ثم إن أهل الكوفة خرجوا على المختار لما تكهن، واجتمعت السبئية إليه مع عبيد أهل الكوفة؛ لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال ساداتهم، وقاتل بهم الحارجين عليه، فظفر بهم، وقتل منهم الكثير، وأسر جماعة منهم، وكان في الأسراء رجل يقال له: سراق بن مرداس البارقي، فقدم إلى المختار، وخاف البارقي أن يأمر بقتله، فقال للذين أسروه وقدموه إلى المختار: ما أنتم أسرتونا ولا أنتم هزمتونا بعدتكم، وإنما هزمتنا الملائكة الذين رأيناهم على الخيل البلق فوق عسكركم، فأعجب المختار قوله هذا، فأطلق عنه، فلحق بمصعب بن الزبير بالبصرة، وكتب منها إلى المختار هذه الأبيات:

ألا أبلغُ أبا إسحاق عني رأيت البلق دهماً مُصمات
أرى عيني ما لم تنظراه كلانا عالم بالترهات
كفرت بوحيكم وجعلتُ نذرا على قتالكم حتى الممات

وفي هذا الذي ذكرناه بيان سبب كهانة المختار ودعواه الوحي إليه.

وأما سبب قوله بجواز البداء على الله؛ أنه قد وعد أصحابه بالنصر على جيش مصعب، فلما هزموا قالوا له: لماذا تعدنا بالنصر على عدونا؟! فقال: إن الله كان قد وعدني ذلك، لكنه بدا له.

ثم إن المختار باشر قتال مصعب بن الزبير بنفسه بالمذار من ناحية الكوفة، وقتل في تلك الواقعة محمد بن الأشعث الكندي، قال المختار: طابت نفسى بقتله أن لم يكن بقى من قتلة الحسين غيره، ولا أبالي بالموت بعد هذا. ثم وقعت الهزيمة على المختار وأصحابه.

وأشار عليه جماعة من أساورته بأن يدخل القصر دار إمارته، فدخله وهو ملوم مذموم، وعن قريب ينفذ فيه القدر المحتوم، فحاصره مصعب فيه وجميع أصحابه حتى أصابهم من جهد العطش ما الله به عليم، وضيق عليهم المسالك والمقاصد، وانسدت عليهم أبواب الحيل، وليس فيهم رجل رشيد ولا حلِيم، ثم جعل المختار يجيل فكرته، ويكرر رويته في الأمر الذي قد حل به، واستشار من عنده في هذا السبب السيئ الذي قد اتصل بسببه بسببه من الموالى والعييد، ولسان الشرع يناديه: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾^(١) ثم قوى عزمه قوة الشجاعة المركبة فيه، على أن أخرجته من بين من كان يحالفه ويواليه، ورأى أن يموت على فرسه، حتى يكون عليها انقضاء آخر نفسه، فنزل حميةً وغضباً، وشجاعةً وكلباً، وهو مع ذلك لا يجد مناصاً ولا مفراً ولا مهرباً وليس معه من أصحابه سوى تسعة عشر، ولعله إن كان قد استمر على ما عاش عليه أن لا يفارقه التسعة عشر الموكلون بسقر، ولما خرج من القصر تقدم إليه رجلان شقيقان أخوان وهم طرفة وطراف ابنا عبد الله بن دجاجة من بنى حنيفة، فقتلاه، واحتزا رأسه، وأتيا به إلى مصعب بن الزبير وقد دخل قصر الإمارة، فوضع بين يديه، كما وضع رأس ابن زياد بين يدي المختار، وكما وضع رأس الحسين بين يدي ابن زياد، وكما سيوضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك بن مروان.

يقول أعشى همدان:

لقد نبئت والأنباء تنمى بما لاقى الكوارث بالمدار
وما إن سرنى إهلاك قومي وإن كانوا وحقك فى خسار
ولكنى سررت بما يلاقى أبو إسحاق من خزى وعار

وأراح الله المسلمين من هذا الضال المضل، بعد ما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين... وذهب المختار إلى مزبلة التاريخ، بعد أن نُعت بالكذاب على لسان رسول الله - ﷺ - وكل صاحب فرية ذليل فى الدارين.

(١) سورة سبأ: ٤٩ .

[٥٤] الحجاج بن يوسف [لم تخطئه دعوة سعيد]

قال عمر بن عبد العزيز: لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم.

قالت له أسماء بنت أبي بكر ولما دخل عليها بعد قتل عبد الله بن الزبير ابنها: أما أن لهذا الراكب أن ينزل وقال: المنافق؟ قالت: لا والله ما كان منافقاً وقد كان صواماً قواماً قال: اذهبي فإنك عجوز قد خرفت. قالت: لا والله ما خرفت سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «يخرج في ثقيف كذاب ومبير فأما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فأتت هو» والمبير هو المفسد.

وعن هشام بن حسان: أحصوا ما قتل الحجاج صبراً فبلغ مائة ألف وعشرين ألفاً كان عثمانياً أمويّاً يميل إليهم ميلاً عظيماً ويرى أن خلافهم كفر.

وأعظم ما فعله الحجاج هو قتل سعيد بن جبير فقد قال الإمام أحمد: قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه.

قال ابن كثير: قال له الحجاج: والله لأقتلنك قال: إني إذا لسعيد كما سمنتى أمي. قال: فقتله فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يوماً وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله فيم قتلتنى؟ فيقول الحجاج: ما لى ولسعيد بن جبير ما لى ولسعيد بن جبير.

فالحجاج هذا الجبار العنيد قتل ابن حوارى رسول الله - ﷺ - وحفيد الصديق وسعيد بن جبير فكيف به بعد ما فعل هذا؟

لما مات الحجاج سجد الحسن البصرى شكراً لله وقال: اللهم أمته فأذهب عنا سنته، ولما أخبر إبراهيم النخعي بموته بكى من الفرح. أنشأت جارية له عند موته تقول:

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا واليوم يأمننا من كان يخشانا

رأى الحسن البصرى الحجاج فى منامه فقال له: أنت الحجاج؟ قال: أنا الحجاج قال: ما فعل الله بك؟ قال: قُتلت بكل قتيل قتلته.

كان جباراً ظلوماً ناصبياً خبيثاً سفاكاً للدماء وقد حاصر ابن الزبير فى الكعبة ورمها بالمنجنيق وأذل أهل الحرمين وأخر الصلوات إلى أن استأصله الله فنحن جميعاً نسبه ولا نحبه بل نبغضه فى الله.

[٥٥] نهاية الحارث بن سعيد (١)

اسمه:

الحارث بن سعيد وكان مولى لابن الجلاس، نزل دمشق وتعبد بها وتنسك وتزهد ثم مكر به ورجع القهقرى على عقبيه وانسلخ من آيات الله تعالى وفارق حزب الله المفلحين واتبع الشيطان فكان من الغاوين.

بداية ضلاله:

كان متعبداً زاهداً لو لبس جبة من ذهب لرأيت عليه زهادة، وكان إذا أخذ فى التحميد لم يصغ السامعون إلى كلام أحسن من كلامه. فكتب إليه أبيه يا أبتاه عجل على فإنه قد رأيت أشياء أتخوف منها أن تكون من الشيطان، فزاده أبوه غيماً وكتب إليه يا بنى أقبل على ما أمرت به إن الله يقول: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ ولست بأفك ولا أثيم فامض لما أمرت به، وكان يجىء إلى أهل المساجد رجلاً رجلاً فيذكر لهم أمره ويأخذ عليهم العهود والمواثيق إن هو رأى ما يرضى قبل وإلا كتم عليه. فأخبر به قاضى دمشق وأخبر بدوره الخليفة عبد الملك بن مروان فاختنفى الحارث بعد ذلك بيت المقدس وجهل الناس خبره فتسلط عليه رجل من أهل البصرة حتى عرف مدخله ومخرجه وتظاهر له بالتصديق له وقال له: (إن كلامك لحسن وقد وقع فى قلبى وقد آمنت بك، وهذا هو الدين

(١) «المتنبئون نشأتهم وأصولهم» (٣٧ : ٣٩).

المستقيم، فأمر أن لا يحجب عنه متى أراد الدخول عليه). فاتصل بعبد الملك وأخبره الخبر فسير معه وتم القبض عليه.

نهايته:

بعدهما تم القبض عليه وجرى به إلى عبد الملك فأمر بخشبة فنصبت فصلبه وأمر بحربة وأمر رجلاً فطعنه فلما صار إلى ضلع من أضلاعه فانكفأت الحربة عنه فجعل الناس يصيحون ويقولون: الأنبياء لا يجوز فيهم السلاح، فلما رأى رجل من المسلمين تناول الحربة ثم مشى إليه وأقبل يتجسس حتى وافى بين ضلعين فطعنه بها فأنفذها فقتله.

وقد كان عبد الملك حبسه قبل صلبه وأمر رجلاً من أهل العلم والفقهاء أن يعظوه ويعلموه أن هذا من الشيطان فأبى أن يقبل منهم فصلبه بعد ذلك عام ٧٩هـ. أراح الناس من شره.

[٥٦] المغيرة بن سعيد العجلي (١)

اسمه:

المغيرة بن سعيد العجلي مولى خالد بن عبد الله القسري وهو من أهل الكوفة.

ادعاءاته:

ادعى أنه الإمام بعد محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، ثم زعم بعد ذلك أنه رسول نبي، وأن جبرائيل يأتيه بالوحي من عند الله. وزعم أن: (معبوده رجل من نور وله أعضاء وقلب ينبع منه الحكمة وأن أعضاءه على صور حروف الهجاء وأن الألف منها مثال قدميه والعين على صورة عينيه وشبه الهاء بالفرج).

وزعم كذلك أن الله تعالى خلق الناس قبل أجسادهم فكان أول ما خلق

(١) «المتنبئون نشأتهم وأصولهم» (٤٢ : ٤٣).

ظل محمد قال فذلك قوله: (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) قال ثم أرسل ذلل محمد إلى أطلال الناس.. إلخ ما ذكره من ذلك الهراء وكان يزعم أنه: (لو أراد أن يحيى عاد أو ثمود وقروناً بين ذلك كثيراً لأحياهم).

نهايته:

عندما اطلع عليه خالد بن عبد الله القسرى قبض عليه وأوقد له ناراً أمره أن يعتنقها فأبى فقتله خالد وقتل أصحابه، وقيل بل أحرق بالنار وكان ذلك عام ١١٩هـ. أراح الناس من شره.

[٥٧] نهاية بيان بن سمعان (١)

هو بيان بن سمعان النهدي من بنى تميم ظهر بالعراق بعد المائة ويسمى أتباعه بالبيانية.

ادعاءاته:

ادعى أصحابه انتقال الإمامة من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إليه، وكان يزعم أن جزءاً إلهياً حل في علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ثم انتقل إليه الجزء الإلهي بنوع من التناسخ، وكان يزعم أنه يعرف الاسم الأعظم وأنه يهزم به العساكر وأنه يدعو به الزهرة فتجيبه. ثم زعم أنه هو المذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) وقال أنا البيان وأنا الهدى والموعظة: زعم بعض أتباعه أنه كان نبياً وأنه نسخ بعض شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - . بل هو كان يزعم أنه نبي ولهذا فقد كتب كتاباً إلى محمد بن علي بن الحسين الباقر - رضي الله عنه - ودعاه إلى نفسه وفي كتابه:

«أسلم تسلم وترتقى من سلم فإنك لا تدري حيث يجعل الله النبوة». فأمر الباقر أن يأكل الرسول قرطاسه الذي جاء به فأكله فمات في الحال.

(١) «المتنبئون نشأتهم وأصولهم» (٤٠ : ٤١).

(٢) سورة آل عمران: ١٣٨ .

نهايته:

رفع خبره إلى خالد بن عبد الله القسرى فى زمان ولايته فى العراق، فاحتال على بيان حتى ظفر به، صلبه وقال إن كنت تهزم الجيوش بالاسم الذى تعرفه فاهزم به أعوانى عنك، وقيل بل أحرقه مع المغيرة بن سعيد. وأراح الناس من شره.

[٥٨] الجعد بن درهم يُضخى به فى عيد الأضخى (١)

قال السيوطى فى كتاب الأوائل: أول من تفوه بكلمة خبيثة فى الاعتقاد -يعنى: فى الإسلام- الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار آخر ملوك بنى أمية، فقال: بأن الله لا يتكلم.

وهو أول من قال بخلق القرآن، وأنكر أن يكون الله قد تكلم به، وأنكر أن يكون اتخذ إبراهيم خليلاً.

وهو أول من تكلم فى صفات الله عز وجل وأنكرها. ولما كثرت أسئلته عن صفات الله قال له وهب بن منبه: ويلك يا جعد! قصر المسألة عن ذلك إني لأظنك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله أن له يداً، وأن له عيناً ما قلنا ذلك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن أول ما حفظ عنه أنه قال هذه المقالة فى الإسلام -أعنى: أن الله ليس على العرش حقيقة، وأن معنى استوى بمعنى: استولى ونحو ذلك- الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه.

وقال ابن كثير: كان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له: أبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودى.

قال ابن القيم فى نونته عن الجهمية وشيخهم الجعد:

(١) انظر «الجزء من جنس العمل» (ص ٣٦٣، ٣٦٤) وقارن بما فى «قصص لا تثبت».

وكذاك قالوا ما له من خلقه
 وخليله المحتاجُ عندهم وفي
 فالكل مفتقر إليه لذاته
 ولأجل ذا ضحى بجعد خالد الـ
 إذ قال إبراهيم ليس خليله
 شكر الضحية كل صاحب سنة
 أحد يكون خليله النفساني
 ذا الوصف يدخل عابد الأوثان
 في أسرقضته ذليل عان
 قسرى يوم ذبائح القربان
 كلا ولا موسى الكليم الداني
 لله درك من أخى قـربان

حرفوا الكلم عن مواضعه فقالوا: إن معنى الخليل فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١) الفقير المحتاج، ولا شك فى فساد هذا التأويل، إذ لا يكون حينئذ لتخصيص إبراهيم بالخلّة معنى، فإن الفقر والاحتياج لازم لجميع الخلق لزوماً ذاتياً، وبذلك يكون وصف الخلّة متناولاً لجميعهم حتى عبدة الأوثان الذين هم ألد أعداء الرحمن.

وأى ذنب أعظم من هذا، وإهانة لخليل الرحمن عليه السلام، فذبح فى يوم شرف وعز الخليل فى سنة ١٢٤هـ. ضحى به خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق بواسطة فى يوم الأضحى حيث قال:

أيها الناس، اذهبوا إلى أصحابكم، يتقبل الله منكم، فإنى مضجّ بالجدد ابن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولا كلم موسى تكليماً. ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من التابعين، فشكر له صنيعه أهل السنة والجماعة.

[٥٩] نهاية أبى منصور العجلى^(٢)

اسمه:

أبو منصور العجلى رجل من أهل الكوفة من عبد القيس، وله فيها دار وكان منشأه بالبادية وكان أمياً لا يقرأ.

(١) سورة النساء: ١٢٥ .

(٢) «المتنبئون نشأتهم وأصولهم ونهايتهم» (٤٦ : ٤٧).

ادعاءاته:

أول ما ادعى أنه خليفة أبى جعفر محمد بن على بن الحسين المسمى بالباقر وأنه فوض إليه أمره وجعله وصية من بعده.

ثم زعم أن الرسل لا تنقطع أبداً وأن الرسالة لا تنقطع، كذلك وبعد ذلك ادعى أن على بن أبى طالب - رضي الله عنه - نبي ورسول وكذا الحسن والحسين وأبناء الحسين. ثم لما كان هو خليفة الباقر محمد بن على بن الحسين وقد كان هذا من زعمه نبياً فإن النبوة تحولت إليه وقال: أنا نبي ورسول والنبوة فى ستة من ولدى يكونون بعدى أنبياء آخرهم القائم.

زعم أن جبرائيل عليه السلام يأتيه بالوحي من عند الله عز وجل، وأن الله بعث محمداً بالتنزيل وبعثه هو (يعنى نفسه) بالتأويل، وزعم أن أول ما خلق الله تعالى هو عيسى بن مريم عليه السلام ثم على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وزعم أن الله اتخذه خليلاً. وغيرها من الخرافات والهراء.

نهايته:

أخذه يوسف بن عمر الثقفى والى العراق وصلبه وكان ذلك فى خلافة هشام بن عبد الملك. أراح الناس من شره.

[٦٠] غيلان الدمشقى القدرى^(١)

قال - رضي الله عنه -: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»^(٢).

قال أبو جعفر الخطمى: شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشيء بلغه فى القدر، فقال له: ويحك يا غيلان، ما هذا الذى بلغنى عنك؟ قال: يكذب علىّ يا أمير المؤمنين، ويقال علىّ ما لا أقول.

(١) «الجزء من جنس العمل» (٣٦٧ : ٣٦٨).

(٢) حسنه الألبانى كما فى «صحيح الجامع».

قال: ما تقول في العلم؟

قال: نفذ العلم.

قال: أنت مخصوم اذهب الآن، فقل ما شئت، يا غيلان، إنك إن أقررت بالعلم خصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تقر به فنخصم خير لك من أن تجحد فتكفر.

ثم قال له: أتقرأ يس؟

قال: نعم.

قال: اقرأ.

قال: فقرأ: ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرِهِمْ فَهَمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

قال: قف، كيف ترى؟

قال: كأنى لم اقرأ هذه الآية يا أمير المؤمنين.

قال: زد.

فقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (٨) وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً (٢).

فقال له عمر: قل: ﴿سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٩) وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون (٣).

قال: كيف ترى؟

قال: كأنى لم اقرأ هذه الآيات قط، وإنى أعاهد الله ألا أتكلم في شيء

مما كنت أتكلم فيه أبداً.

(١) سورة يس: ١ - ٧.

(٢) سورة يس: ٨، ٩.

(٣) سورة يس: ٩، ١٠.

قال: اذهب.

فلما ولى قال: اللهم، إن كان كاذباً بما قال فأذقه حر السلاح.

قال: فلم يتكلم زمن عمر، فلما كان يزيد بن عبد الملك كان رجلاً لا يهتم بهذا، ولا ينظر فيه.

قال: فتكلم غيلان.

فلما ولى هشام أرسل إليه فقال: أليس قد كنت عاهدت الله لعمر لا تتكلم فى شيء من هذا أبداً؟

قال: أقلنى فوالله لا أعود.

قال: لا أقلنى الله إن أقلتك، هل تقرأ فاتحة الكتاب؟

قال: نعم.

قال: اقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

فقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٣) ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قال: قف. علام استعنته؟ على أمر بيده لا تستطيعه، أو على أمر فى يدك - أو بيدك؟.

اذهبا فاقطعا يديه ورجليه، واضربا عنقه، واصلباه.

[٦١] الجهم بن صفوان وعاقبته^(٢)

تبنى الجهم آراء الجعد بن درهم ثم زاد عليها بدعاً أخرى:

الأولى: القول بالجبر؛ حيث زعم أن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور على أفعاله.

(١) سورة الفاتحة: ٢.

(٢) «الجزء من جنس العمل» للدكتور سيد حسين العفانى (حفظه الله) (٣٦٥، ٣٦٦).

الثانية: القول بأن الإيمان هو المعرفة؛ حيث زعم أن الإيمان وهو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط.

الثالثة: القول بفتناء الجنة والنار بعد دخول أهلها فيهما.

الرابعة: القول بأن علم الله حادث؛ حيث زعم أنه لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه.

قال إبراهيم بن طهمان: ما ذكرته ولا ذكر عندي إلا دعوت الله عليه، ما أعظم ما أورث أهل القبلة من منطقته العظيم.

انظر ما قال شيخ الإسلام المبارك ابن قيم الجوزية عن أبي محرز الراسبي جهم بن صفوان أس الضلالة، ورأس الجهمية:

جحدوا صفات الخالق الديان
والعرش أخلوه من الرحمن
وقضوا له بالخلق والحدثان
بل فعله كتحرك الرجفان
وتحرك الأشجار للميلان
أفعاله حر الحميم الآن
فيه تعالى الله ذو الإحسان
خلاقهم هو منتهى الإيمان
كالمشط عند تماثل الأسنان
والاهم من عابدى الأوثان
عبد المسيح مقبل الصلبان
أعداء نوح أمة الطوفان
خلاق أم أصبحت ذا نكران
لوطية هم ناكحو الذكران
فرعون مع قارون مع هامان

جهم بن صفوان وشيعته الأولى
بل عطلوا منه السماوات العلى
ونفوا كلام الرب جل جلاله
والعبد عندهم فليس بفاعل
وهبوب ريح أو تحرك نائم
والله يصلية على ما ليس من
لكن يعاقبه على أفعاله
قالوا وإقرار العباد بأنه
والناس في الإيمان شيء واحد
فاسأل أبا جهل وشيعته ومن
وسل اليهود وكل أئلف مشرك
واسأل ثمود وعاد بل سل قبلهم
واسأل أبا الجن اللعين أتعرف الـ
واسأل شرار الخلق أعلى أمة
واسأل كذاك إمام كل معطلٍ

هل كان فيهم منكر للخالق الرب
فليُبشروا ما فيهم من كافر
وقضى بأن الله كان معطلاً
ثم استحال وصار مقدوراً له
وقضى بأن النار لم تخلق ولا
فإذا هما خلقتا ليوم معادنا
ما ذا الذي في ضمن ذا التعطيل من
وأتى إلى الكفر العظيم فصاغه
وكساه أنواع الجواهر والحلى
فراه ثيران الورى فأصابهم
عجلان قد فتنا العباد بصوته

العظيم مكون الأكوان
هم عند جهنم كاملو الإيمان
والفعل ممتنع بلا إمكان
من غير أمر قام بالديان
جنات عدن بل هما عدمان
فهما على الأوقات فانيتان
نفي ومن جحد ومن نكران
عجلاً ليفتن أمة الثيران
من لؤلؤ صاف ومن عقيان
كمصاب إخوتهم قديم زمان
إحداهما وبحرفه ذا الثاني

قتل هذا الخبيث مع الحارث بن سريج ضد بنى أمية .

قال ابن كثير: فقتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان، طعنه رجل في فيه فقتله .

والجزء من جنس العمل . . هذا الفم الذى أخرج زبالات الأذنان يطعن .

ويقال: بل أسر الجهم، فأوقف بين يدي سلم بن أحوز، فأمر بقتله، فقال: إن لى أماناً من أبيك، فقال: ما كان له أن يؤمنك، ولو فعل ما أمنتك، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب، وأنزلت عيسى بن مريم ما نجوت، والله لو كنت فى بطنى لشققت بطنى حتى أقتلك . وأمر ابن ميسر فقتله وفى رواية ابن جرير: وأبرأك إلى عيسى بن مريم ما نجوت .

وقال الذهبى: إن سلم بن أحوز قتل الجهم لإنكاره أن الله كلم موسى .

[٦٢] أبو مسلم الخراساني

قتل من عباد الله ما قتل وكان فاتكًا سفاحًا وقد ذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل في حروبه وما كان يتعاطاه لأجل دولة بني العباس ستمائة ألف صبرًا زيادة عن من قتل بغير ذلك .

وسئل عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيرًا من أحد ولكن كان الحجاج شرًا منه .

كتب إليه المنصور: احذر البغي أبا مسلم من بغي واعتدى تخلى الله عنه ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم واحذر أن تكون سنة في الذين خلوا من قبلك ومثله لمن يأتي بعدك .

وكتب هو إلى المنصور: إن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي وكان ضالاً فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقبل العثرة فوترت أهل الدنيا في طاعتكم وتوطئة سلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم واستنقذني بالتوبة فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفوراً وإن يعاقبني فبذنوبي وما ربك بظلام للعبيد .

وكتب إليه المنصور: أما بعد أيها المجرم العاصي إنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدكما تاركًا ولأغواهما راكبًا تقتل الفراعنة وتبطش بطش الجبابرة وتحكم بالجور حكم المفسدين وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين .

ولما أدخلوه على المنصور جعل يعاتبه في أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيداً حتى قال له: فلم قتلت سليمان بن كثير وإبراهيم بن ميمون وفلاناً وفلاناً. قال: لأنهم عصوني وخالفوا أمرى فغضب عند ذلك المنصور وقال: ويحك أنت تقتل إذا عصيت وأنا لا أقتلك وقد عصيتني؟ وصفق بيديه وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله فتبادروا إليه ليقتلوه فضربه أحدهم فقطع

حمائل سيفه فقال: يا أمير المؤمنين استبقني لأعدائك. فقال: وأى عدو أعدى لى منك؟ ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعاً ثم ألقى فى دجلة.

ويقال إن المنصور قال: الحمد لله الذى أرانا يومك يا عدو الله، وقال:

أعمت أن الدين لا يُقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم
سُقيت كأساً كنت تسقى بها أمرٌ فى الحلق من العلقم

ثم إن المنصور خطب فى الناس بعد مقتله فقال: يا أيها الناس لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر فتحل بكم النقم وإن هذا الغمر أبا مسلمة بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه فنكث وغدر وفجر فحكمتنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، وقال: فحكمتنا فيه حكم فى غيره ممن شق العصا.

[٦٣] نهاية أبى الخطاب الأسمى (١)

اسمه:

هو محمد بن أبى زينب من موالى بنى أسد بالكوفة، وكان يدعى الانتساب فى المذهب إلى أبى جعفر الصادق، فلما وقف الصادق على غلوه الباطل فى حقه تبرأ منه ولحفه، فلما اعتزل عنه ادعى الإمامة لنفسه. وقد تابعه أصحابه على ذلك وزعموا أن الأئمة أنبياء محدثون وأبا الخطاب كان نبياً.

ولذلك أنكر الجنة والنار. وقال: (الجنة نعيم الدنيا والنار آلامها) ثم استباح هو وأتباعه المحرمات وترك الفرائض وشهادة الزور.

نهايته:

بعد اطلاع عيسى بن موسى - وكان عاملاً على الكوفة للمنصور - على خبث دعوة أبى الخطاب هذا فقتله بسبخة الكوفة، وقيل صلب فى كناسة الكوفة. وأراح الناس من شره.

[٦٤] نهاية هذيل بن واسع^(١)

أيضاً هو عارض سورة الكوثر. قال ابن الجوزي (هذيل بن واسع يزعم أنه من ولد النابغة الذبياني. عارض سورة الكوثر فقال له رجل - ما قلت- فقال: «إن أعطيناك الجواهر. فصل لربك وجاهر. فما يردك إلا كل فاجر». فظهر عليه السنوي. فقتله وصلبه على العمود. فعبر عليه الرجل فقال: «إنا أعطيناك العمود^(٢). فصل لربك من قعود. بلا ركوع ولا سجود. فما أراك تعود». حقاً لقد لقي جزاءه إنه لا يعود في الدنيا إلا يوم البعث والنشور سيبعث ويحاسب. والكذب يهدى إلى الفجور. والفجور يهدى إلى النار!.

[٦٥] نهاية نوح الرشيد^(٣)

ذكر إبراهيم البيهقي في المحاسن والمساوي ص ٣٣ قال: إنه (في أيام الرشيد تنبأ رجل وزعم أنه نوح فقيل له: أنت نوح الذي كان أم نوح آخر؟ قال: أنا نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وقد بعثت إليكم لأوفى الخمسين عاماً تمام الألف سنة. فأمر الرشيد بضربه وصلبه. فمر به بعض المخنثين وهو مصلوب فقال: صلى الله عليك يا أبانا ما حصل في يدك من سفينتك إلا دقلها. وهو الذي يكون في وسط السفينة كجذع طويل).

[٦٦] نهاية بابك الخرمي^(٤)

هذا الشقي الثنوي الذي كان على دين ماني ومزدك، وكان يقول بتناسخ الأرواح، ويستحل البنت وأمها.

(١) «أدعياء النبوة الكاذبة» (٣٨).

(٢) أي: الذي صلب عليه.

(٣) «أدعياء النبوة الكاذبة» (٣٩).

(٤) انظر «الجزء من جنس العمل» (٢/ ١٨٥ : ١٨٩).

قيل: كان ولد زنا، وكانت أمه عوراء، يقال لها: رومية العلجة، وكان على بن مزدكان يدعى أنه زنى بها، وبابك منه.

وقيل: كانت صعلوكة من قرى أذربيجان، فزنى بها نبطي، فحملت منه بابك، فرُبِّي أجيراً في القرية، وكان هناك قوم من الخُرَّمية لهم كبيران: جاوندان وعمران، فتنفس جاوندان النجابة في بابك، فاكتراه من أمه، فهويته زوجة جاوندان، وأطلعتة على الأسرار، ثم قتل زوجها في محاربة لابن عمه، فزعمت أن زوجها استخلف بابك، فصدقها الجميع، فأمرهم أن يقتلوا من وجدوه في الليل، فأصبح عدة قتلى، وانضاف إليهم كل شرير وقاطع طريق، وصار أمر بابك إلى ما صار، ولقد أخاف الإسلام وأهله، وغلب على أذربيجان وغيرها، وأراد أن يقيم الملة المجوسية. وكان هذا الشقى يدعو إلى الإباحية وظهر في أيامه المازيار بالمجوسية في طبرستان وعظم البلاء، ولقد دخل مازيار في الإسلام وتسمى محمداً، وكان صاحب جبال طبرستان، ولقد أعلن العصيان بطبرستان، وطلع المعتصم.

وكان المعتصم والمأمون قد أنفقوا على حرب بابك قناطر مقنطرة من الذهب والفضة، ولقد جهز خلفاء بني العباس جيوشاً كثيرة إليه مع إفشين الحاجب، ومحمد بن يوسف الثغري، وأبى دلف العجلي وأقرانهم.

وفي سنة ٢٢٢هـ بعث المعتصم جيشه مع الإفشين، وكانت نفقات الجيش ثلاثين ألف ألف درهم، وأخذت البُدَّ مدينة بابك اللعين، واختفى في غيضة، وأسر أهله وأولاده، وقطع دابر الخُرَّمية، وبعد أن هرب أوقعه الله في يد الإفشين، وسار به الإفشين إلى المعتصم بسامرا، ولعناية المعتصم بأمر بابك وأخباره، ولفساد الطريق بالثلج وغيره، جعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة، على رأس كل فرسخ فرساً معه مَجْر مرتب؛ فكان يركض بالخبر ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد، يداً بيد؛ وكان من خلف حلوان إلى أذربيجان قد رتبوا فيه المرج، فكان يركض فيها يوماً أو يومين، ثم تبدل ويصير غيرها، ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على

رأس فرسخ، وجعل لهم ديادة على رءوس الجبال بالليل والنهار، وأمرهم أن ينعروا إذا جاءهم الخبر؛ فإذا سمع الذى يليه النعير تهباً فلا يبلغ إليه صاحبه الذى نعر حتى يقف له على الطريق، فيأخذ الخريطة منه، فجاء الخبر فى أربعة أيام وذلك مسيرة شهر. ودخل بابك إلى سامرا، فلم يصبر المعتصم حتى ركب إليه بين الحائطين، فدخل إليه متنكراً، ونظر إليه وتأمله. وأراد المعتصم أن يُشهره ويريه الناس، فقال على أى شىء يحمل هذا؟ وكيف يشهر؟ فأمر بتهيئة الفيل، وأمر به فجعل فى قباء ديباج وقلنسوة سمور مدورة، وهو وحده؛ وفى هذا قال الشاعر:

قد خُضِبَ الفيل كعادته يحملُ شيطانُ خراسان
والفيل لا تخضبُ أعضاؤه إلا لذى شأن من الشأن

واصطف الناس سماطين؛ وأدخل بابك إلى أمير المؤمنين، فأحضر جزاراً يقطع يديه ورجليه؛ ثم أمر أن يحضر سيافه، فخرج الحاجب من باب العامة؛ وهو ينادى: نودنود - وهو اسم سياف بابك - فارتفعت الصيحة بنودنود حتى حضر، فدخل دار العامة، فأمره أمير المؤمنين أن يقطع يديه ورجليه، فقطعهما فسقط، وأمر أمير المؤمنين بذبحه، وشق بطنه، ووجه برأسه إلى خراسان، وصلب بدنه بسامرا عند العقبة بموضع خشبة مشهور، وكان الإباحي بابك قد شرب الخمر ليلة قتله.

يقول ابن جرير الطبرى: كان جميع من قتل بابك فى عشرين سنة مائتى ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان، واستنقذ ممن كان فى يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة إنسان.

قال الذهبى: قيل: إنه أباد من الأمة خلائق، وبخط الإمام ابن الصلاح:

أن قتلى بابك بلغوا ألف ألف وخمسمائة ألف، وأحصى قتلى أبى مسلم الخراسانى، فبلغوا ألفى ألف.

كان للبابكية فى جبلهم ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر، وتختلط فيها رجالهم ونسأؤهم، فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال والنساء على تقدير من عز بز.

والبابكية ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم فى الجاهلية اسمه شروين، ويزعمون أن أباه كان من الزنج، وأمه من بنات ملوك الفرس، ويزعمون أن شروين كان أفضل من محمد ومن سائر الأنبياء، وقد بنوا فى جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن فيها المسلمون، وهم يعلمون أولادهم القرآن، لكنهم لا يصلون، ولا يصومون فى شهر رمضان، ولا يرون جهاد الكفرة.

ومن رحمة الله بالمؤمنين فى السنوات التى تلتها أن الفرقة الإباحية الأخرى من الحرمدينية^(١) نالها الذل والهوان فى السنوات القليلة بعد قتل بابك، فإنه لما أعلن مازيار خلع المعتصم والعصيان بطبرستان، كتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر بن الحسين يأمره بحربه، فسير إليه عمه الحسن بن الحسين، فكانت له معه حروب كثيرة، وما زال حتى أسره وحمله إلى سامرا، فضرب المازيار بالسوط حتى مات بعد أن شهر، وصلب إلى جانب بابك، وفيه يقول أبو تمام:

ولقد شفى الأحشاء من برحائها أن صار بابك جار مازيار

ثانيه فى كبد السماء، ولم يكن لاثنين ثانٍ إذ هما فى الغار

وذهب الإباحى الظالم الغاشم الجبار.

ومن العجب أن مازيار هذا قال: إن الإفشين جعل أخاه يكتب إلى مازيار بنصر الدين الأبيض دين المجوسية، وجىء به وقد ضرب إمام مسجد ومؤذن ألف سوط؛ لأنهما وثبا على بيت أصنام بأشروسته، فرميا الأصنام وعملاه مسجداً، وقال موبذ ملك السند عن الإفشين: إنه يأكل المخنوقة، ويحملنى على أكلها، ويقول: لحمها أرطب، وكان أهل مملكته من الفرس

(١) انظر «الفرق بين الفرق» (ص ٢٦٦ : ٢٦٩).

يكتبون إليه: إلى الإله من عبده، ولم يختتن، ولم يخلق عانته قط، وأراد الإفشين قتل المعتصم سماً هو وقواده بعد أن أنفق عليه المعتصم ألفى ألف دينار، فكان جزاؤه أن منع عنه الطعام حتى هلك، ثم صُلب ميتاً، وأحرق مع أصنام عنده.

يقول أبو تمام فيه:

ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه حتى اصطفى سرُّ الزناد الواري

[٦٧] نهاية الضيعة صاحب الزنج (١)

المدعى أنه طالبى وهو كاذب. دخل جيشه البصرة سنة ٢٥٧هـ، فقتل من أهلها خلقاً، وأحرق الزنج جامع البصرة ودوراً كثيرة وانتهبوها، ثم نادى فيهم إبراهيم بن المهلبى أحد أصحاب الزنجى: من أراد الأمان فليحضر، فاجتمع عنده خلق كثير من أهل البصرة، فرأى أنه قد أصاب فرصة فغدر بهم، وأمر بقتلهم، فلم يفلت منهم إلا الشاذ. كانت الزنج تحيط بجماعة من أهل البصرة، ثم يقول بعضهم لبعض: كيلوا -وهى الإشارة بينهم إلى القتل- فيحملون عليهم بالسيوف فلا يسمع إلا تشهدهم، وضجيجهم وهم يقتلون؛ أى صراخ الزنج وضحكهم، فإننا لله وإنا إليه راجعون، وهكذا كانوا يفعلون فى كل محال بالبصرة فى عدة أيام نحسات، وهرب الناس منهم كل مهرب، وحرقوا الكلاً من الجبل إلى الجبل، فكانت النار تحرق ما وجدت من شىء من إنسان أو بهيمة أو آثار أو غير ذلك، وأحرقوا المسجد الجامع، وقتلوا جماعة كثيرة من الأعيان والمحدثين والعلماء.

روى ابن جرير عن سمعه يقول: دعوت الله على أهل البصرة، فخطبت، فقيل: إنما أهل البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغبة خربت البصرة، فأولت الرغبة القمر وانكساره انكسافه، وقد أنا شائعاً فى أصحابه حتى وقع الأمر طبق ما أخبر به.

راء من جنس العمل» (١٨٢/٢ : ١٨٥).

قال ابن كثير:

ولاشك أن هذا كان معه شيطان يخاطبه، كما كان يأتي الشيطان مسيلمة وغيره. قال: ولما وقع من الزنج بأهل البصرة ما وقع، قال هذا الخبيث لمن معه: إني صبيحة ذلك دعوت الله على أهل البصرة، فرفعت لى البصرة بين السماء والأرض، ورأيت أهلها يقتلون، ورأيت الملائكة تقابل مع أصحابي، وإني لمنصور على الناس، والملائكة تقاتل معي، وتثبت جيوشي، ويؤيدوني في حروبي.

وبعد أن عاث في الأرض فساداً وقتل من قتل، كتب إليه ولي عهد المسلمين الموفق أخو الخليفة المعتمد. ودعاه إلى الحق، فلم يجبه استهانة به، فركب إليه من فوره في جيوش عظيمة، قريب من خمسين ألف مقاتل، قاصداً إلى المختارة مدينة صاحب الزنج، وجرت بينهم حروب عظيمة، وما زالت الحروب ناشبة حتى انسلخت السنة وهم محاصرون للخبيث صاحب الزنج، وظفر الموفق ببهبوذ بن عبد الله فقتله، وكان ذلك من أكبر الفتح عند المسلمين، وأعظم الرزايا عن الزنج وخرب الموفق بالله مدينة صاحب الزنج، واحتاز ما كان بها من الأموال، وقتل من كان بها من الرجال، وسبى من وجد فيها من النساء والأطفال، ولما فر الخبيث وتحصن ببلدة أخرى أخرجه منها ذليلاً، ثم بعث السرايا والجيوش وراء صاحب الزنج، فأسروا عامة من كان معه من خاصته وجماعته، منهم سليمان بن جامع، فاستبشر الناس بأسره، وكبروا الله وحمدوه فرحاً بالنصر والفتح وحمل الموفق بمن معه حملة واحدة على أصحاب الخبيث، فاستحر فيهم القتل، وما أنجلت الحرب حتى جاء البشير بقتل صاحب الزنج، وأتى برأسه مع غلام لؤلؤة الطولوني، فلما تحقق الموفق أنه رأسه بعد شهادة الأمراء الذين كانوا معه من أصحابه خر ساجداً لله، وسجد ابن الموفق وقواده، ومواليه سجدوا شكراً لله، وأكثروا حمد الله والثناء عليه، وأمر الموفق برفع رأس الخبيث من قناة، ونصبه بين يديه، فتأمله الناس، وعرفوا صحة الخبر، فارتفعت أصواتهم بالحمد لله. وكان يوماً مشهوداً، وفرح المسلمون بذلك في المغرب والمشرق، وحمدوا الله

بانكلانى وأبان بن على المهلبى مسعر حربهم مأسورين، ومعهما قريب من خمسة آلاف أسير، فتم السرور.

وسار الموفق إلى بغداد، وقدم ولده أبا العباس بين يديه، ومعه رأس الخبيث يحمل ليراه الناس وكان يوماً مشهوداً، وانتهت أيام صاحب الزنج المدعى الكذاب قبحه الله، والشعراء فيما كان من أمر الموفق، وأمر المخذول أشعار كثيرة منها:

أين نجوم الكاذب المارق ما كان بالطَّبِّ ولا الحاذق
صبحه بالنحس سعدُ بدا لسيد في قوله صادق
وذاق من كأس الردى شربةً كرهةً الطعام على الذائق
وقال آخر:

يهوى إلى حر الجحيم وقعرها بسلاسل قد أوهنته ثقال
هذا بما كسبت يدها وما جنى وبما أتى من سيئ الأعمال

[٦٨] محمد عبد الملك الزيات أحد الذين سجنوا الإمام أحمد (١)

كان من العصبة التي كان لها يد في سجن علماء الأمة وتعذيبهم، وعلى رأسهم إمام أهل السنة.

روى الطبرى في تاريخه عنه:

أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد قيام، فذكر عن ابن أبى دؤاد وأبى الوزير أنهما قالوا: هو أول من أمر بعمل ذلك، فعذب به ابن أسباط المصرى حتى استخرج منه جميع ما عنده، ثم ابتلى به فعذب به أياماً.

وقال الذهبى فى ترجمته:

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٩٥).
سير أعلام النبلاء (١١/١٧٣).

وكان يقول بخلق القرآن، ويقول: ما رحمت أحداً قط، الرحمة خور في الطبع، فسجن في قفص حرج، جهاته مسامير كالمسال، فكان يصيح ارحموني، فيقولون: الرحمة خور في الطبيعة.

[٦٩] عاقبة ابن هاني الشاعر (١)

أحد الشعراء الفجرة، وشاعر المعز العبيدي الفاطمي.

كان يقول للمعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وقال له أيضاً:

ندعوه منتقماً عزيزاً قادراً غفار موبقة الذنوب
وقال فيه أيضاً:

رأيتك من ترزقه يرزق من الوري دراكاً ومن تحرم من الناس يحرم
وقال فيه أيضاً:

أدار كما شاء الوري وتحيزت على السبعة الأفلاك أئمله العشر
وقال في هذا القزم أيضاً:

أرى مدحه كالمدح لله إنه قنوت وتسبيح يحط من الوزر
وقال أيضاً، قبحه الله وأخزاه:

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريل

ومن ذلك قوله: قال ابن الأثير ولم أرها في شعره ولا في ديوانه:
حل بر قيادة المسيح حل بهها آدم ونوح
حل بهها الله ذو العالی فكل شيء سواء ریح

(١) البداية والنهاية (١١/٢٩٢)، «الجزء من جنس العمل» (١/٣٥٢).

فهل أغنى عنه المعز؟

قال ابن كثير: استصحبه المعز الفاطمي من بلاد القيروان حين توجه إلى مصر، فمات ببعض الطريق، وجد مقتولاً على حافة البحر في رجب سنة ٣٦٢هـ.

ومما قيل في محمد بن هاني أيضاً:

خرج من القصر فأصيب بمرض، فكان يعوى كالكلب على فراشه، ويقول: أنت الواحد القهار، وأخذ يبكي ويقول:

أبعين مفتقر إليك نظرت لي فأهنتني وقذفتني من حالق
لست المألوم أن المألوم لأنسى علقت آمالي بغير الخالق
من آثر غير الله عذب به... غضب عليه المعز... وقتل في النهاية.

[٧٠] نهاية علي بن الفضل الحميري (١)

اسمه:

علي بن الفضل بن أحمد الخنفرى الحميرى.

حياته:

سار ليحج ثم ليزور قبر الحسين بكرلاء والتقى هناك بجد الفاطميين عبيد الله بن ميمون القداح، فتفرس فيه الذكاء والنبوغ فانتدبه للقيام بالدعوة وأمره بالعودة إلى اليمن.

وبعد وصوله اليمن أظهر التنسك والعبادة وكان الناس يطلبون منه الدعاء ويرون فيه الرجل الصالح، ولما كثر أتباعه أعلن التمرد واستولى على أجزاء كثيرة من اليمن، وصل بعدها إلى زيد وصنعاء وهناك أعلن مذهبه ومعتقدة السبيء وبعد أن دخل صنعاء صعد المنبر وقال قصيدته المشهورة التي صرح فيها بدعوى النبوة وهي هذه:

(١) «المتنبئون نشأتهم وأصولهم».

خذى الدف يا هذه واضربى
وغنى هزارك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم
وجاء نبى بنى يعرب
أحل البنات مع الأمهات
ومن فضله زاد حل الصبى
لكل نبى مضى شرعة
وهذى شريعة هذا النبى

إلى آخر ما جاء فى القصيدة التى أعلن فيها كفره وإلحاده، ثم يتبجح بالرسالة والاتصال بالله عز وجل حتى كان مؤذنه يقول فى أذانه أشهد أن على ابن الفضل رسول الله .

نهايته:

بعد عناء طويل عاشه أهل اليمن فى عهد هذا الطاغية الدجال جاء الخلاص على يد أحد الأطباء عام ٣٠٣ هـ فأراح الله منه البلاد والعباد .

[٧١] نهاية أبى العلاء المعرى لا رحمه الله (١)

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان سُمى نفسه: رهين المَحْبَسِينَ .

قال ابن الجوزى: وأما أبو العلاء المعرى فأشعاره ظاهرة الإلحاد، وكان يبالغ فى عداوة الأنبياء، ولم يزل متخبطاً فى تعشيره، خائفاً من القتل إلى أن مات بخسرانه .

وكل صاحب فرية ذليل جزاءً وفاقاً، أعثر الناس، وأخسأهم قدرًا، وأردأهم عيشًا .

قال ابن كثير:

أبو العلاء المعرى التنوخى الشاعر المشهور بالزندقة، دخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، فأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم خرج منها طريدًا منهزمًا، لأنه سأل سؤال بشعر يدل على قلة دينه وعلمه وعقله، فقال:

(١) «الجزء» (٣٩٠ : ٤٠١) .

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار
يدٌ بخمس مئين عسجدٍ وُديت
ما بالها قطعت في رُبْع دينار
وهذا من إفكه، وهذا من قلة عقله وعلمه، وعمى بصيرته، ولهذا قال بعضهم: كانت ثمينة لما كانت أمينة، فلما خانت هانت.

ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثاله هرب ورجع إلى بلده، ولزم منزله فكان لا يخرج منه.

وقد كان ذكياً ولم يكن زكياً، وفي بعض أشعاره ما يدل على زندقته، وانحلاله من الدين، ومن الناس من يعتذر عنه ويقول: إنه كان يقول ذلك مجوناً ولعباً، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، وقد كان باطنه مسلماً. قال ابن عقيل لما بلغه: وما الذى أُلجأه أن يقول في دار الإسلام ما يكفره به الناس؟ والمنافقون مع قلة عقلهم وعلمهم أجود سياسة منه، لأنهم حافظوا على قبائحهم في الدنيا وستروها، وهذا أظهر الكفر الذى تسلط عليه به الناس وزندقوه، والله يعلم أن ظاهره كباطنه.

قال ابن الجوزى: وقد رأيت لأبى العلاء المعرى كتاباً سماه: الفصول والغايات، فى معارضة السور والآيات، على حروف المعجم فى آخر كلماته، وهو فى غاية الركافة والبرودة، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته، ثم أورد ابن الجوزى من أشعاره الدالة على استهتاره بدين الله أشياء كثيرة.

فمن ذلك قوله:

إن كان لا يحظى برزقك عاقل
وترزق مجنوناً وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرئ
رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا

وقوله:

ألا إن البرية فى ضلال
وقد نظر اللبيب لما اعتراما
تقدم صاحب التوراة موسى
وأوقع فى الخسار من اقتراها
فقال رجاله: وحى أتاه
وقال الناظرون: بل افتراها

وما حجى إلى أحجار بيت
إذا رجع الحليم إلى حجائه

وقوله :

هفت الخيفة والنصارى ما اهدت
اثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا

وقوله :

فلا تحسب مقال الرسل حقاً
وكان الناس فى عيش رغيد

وقلت أنا معارضة عليه :

فلا تحسب مقال الرسل زورا
وكان الناس فى جهل عظيم

وقوله :

إن الشرائع ألفت بيننا إحنا
وهل أبيض نساء الروم عن عرض

وقوله :

وما حمدى لأدم أو بنيه

وقوله :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما

وقوله :

صرف الزمان مفرق الإلفين
ونهيته عن قتل النفوس تعمداً
وزعمت أن لها معاداً ثانياً

كؤوس الحمر تشرف فى ذراها
تهاون بالمذاهب وازدراها

ويهود جارت والمجوس مزلله
دين وآخر دين لا عقل له

ولكن قول زور سطره
فجاءوا بالمحال فكدره

ولكن قول حق بلغوه
فجاءوا بالبيان فأوضحوه

وأورثتنا أفانين العداوات
للعرب إلا بأحكام النبوات

وأشهد أن كلهم خسيس

دياناتكم مكرماً من القديما

فاحكم إلهى بين ذاك وبينى
وبعثت تقبضها مع الملكين
ما كان أغناها عن الحالين

وقوله :

ضحكنا وكان الضحكُ منا سفاهةً
تخطمنا الأيامُ حتى كأننا
وَحَقٌّ لِسُكَّانِ البِسيطةِ أنْ يبكوا
زجاجٍ ولكن لا يعودُ له سبْكُ

وقوله :

أُمُورٌ تَسْتَخَفُّ بِهَا حُلُومٌ
كِتَابٌ مُحَمَّدٍ وَكِتَابُ مُوسَى
وما يدري الفتى لمن الثبورُ^(١)
وإنجيل ابن مريم والزبور

وقوله :

قالت معاشر لم يبعث إلهكمُ
وإنما جعلوا الرحمن مأكلةً
إلى البرية عيساها ولا موسى
وصيروا دينهم في الناس ناموسا

وذكر ابن الجوزي وغيره أشياء كثيرة تدل على كفره، بل كل واحدة من هذه الأشياء تدل على كفره، وزندقته وانحلاله، ويقال: إنه أوصى أن يكتب على قبره.

هذا جناه أباي عليٌّ وما جنيتُ عليَّ أحد

معناه أن أباه بتزوجه لأمه أوقعه في هذه الدار، حتى صار بسبب ذلك إلى ما إليه صار، وهو لم يجن علي أحد بهذه الجناية، وهذا كله كفر وإلحاد، قبحه الله، وقد زعم بعضهم أنه أقلع عن هذا كله وتاب منه، وأنه قال قصيدة يعتذر فيها من ذلك كله، ويتنصل منه، وهي القصيدة التي يقول فيها:

يا من يرى مد البعوض جناحها
ويرى نياط عروقها في نحرها
ففي ظلمة الليل البهيم الأليل^(٢)
والمخ في تلك العظام النحل
ما كان مني في الزمان الأول
أمن علي بتوبة تمحو بها

وأُنشدت عند قبره ثمانون مرثاة حتى قال بعضهم في مرثاة له:

(١) أي: الهلاك.

(٢) أي: كثير الظلمة.

إن كنت لم تُرقُ الدماء زهادة فلقد أُرقت اليوم من جفني دما

قال ابن الجوزي: وهؤلاء الذين رثوه والذين اعتقدوه: إما جهال بأمره، وإما ضلّال على مذهبه وطريقه.

وقد رأى بعضهم في النوم رجلاً ضريراً على عاتقه حيتان مدليتان على صدره، رافعتان رأسيهما إليه، وهما ينهشان لحمه، وهو يستغيث، وقائل يقول: هذا المعري الضرير^(١) الملحد.

وذكر ابن خلكان أنه أوصى أن يكتب على قبره:
هذا جناه أبي علي..

قال ابن خلكان: وهذا أيضاً باعتقاد الحكماء، فإنهم يقولون اتخاذ الولد وإخراجه إلى هذا الوجود جناية عليه، لأنه يتعرض للحوادث والآفات. قلت: وهذا يدل على أنه لم يتغير عن اعتقاده، وهو ما يعتقد الحكماء إلى آخر وقت، وأنه لم يقلع عن ذلك كما ذكره بعضهم، والله أعلم بظواهر الأمور وبواطنها. اهـ.

يقول عنه الذهبي: أبو العلاء، شيخ الآداب، اللغوي الشاعر، صاحب التصانيف السائرة، والمتهم في نحلته.

ومن أردأ تواليقه: رسالة الغفران. في مجلد، وقد احتوت على مزدكة وفراغ، ورسالة الملائكة، ورسالة الطير على ذلك الأتمودج.

قال الباخريزي: أبو العلاء ضريير ما له ضريب، ومكفوف في قميص الفضل ملفوف، ومحجوب خصمه الألد محجوج، قد طال في ظل الإسلام آناؤه، ورشح بالإلحاد إناءه، وعندنا خبر بصره، والله العالم ببصيرته، والمطلع على سريرته، وإنما تحدثت الألسن بإساءته، بكتابه الذي عارض به القرآن، وعنوانه بـ: الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات.

(١) رواه أبو غالب بن نبهان وهو من أهل الخير والفقہ. انظر «سير أعلام النبلاء» (١٨/٣٤).

وقال غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن: له شعر كثير، وأدب غزير، ويرمى بالإلحاد، وأشعاره دالة على ما يُزنُّ به (١).

ويظهر الصوم دائماً، قال: ونحن نذكر مما رمى به فمناه:

قران المُشترى زُحلاً يُرجى
تقضى الناس جيلاً بعد جيل
تقدم صاحب التوراة موسى
وما حجى إلى أحجار بيت
إذا رجع الحكيم إلى حجاب
تهـاون بالمذاهب وازدراها

ومنه:

قلتم لنا خالق قديم
زعمتموه بلا زمان
هذا كلامٌ له خبيءٌ
صدقتُم هكذا نقولُ
ولا مكان ألافقـولوا
معناه ليست لكم عقول

ومنه:

دينٌ وكفرٌ وأنباءٌ تقال وفُر
في كل جيل أباطيلٌ يدان بها
فأجبتة:

نعم أبو القاسم الهادي وأمته
فزادك الله ذلاً يا دُجيجيلُ

ومنه:

وإنما حمل التوراة قارئها
وهل أبيضت نساء الروم عن
كسبُ الفوائد لا حبُّ التلاوات
عُرُضٌ للعُربِ إلا بأحكام النبوات

(١) أى: ما يتهم به.

وعن التبريزي: قال: لَمَّا قرأت على أبي العلاء:

تناقض ما لنا إلا السكوتُ له وأن تعمود بمولانا من النار
يد بخمس مئة^(١) من عسجدٍ وُدِيت ما بالها قُطعتُ في ربع دينار

سألتُهُ، فقال: هذا كقول الفقهاء: عبادة لا يعقل معناها.

قال كاتبه: لو أراد ذلك؛ لقال: تعبدٌ، ولما قال: تناقض، ولما أردفه
ببيت آخر يعترض على ربه.

وياسنادي قال السلفي: إن كان قال معتقداً معناها، فالنار مأواه، وليس
له في الإسلام نصيب، هذا إلى ما يُحكى عنه في كتاب: الفصول والغايات،
ف قيل له: أين هذا من القرآن؟ فقال: لم تصقله المحارِبُ أربعمئة سنة.

قال الذهبي: ويظهر لى من حال هذا المخذول أنه متحير، لم يجزم
بنحلة، اللهم فاحفظ علينا إيماننا.

قال الذهبي: قد طال المقال، وما على الرجل أنسُ زهاد المؤمنين، والله
أعلم بما ختم له. ومن حيث قوله.

أتى عيسى فبطل شرع موسى وجاء محمدٌ بصلاة خمس
وقالوا لاني بعد هذا فضل الناس بين غد وأمس
ومهما عشت من دنياك هذى فما تُخيلك من قمرٍ وشمس
إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت همسي

قال طه حسين في تجديد ذكرى أبي العلاء:

أبو العلاء كان منكراً للنبوات، جاحداً لصحتها، وقد نص على ذلك
في اللزوميات صراحة غير مرة، فطوراً يثبت أنها زور، وطوراً يجعلها مصدر
الشرور، وافتن في ذلك افتناناً عجيباً، فلم يكتف بإنكار النبوات، حتى أنكر
الديانات عامة.

(١) من جموع المئة.

ويقول فى التعريض بالإسلام خاصة:

تلوا باطلاً وجلوا صارماً وقالوا صدقنا فقلنا نعم

ويقول فى التعريض بالنبي - ﷺ -:

ولست أقول إن الشهب يوماً لبعث محمد جعلت رجوماً

ويقول فى ذلك معرضاً بقصة خير:

ومحمد وهو المنبأ يشتكى لكان أكلته انقطاع الأبهـر

ويقول:

وإذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتبوه

لا يدينون بالعقول ولكن

بأباطيل زخرف كذبوه

ويقول:

بنت النصارى للمسيح كنائساً كادت تعيبُ الفعل من متابها

ومتى ذكرت محمداً وكتابه

جاءت يهودٌ بجحدها وكتابها

وانظر إلى السخرية فى قوله:

أنملةُ الإسلام ينكر منكرٌ وقضاء ربك صاغها وأتى بها

ويقول:

غدا أهل الشرائع فى اختلاف تُقضُّ به المضاجع والمهود

فقد كذبت على عيسى النصارى

كما كذبت على موسى اليهود

وانظر إلى تعريضه بالإسلام:

ولم تستحدث الأيام خلقاً ولا حالت من الزمن العهود

ومثل هذا كثير منبث فى اللزوميات، لم نشأ أن نسرف فى روايته اتقاء

الإطالة، وخشية الإملال، وهو يدل على أن روح الرجل لم يكن روح مؤمن

بالنبوات، ولا مصدقٍ للأنبياء.

وقال أيضاً:

وقال في إنكار ما في القرآن من تقسيم فرائض الميراث:

حيران أنت فأى الناس تتبع تجرى الحظوظ وكل جاهل طبع
والأم بالسدس عادت وهى أرأف من بنت لها النصف أو عرس لها الربع

وقد أجمع المؤرخون على أن أبا العلاء، عارض القرآن بكتاب سماه: الفصول والغايات في محاكاة السور والآيات. وأبو العلاء نفسه لم ينكر هذا الكتاب، بل أثبتته في ثبته، الذى رواه القفطى والذهبي، والناس يكفرون أبا العلاء بهذا الكتاب، وبما في رسالة الغفران من سخرية، وبما في اللزوميات من إنكار النبوات.

أما موقفه من البعث:

فيقول طه حسين: اضطرب رأى أبى العلاء فى البعث اضطراباً شديداً، فمرة أثبتته، فقال:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تُحشر الأجسام قلت إليكما
إن كان رأيكما فليست بخاسرٍ أو صح قولى فالخسار عليكما

وتارة ينكره نصاً، بل نفاه أكثر من ستين مرة فى اللزوميات، ومن أشنع قوله فى ذلك:

وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الحالين

وتارة يقف فى أمر البعث موقف الشك فيقول:

يا مرحباً بالموت من مُتنظرٍ إن كان ثم تعارفٍ وتلاقٍ

الجن والملائكة:

قال طه حسين: أبو العلاء أنكر الجن والملائكة فى اللزوميات نصاً

فقال:

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به
حساً يحسن لجنى ولا ملك
وقال:

فاخش الملك ولا توجد علي رهب
إن أنت بالجن في الظلماء خُشيتاً
فإنما تلك أخبار ملفقة
لخُدعة الغافل الحسوى حوشيتا

ورسالة الغفران مملوءة بالسخرية المؤلمة من الجن والملائكة جميعاً، وقد نظم الشعر في رسالة الغفران على ألسنة الجن الذين دخلوا الجنة، فقال - وإنما يريد الهزء والسخرية-:

مكة أقوت من بنى الدردبيس
فما لجنى بها من حسيس
أصل الإنسان:

شك في أصل الإنسان فقال:

جائز أن يكون آدم هذا
ثم جزم بذلك فقال:

وما آدم في مذهب العقل واحدٌ
ولكنه عند القياس أوادم

وتمنى أبو العلاء لو أن الإنسان لم يوجد؛ لأنه شرير مفسد في الأرض
فقال:

يا ليتت آدم كان طلق أمهم
ولدتهم في غير طهر عاركا
أو كان حرمها عليه ظهارٌ
فلذلك تفقد فيهم الأظهارُ

وهو لا يفرق في حكم العقل بين ابن الحرة وابن الزانية فيقول:

وسيان من أمه حرة
حصانٌ ومن أمه زانية
ويقول:

ماميز الأطفال في أشباحها
للعين حل ولادة وظهارُ

وبالغ أبو العلاء فى كره الوجود حتى استحسّن من وأد البنات ما حرّمه

الله :

وذفنٌ والحوادث فاجعات لإحداهن إحدى المكرمات

واستحسن غير مرة تحريق الهند موتاهم وأحبه، وفى ذلك يقول :

فأعجب لتحريق أهل الهند ميتهم
وذاك أروح من طول التباريح
إن حرقوا فما يخشون من ضبع
تسرى إليه ولا خفى وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا
غبا وأذهب للنكراء والريح

وذهب المعرى إلى تحريم أكل الحيوان وما يخرج منه فمن ذلك قوله :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج البحر ظالمًا
ولا تبغ قوتنا من غريض الذبائح
ولا يبض أمات أرادت صريحه
لأطفالها دون الغوانى الصرائح
ولا تفجعن الطير وهى غوافل
بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له
كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها
ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدى من كل هذا فليتنى
أبهت لشانى قبل شيب المسائح

وجازاه الله بنحلته، وبما قال عن ملته بحبس الدنيا قبل الآخرة، فحبسه

فى جسده، وهذا أشد الحبس .

واللفظ الذى اختاره لنفسه، وكان يحب أن ينادى به رهين المحبسين وإنما أراد بالمحبسين منزله الذى احتجب فيه، وذهب بصره، على أنه ذكر لنفسه فى اللزوميات سجوتًا ثلاثة: أحدها منزله، والآخر ذهاب بصره، والثالث: جسمه المادى الذى احتبست فيه نفسه أيام الحياة، وذلك حيث يقول :

أرأنى فى الثلاثة من سجوتى فلا تسأل عن الخبر النبىث

لفقدى ناظرى ولزوم بيئى وكون النفس فى الجسم الخبيث
فهذه صورة الأديب الفيلسوف الذى خُدع الناس به طويلاً، الذى أنكر
النبوت، عرض بالتكليف، وعارض القرآن، وهزى بشيء من أحكامه:
سيسأل قوم ما الحجيج ومكة كما قال قوم ما جديس وما طسم
هذا الذى رأى التقية:
لا تخبرن بكنه^(١) دينك معشراً شُطراً وإن تفعل فأنت مُغررٌ
وقال:

فاكتم حديثك لا يشعر به أحدٌ من رهط جبريل أو من رهط إبليس
لقد حبس فى جسده ذليلاً فى دار الدنيا، والله الموعد، وكيفيك أنه
رأى أن من الظلم أن يضاف إلى التصعيد والعلو، وإنما العدل أن يضاف إلى
السقوط والهبوط، وبها نطق جزاءً وفاقاً، فقال:
دُعيت أبا العلاء وذاك مِينٌ ولكن الصحيح أبا النزول

[٧٢] نهاية ابن الراوندى الزنديق^(٢)

قال ابن الجوزى: كم من زنديق فى قلبه حقد على الإسلام، خرج
فبالغ، واجتهد فزخرف دعاوى يلقي بها من يصحبه، وكان غور مقصده فى
الاعتقاد الانسلاخ من الدين، وفى العمل نيل الملذات، واستباحة
المحظورات.

ومنهم من لم يبرح على تعشيره، ففاته الدنيا والآخرة، مثل ابن
الراوندى، والمعري.

(١) كنه الشيء: حقيقته.

(٢) «الجزء» (١/٣٨٦ : ٣٨٩).

عن التنوخي قال: كان ابن الراوندي ملازم الراضية، وأهل الإلحاد، فإذا عوتب قال: إنما أريد أن أعرف مذاهبهم، ثم كاشف وناظر.

قال ابن الجوزي: من تأمل حال ابن الراوندي وجدته من كبار الملحدة، وصنّف كتاباً سماه: الدماغ. زعم أنه يدمغ به هذه الشريعة، فسبحان من دماغه، فأخذه وهو في شرح الشباب.

وكان يعترض على القرآن، ويدعى عليه التناقض وعدم الفصاحة، وهو يعلم أن فصحاء العرب تحيرت عند سماعه، فكيف بالألكن.

قال ابن كثير:

أحد مشاهير الزندقة، كان أبوه يهودياً، فأظهر الإسلام، ويقال: إنه حرّف التوراة، كما عادى ابنه القرآن بالقرآن، وألحد فيه، وصنّف كتاباً في الرد على القرآن سماه: الدماغ. وكتاباً في الرد على الشريعة، والاعتراض عليها سماه: الزمردة، وكتاباً يقال له: التاج في معنى ذلك.

قال الجبائي: قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفیه ابن الراوندي، فلم أجد فيه إلا السفه والكذب والافتراء، قال: وقد وضع كتاباً في قدم العالم، ونفى الصانع، وتصحيح مذهب الدهرية، والرد على أهل التوحيد، ووضع كتاباً في الرد على محمد رسول الله - ﷺ - في سبعة عشر موضعاً، ونسبه إلى الكذب - يعنى: النبي - ﷺ - وطعن على القرآن، ووضع كتاباً لليهود والنصارى، وفضل دينهم على المسلمين والإسلام، يحتج لهم فيها على إبطال نبوة محمد - ﷺ - إلى غير ذلك من الكتب التي تبين خروجه عن الإسلام. نقل ذلك ابن الجوزي عنه.

وقد أورد ابن الجوزي في منتظمه طرفاً من كلامه وزندقته، وطعنه على الآيات والشريعة، وردّ عليه في ذلك، وهو أقل وأخسّ وأذلّ من أن يلتفت إليه، وإلى جهله وكلامه وهذيانه وسفهه وتمويهه. وقد أسند إليه حكايات من المسخرة والاستهتار والكفر والكبائر، منها ما هو صحيح عنه، ومنها ما هو مفتعل عليه ممن هو مثله، وعلى طريقه ومسلّكه في الكفر والتستر في

المسخرة، يخرجونها في قوالب مسخرة، وقلوبهم مشحونة بالكفر والزندقة، وهذا كثير موجود فيمن يدعى الإسلام وهو منافق، يتمسحرون بالرسول ودينه وكتابه، وهؤلاء ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (١) الآية .

وقد كان أبو عيسى الوراق مصاحباً لابن الراوندى -قبّحهما الله- فلما علم الناس بأمرهما طلب السلطان أبا عيسى، فأودع السجن حتى مات، وأما ابن الراوندى فلجأ إلى ابن لاوى اليهودي، وصنف له في مدة مقامه عنده كتابه الذى سماه: الدماغ للقرآن. فلم يلبث بعده إلا أياماً يسيرة حتى مات - لعنه الله- ويقال: إنه أخذ وصلب .

قال أبو الوفاء بن عقيل: ورأيت فى كتاب محقق أنه عاش سنّاً وثلاثين سنة، مع ما انتهى إليه من التوغل فى المخازى فى هذا العمر القصير، لعنه الله، وقبحه، ولا رحم عظامه .

قال الذهبى عنه: الملحد، عدو الدين، الرويندى، صاحب التصانيف فى الحط على الملة .

قال ابن الجوزى: كنت أسمع عنه بالعظام، حتى رأيت له ما لم يخطر على قلب، ورأيت له كتاب: نعت الحكمة . وكتاب: قضيب الذهب، وكتاب: الزمردة، وكتاب: الدماغ الذى نقضه عليه الجبائى، ونقض عبد الرحمن بن محمد الحياط عليه كتاب الزمردة .

قال ابن عقيل: عجبى كيف لم يقتل؟! وقد صنف الدماغ يدمغ به القرآن، والزمردة يزرى فيه على النبوات .

قال ابن الجوزى عن الزمردة: فيه هذيان بارد، لا يتعلق بشبهة! .

يقول فيه: إن كلام أكثر من صيفى فيه ما هو أحسن من سورة الكوثر! وإن الأنبياء وقعوا بطلاسم . وألف لليهود والنصارى يحتج لهم فى إبطال نبوة سيد البشر .

(١) سورة التوبة: ٦٥، ٦٦ .

قال أبو العباس بن القاصن الفقيه: كان ابن الراوندى لا يستقر على مذهب ولا نحلة، حتى صنف لليهود كتاب النصره على المسلمين لدرهم أعطيها من يهود. فلما أخذ المال، رام نقضها، فأعطوه مئتي درهم حتى سكت.

قال فى بعض المعجزات: يقول المنجم كهذا.

وقال: فى القرآن لحن.

وقال: يقولون: لا يأتى أحد بمثل القرآن. فهذا إقليدس لا يأتى أحد بمثله، وكذلك بطليموس. قيل: إنه اختلف إلى المبرد فقال المبرد: لو اختلف إلى سنة لا حتجت أن أقوم وأجلسه مكاني.

لعن الله الذكاء بلا إيمان، ورضى الله عن البلادة مع التقوى فكان جزاء الزنديق من جنس عمله، ودمغه الله ولم يمهله بعد ما ألف الدماغ جزاءً وفاقاً.

[٧٣] عاقبة أحمد بن أبي دؤاد (١)

المعتزلى قاضى المعتصم؛ الذى جرّ البلاد إلى محنة خلق القرآن، وبسببه أهين علماء الأمة وعذبوا وسجنوا وقتلوا.

يقول الشاعر أبو حجاج الأعرابى فيه:

نكست الدين يابن أبى دؤاد	فأصبح من أطاعك فى ارتداد
زعمت كلام ربك كان خلقا	أمالك عند ربك من معاد
كلام الله أنزله بعلم	على جبريل إلى خير العباد
ومن أمسى يبابك مستفيضاً	كمن حلّ الفلاة بغير زاد
لقد أظرفت يابن أبى دؤاد	بقولك إننى رجل إيدى

(١) سير أعلام النبلاء (١١/١٧٠-١٧١)، البداية والنهاية (١٠/٣٣٥-٣٣٦) «الجزء من جنس العمل» (١/٣٥٣).

هذا الذى تكلم فى عقيدة أهل السنة وشانها، وتكلم فى أحمد بن حنبل وعاب معتقده .

بسبب ابن أبى دؤاد هذا قتل أحمد بن نصر الخزاعى وسجن الإمام أحمد وعذب بالسياط، ودعا عليه الإمام أحمد؛ فحبسه الله فى جسده كما حبس الإمام، ودخل عليه وعاده عبد العزيز الكنانى، وقال له: لم آتكَ عائداً، بل لأحمد الله أن سجنك فى جلدك .

قال ابن كثير: ابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقى طريحاً فى فراشه، لا يستطيع أن يحرك شيئاً من جسده، وحرّم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك. جعل نصف جسده لو سقط عليه ذباب فكأنما نهشته السباع، والنصف الآخر لو نهشته السباع لم يحس بها .

وقد دخل عليه بعضهم قال: والله ما جئتكَ عائداً، وإنما جئتكَ لأعزيك فى نفسك وأحمد الله الذى سجنك فى جسّدك الذى هو أشد عليك عقوبة من كلّ سجن، ثم خرج عنه داعياً عليه بأن يزيده الله ولا ينقصه مما هو فيه، فازداد مرضاً إلى مرضه . وقد صودر فى العام الماضى سنة ٢٣٨ بأموال جزيلة جداً، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل . وكذا ابنه أبو الوليد محمد، صودر بألف دينار ومائتى ألف دينار ومات قبل أبيه بشهر .

فى يوم السبت، لثلاث خلون من ربيع الآخر، وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعشرين ألف دينار . ومن الجواهر النفيسة ما يقوم بعشرين ألف دينار، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم، ثم نفى أهله من سامرا إلى بغداد مهانين، قال ابن جرير: فقال فى ذلك أبو العتاهية:

لو كنت فى رأى منسوباً إلى رشد	وكان عزمك عزماً فيه توفيق
لكان فى الفقه شغل لو قنعت به	عن أن تقول كتاب الله مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم	ما كان فى الفرع لولا الجهل والموق

انظر كيف أدله الله وحبسه فى جسده، وأهين قبل موته

[٧٤] من رأى فلا يظلمن أحداً^(١)

«مما حكى»:

قال بعضهم: رأيت رجلاً مقطوع اليد من الكتف وهو ينادى: من رأى فلا يظلمن أحداً. فتقدمت إليه فقلت له: يا أخى ما قصتك؟ قال: يا أخى قصتى عجيبة وذلك أنى كنت من أعوان الظلمة فرأيت يوماً صياداً وقد اصطاد سمكة كبيرة فأعجبتنى، فجئت إليه فقلت: أعطنى هذه السمكة؛ فقال: لا أعطيها أنا أخذ بثمانها قوتاً ليعالى، فضربته وأخذتها منه قهراً، ومضيت بها - قال: فبينما أنا أمشى بها حاملها إذا عضت على إبهامى عضه قوية فلما جئت بها إلى بيتى وألقيتها من يدي ضربت على إبهامى وآلمتني ألماً شديداً حتى لم أتم من شدة الوجع والألم وورمت يدي، فلما أصبحت أتيت الطبيب وشكوت إليه الألم فقال: هذه بدء الأكلة^(٢)!! اقطعها وإلا تقطع يدك، فقطعت إبهامى ثم ضربت على يدي فلم أطق النوم ولا القرار من شدة الألم، فقيل لى اقطع كفك فقطعته، وانتشر الألم إلى الساعد وآلمنى ألماً شديداً ولم أطق القرار وجعلت أستغيث من شدة الألم، فقيل لى: اقطعها إلى المرفق فقطعتها، فانتشر الألم إلى العضد، وضربت على عضدى أشد من الألم الأول، فقيل: اقطع يدك من كتفك، وإلا سرى إلى جسدك كله، فقطعتها. فقال لى بعض الناس: ما سبب ألمك؟ فذكرت قصة السمكة، فقال لى: لو كنت رجعت فى أول ما أصابك الألم إلى صاحب السمكة واستحللت منه وأرضيته لما قطعت من أعضائك عضواً فاذهب الآن إليه واطلب رضاه، قبل أن يصل الألم إلى بدنك. قال: فلم أزل أطلبه فى البلد حتى وجدته فوقعت على رجليه أقبلها وأبكى وقلت له: يا سيدى سألتك بالله إلا عفوت عنى. فقال لى: ومن أنت؟.

قلت: أنا الذى أخذت منك السمكة غضباً وذكرت ما جرى وأرأيت يدي فبكى حين رآها ثم قال: يا أخى قد أحللتك^(٣) منها لما رأيت بك من هذا

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٥٥).

(٢) الأكلة: داء فى العضو يتآكل منه. (٣) أى: عفوت عنك.

البلاء. فقلت: يا سيدى بالله هل كنت قد دعوت علىّ لما أخذتها؟ قال: نعم. قلت: «اللهم إن هذا تقوى على بقوته على ضعفى على ما رزقتنى ظلماً فأرني قدرتك فيه».

فقلت: يا سيدى قد أراك الله قدرته فىّ وأنا تائب إلى الله عز وجل عمّاً كنت عليه من خدمة الظلمة ولا عدت أقف لهم على باب، ولا أكون من أعوانهم ما دمت حياً إن شاء الله.

[٧٥] نهاية القاهر بالله (١)

قال الذهبى:

كان فيه شر وجبروت وطيش، بايعوه بعد المقتدر، فصادر حاشية أخيه وعذبهم، وضرب أم المقتدر بيده، وهى عليلة، ثم ماتت معلقة بحبل، وعذب أم موسى القهرمانه، وبالغ فى الإساءة، فنفرت منه القلوب، وقبض على شيخ الحنابلة البربهارى. ونهب القاهر دور مخالفيه، وطين على ولد أخيه المكتفى بين خيطين، ونادى بتحريم الغناء والخمر، وكسر الملاهى، وهو مع ذلك يشرب المطبوخ والسلاف، ويسكر ويسمع القينات. وقتل أبا السرايا ابن حمدان وإسحاق النوبختى ألقاهما فى بئر، وطمت؛ لكونهما زابدها فى جارية قبل الخلافة. ثم خلع وأكحل بمسار لسوء سيرته وسفكه الدماء.

قال الصولى: كان أهوج، سفاكاً للدماء، كثير التلون، قبيح السيرة، مدمن الخمر، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل، وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتى يقتل إنساناً.

قال المسعودى: أخذ من مؤنس وأصحابه أموالاً كثيرة. فلما خلع طُوب بها فأنكر. وقف يوماً بالجامع بين الصفوف، وعليه جبة بيضاء، وقال: تصدقوا علىّ فأنا من قد عرفتم.

نهب أموال الناس قسراً، فألت به الحال أن صار يستجدى الناس جزاءً وفاقاً.

(١) «الجزء» (٢/ ٢٧٠ : ٢٧١).

[٧٦] عاقبة ابن العلقمى الرافضى الخبيث^(١)

زالت -من أثر خيانتة- الخلافة العباسية ببغداد سنة ست وخمسين وستمائة على يد هولاءكو وقتل الخليفة المستعصم بالله.

كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بهولاءكو لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، وكان قدوم هولاءكو لبغداد فى ثانى عشر المحرم ومعه نحو مائتى ألف مقاتل.

فاحتاج الخليفة إلى أن خرج فى سبعمائة راكب من القضاة، والفقهاء، والصوفية، ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل هولاءكو خان حجبوا عن الخليفة إلا سبع عشرة نفساً، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدى هولاءكو، فسأله عن أشياء كثيرة، فيقال أنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفى صحبته خوجه نصير الدين الطوسى والوزير ابن العلقمى وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخليفة شيئاً كثيراً من الذهب والحلى والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاءكو ألا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى هولاءكو أمر بقتله، ويقال: إن الذى أشار بقتله الوزير ابن العلقمى، والمولى نصير الدين الطوسى -وكان هولاءكو قد انتخب النصير ليكون فى خدمته كالوزير المشير- فلما قدم هولاءكو وتهيب من قتل الخليفة، هون عليه الوزير ابن العلقمى ذلك فقتلوه رفساً، وهو فى جوالق؛ لئلا يقع على الأرض شىء من دمه، وقيل:

(١) انظر «الجزء من جنس العمل» (ص ٣٥٩) وما بعدها.

بل خنق، ويقال: بل أغرق، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، ثم ولده عبد الرحمن وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث: فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبيكار ما يقارب ألف بكر وقتل أستاذ دار الخلافة محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وقتل أولاده الثلاثة، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة.

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال، والنساء، والولدان، والمشايخ، والكهول، والشبان، وسادات العلماء، والقضاة، والأكابر، والرؤساء، والأمراء وأولى الحل، والعقد.

ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار، إما بالكسر، وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجرى الميازيب من الدماء في الأزقة. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى، ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمى، وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، بذلوا عليه أموالاً جزيلة، وعادت بغداد -بعد ما كانت آنس المدن كلها- كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمى -قبل هذه الحادثة- يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان إلى أن لم يبق سوى عشر آلاف، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، ثم كاتب التتار، وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليه ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيراً للخلفاء، واكتسب إثم من قتل

بيغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلى الكبير رب الأرض والسماء وقد اختلف الناس فى كمية من قتل بيغداد من المسلمين - فى هذه الواقعة - فقليل: ثمانمائة ألف، وقيل: ألف ألف وثمانمائة، وقيل: بلغت القتلَى ألفى ألف نفس، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً.

وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهر ببيغداد، وأراد الوزير ابن العلقمى - قبحه الله ولعنه - أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببيغداد، ويستمر بالمشاهد ومحال الفرض، وأن يبنى للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم وعلمهم بها وعليها، فلم يقدره الله تعالى على ذلك، بل أزال نعمته، وقصف عمره بعد شهر يسيره من هذه الحادثة، وأتبعه بولده فاجتمعوا، والله أعلم بالدرك الأسفل من النار.

ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً، بقيت بيغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى فى الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو، وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودى بيغداد بالأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقبلى والمقابر، كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى.

ورحل هولاءكو إلى مقر ملكه، وفوض أمر بيغداد إلى الأمير على بهادر، فوض إليه الشحنة بها وإلى الوزير ابن العلقمى، فلم يمهله الله ولا أهمله، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر، فمات جهداً وغماً وحزناً وندماً إلى حيث

ألقت رحلها أم قعشم، فولى بعده الوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد، فألحقه الله بأبيه في بقية العام، والله الحمد والمنة.

ويقول عنه ابن كثير أيضاً:

محمد بن أحمد بن علي بن أبي طالب، الوزير مؤيد الدين أبو طالب ابن العلقمى وزير المستعصم. ثم صار وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلي المسلمين. وكان رافضياً خبيثاً ردى الطوية على الإسلام وأهله، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزراء، ثم مالاً على الإسلام وأهله الكافر هولاءكو خان.

ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار، الذين مالأهم، وزال عنه ستر الله، وذاق الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، وقد رأته امرأة وهو في الذل والهوان وهو راكب في أيام التتار برذوناً وهو مرسم عليه، وسائق يسوق به ويضرب فرسه، فوقفت إلى جانبه، وقالت له: يابن العلقمى هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه وانقطع إلى داره إلى أن مات كمدأً وغيبنةً وضيقتاً، وقلة وذلة، وسمع بأذنيه، ورأى بعينه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يجد ولا يوصف، وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة، ثم أخذه الله أخذ القرى وهي ظالمة سريعاً، وقد هجاه بعض الشعراء، فقال فيه:

يا فرقة الإسلام نوحوا واندبوا أسفاً على ما حل بالمستعصم
دست الوزارة كان قبل زمانه لابن الفرات فصار لابن العلقمى
وقال عنه الذهبي:

«الوزير الكبير المدير المبير مؤيد الدين محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب بن العلقمى. أفسى الرفض فعارضته السنة وأكبت، فتنمر، ورأى أن هولاءكو على قصد العراق فكاتبه وحبره وقوى عزمه على قصد العراق، ليتخذ عنده يداً، وليتمكن من أغراضه، وحفر للأمة قليلاً فأوقع فيه قريباً،

وذاق الهوان، وبقي يركب كديشاً وحده، بعد أن كانت ركبته تضاهي موكب سلطان، فمات غيباً وغماً بعد الكائنة بثلاثة أشهر وهلك، وفي الآخرة أشد خزيًا وأشد تنكيلاً» والجزاء من جنس العمل.

[٧٧] عاقبة الحلاج (١)

هو الحسين بن منصور بن محمى الحلاج أبو مغيث، رأس أهل الحلول والاتحاد.

قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى، ولهذا دخل على الحلاج الحلول فصار من أهل الانحراف.

صح عنه أنه دخل إلى الهند وتعلم بها السحر، وقال: أدعوه إلى الله، وكان أهل الهند يكتوبونه بالمغيث، ويكاتبه أهل سرڪسان بالمقيت، وأهل خراسان بالميمز، وأهل فارس بأبى عبد الله الزاهد، وأهل خوزستان بجلاج الأسرار، وكان بعض البغدادة يقولون له: المصطلم، وأهل البصرة يقولون له: المحير.

ومن شعره:

سبحان من أظهر ناسوته	سُرُّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهراً	فى صورة الأكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه	كلحظة الحاجب بالحاجب

قال عمرو بن عثمان المكى: كنت أماشى الحلاج فى بعض أزقة مكة، وكنت أقرأ القرآن، فسمع قراءتى فقال: يمكننى أن أقول مثل هذا ففارقته.

وقال القشيرى فى رسالته (٢) فى باب حفظ قلوب المشايخ: إن عمرو بن

(١) «الجزاء من جنس العمل» (ص ٣٧٢ وما بعدها).

(٢) قد قمت بالتعليق عليه وضمنته تعليقات شيخ الإسلام ابن تيمية وهو طبعة التوفيقية.

عثمان دخل على الحلاج وهو بمكة وهو يكتب شيئاً في أوراق، فقال له: ما هذا؟ فقال: هو ذا أعارض القرآن.

وكتب عمرو بن عثمان إلى الأفاق كتباً كثيرة يلعنه فيها، ويحذر الناس منه، فشرد الحلاج في البلاد، فعاث يميناً وشمالاً، وجعل يظهر أنه يدعو إلى الله، ويستعين بأنواع من الحيل، ولم يزل ذلك دأبه وشأنه حتى أحل الله به بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فقتله بسيف الشرع الذي لا يقع إلا بين كفى زنديق، والله أعدل من أن يسلمه على صديق، فكيف وقد تهجم على القرآن العظيم، وقد أراد معارضته في البلد الحرام حيث نزل به جبريل، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرُدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (١) ولا إحد أعظم من هذا. وقد أشبه الحلاج كفار قريش في معاندتهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢).

قال الذهبي: كان يصحح حاله ابن عطاء، ومحمد بن حفيف، وإبراهيم أبو القاسم النصر آبادي وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء؛ لسوء سيرته ومروقه، ومنهم من نسبه إلى الحلول، ومنهم من نسبه إلى الزندقة، وإلى الشعبذة والزوكرة، وقد تستر به طائفة من ذوى الضلال والانحلال، وانتحلوه وروجوا به على الجهال.

وقال له الجنيد يوماً: أى خشبة تفسدها؟ يريد أنه يصلب.

وقال عنه إبراهيم بن شيبان. من أحب أن ينظر إلى ثمرات الدعاوى الفاسدة، فلينظر إلى الحلاج وما صار إليه.

وكان يقول: ما انفصلت البشرية عنه ولا اتصلت به.

لما أحضره الوزير على بن عيسى فلم يجده يحسن القرآن والفقه ولا الحدث، فقال: تعلمك الفرض والطهور أجدى عليك من رسائل لا تدرى ما

(١) سورة الحج: ٢٥ .

(٢) سورة الأنفال: ٣١

تقول فيها، كم تكتب...؟ ويلك إلى الناس، تبارك ذو النور الشعشعاني! ما أحوجك إلى أدب! وأمر به فصلب، ووجد في كتبه: إني مغرق قوم نوح، ومهلك عاداً وثمود.

وكان يقول للواحد من أصحابه: أنت نوح، ولآخر: أنت موسى ولآخر: أنت محمد.

قال ابن عقيل: قد قتل بإجماع فقهاء عصره، فأصابوا وأخطأ هو وحده.

صفة مقتل الحلاج:

قال الخطيب البغدادي: كان الحلاج قد قدم آخر قدمة إلى بغداد، فصحب الصوفية وانتسب إليهم، وكان الوزير إذ ذاك حامد بن العباس، فبلغه أن الحلاج قد أضل خلقاً من الحشم والحجاب في دار السلطان، ومن غلمان نصر القشورى الحاجب، وجعل لهم في جملة ما ادعاه أنه يحيى الموتى، وأن الجن يخدمونه، ويحضرون له ما شاء. وقال: إنه أحيا عدة من الطير، وسلم إلى الوزير حامد بن العباس، فحبسه في قيود كثيرة في رجليه، وجمع له الفقهاء، فأجمعوا على كفره وزندقته وأنه ساحر ممخرق.

ولما كان آخر مجلس، أحضر الوزير حامد بن العباس القاضي أبا عمر محمد بن يوسف وجيء بالحلاج، وقد أحضر له كتاباً من دور بعض أصحابه وفيه: ومن أراد الحج ولم يتيسر له، فليين في داره بيتاً لا يناله شيء من النجاسة، ولا يمكن أحداً من دخوله، فإذا كان في أيام الحج فليصم ثلاثة أيام، وليطف به كما يطف بالكعبة ثم يفعل في داره ما يفعله الحجيج بمكة، ثم يستدعى بثلاثين يتيماً فيطعمهم من طعامه، ويتولى خدمتهم بنفسه، ثم يكسوهم قميصاً قميصاً، ويعطى كل واحد منهم سبعة دراهم، فإن فعل ذلك قام له مقام الحج، وإن من صام ثلاثة أيام لا يفطر إلا في اليوم الرابع على ورقات هندباً أجزأه ذلك عن صيام رمضان.

ومن صلى فى ليلة ركعتين من أول الليل إلى آخره أجزاء ذلك عن الصلاة بعد ذلك . وأن من جاور بمقابر الشهداء ومقابر قریش عشرة أيام يصلى ويدعو ويصوم، ثم لا يفطر إلا على شىء من خبز الشعير والملح الجريش، أغناه ذلك عن العبادة فى بقية عمره .

فقال له القاضى أبو عمر: من أين لك هذا؟ فقال: من كتاب الإخلاص للحسن البصرى .

فقال له: كذبت يا حلال الدم، قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن بمكة ليس فيه شىء من هذا . فأقبل الوزير على القاضى فقال له: قد قلت: يا حلال الدم، فاكتب ذلك فى هذه الورقة، وألح عليه وقدم له الدواة فكتب ذلك فى تلك الورقة، وكتب من حضر خطوطهم فيها، وأنفذها الوزير إلى المقتدر .

فجاء الجواب بأن يسلم إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة وليضربه ألف سوط، فإن مات وإلا ضربت عنقه .

وبعث به إليه وهوراكب على بغل عليه إكاف، وحوله جماعة من السياسة، على مثل شكله فاستقر منزله بدار الشرطة فى هذه الليلة، فذكر أنه بات يصلى تلك الليلة، ويدعو دعاءً كثيراً .

وقالوا: ولما أخرج الحلاج من المنزل الذى بات فيه ليذهب إلى القتل أنشد:

طلبت المستقرَّ بكل أرض	فلم أر لى بأرض مستقرًّا
وذقت من الزمان وذاق منى	وجدت مذاقه حلواً ومرًّا
أطعت مطامعى فاستعبدتنى	ولو أنى قنعت لعشت حراً

فلما أخرج للصلب مشى إليه يتبختر فى مشيته، وفى رجليه ثلاثة عشر قيداً وجعل ينشد ويتمايل:

نديمى غير منسوب	إلى شىء من الحـيـف
مثل ما يشرب	فعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس	دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح	مع التنين فى الصـيـف

ثم قدم فضرب ألف سوط، ثم قطعت يده ورجلاه، وهو فى ذلك كله ساكت، ما نطق بكلمة ولم يتغير لونه.

وقال الخطيب: قال لنا أبو عمر بن حيوية: لما أخرج الحسين بن منصور الحلاج ليقتل مضيت فى جملة الناس، ولم أزل أزاحم عليه حتى رأيت، فدنوت منه، فقال لأصحابه: لا يهولنكم هذا الأمر، فإنى عائد إليكم بعد ثلاثين يوماً، ثم قتل فما عاد.

قال الذهبى: هذه حكاية صحيحة توضح لك أن الحلاج ممخوق كذاب حتى عند قتله ثم قطعت يده ورجلاه، وحُزَّ رأسه، وأحرقت جثته، وألقى رمادها فى دجلة، ونصب الرأس يومين ببغداد على الجسر، ثم حمل إلى خراسان، وطيف به فى تلك النواحي.

قال الإمام الفقيه المحدث بقية السلف - كما يقول الذهبى - ابن أيوب:

لاشك أن الحجاج قتل من العلماء خلائق يتعسر حصرهم، وشتت شملهم وأبادهم، وقتل سعيد بن جبير، وأهل الأرض محتاجون إلى علمه، وخلعه العلماء وخرجوا عليه، وقاتلوه، ومع هذا كله لم يقل أحد منهم: إنه كافر، بل قالوا: إنه من عصاة المسلمين، لا تحل إمرته لذلك، والحلاج ما تعرض لأحد من أهل العلم بأذى فى دنياه، وأجمع جميع أهل زمانه منهم على كفره، واستباحة دمه، فلو كان العلماء يقولون بالهوى، لقالوا فى الحجاج الذى ما ترك نوعاً من الأذى حتى رماهم به، فثبت أنهم لا يقولون بالهوى اهـ.

ورد في الطواسين للحلاج أنه قال:

الأبلىغ أحببائي بأني ركب البحر وانكسر السفينه
على دين الصليب يكون موتي فلا البطحا أريد ولا المدينة
فصلب .. جزاءً وفاقاً .

من كلمات هذا الزنديق: أنزهك عما قرفك به عبادك، وأبرأ إليك مما وحدك به الموحدون. قال الذهبي: هذا عين الزندقة.

وجدوا كتاباً للحلاج عنوانه من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان فوجه إلى بغداد فأحضر وعرض عليه، فقال: هذا خطي وأنا كتبتة. فقالوا: كنت تدعى النبوة صرت تدعى الربوبية؟! قال: لا، ولكن هذا عين الجمع عندنا، هل الكاتب إلا الله وأنا؟ فاليد فيه آلة.

ووجد الحلاج في جامع الدينور ومعه جماعة، فسأله واحد منهم فقال: يا شيخ! ما تقول فيما قال فرعون؟ قال: قال كلمة حق. قال: فما تقول فيما قال موسى عليه السلام؟ قال: قال كلمة حق؛ لأنهما كلمتان جرتا في الأبد، كما أُجريتا في الأزل.

وقال: ما وحد الله غير الله. وقال: الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم، فأما من حيث الحقيقة. فلا فرق بينهما.

عن جندب بن زاذان تلميذ الحلاج قال: كتب الحسين إلى: السلام عليك يا ولدي، ستر الله عنك ظاهر الشريعة، وكشف لك حقيقة الكفر، فإن ظاهر الشريعة كفر، وحقيقة الكفر معرفة جلية وإني أوصيك ألا تغتر بالله، ولا تياس منه، ولا ترغب في محبته، ولا ترض أن تكون غير محب، ولا تقل بإثباته، ولا تمل إلى نفيه، وإياك والتوحيد، والسلام.

[٧٨] ابن الفارض والخاتمة السوء (١)

وهو شيخ الاتحادية وصاحب «التائية» وكم في التائية، والفصوص،

(١) انظر «الجزء من جنس العمل» (٣٧٨ : ٣٨١).

والفتوحات لابن عربى، واليد لابن سبعين، وخلع النعلين لابن قسى، وعين اليقين لابن برجان، وشعر نجم الدين بن إسرائيل، والعفيف التلمسانى من كفر صريح.

وحدة الأديان عند ابن الفارض:

مثلما قال ابن عربى:

وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

عقد الخلائق فى الإله عقائداً

قال ابن الفارض فى تائيته:

ولى حانة الخمار عين طليعة
وإن حُلَّ بالإقرار بى، فهى حلت
فما بار بالإنجيل هيكلاً بيعة
يناجى بها الأخبار فى كل ليلة
فلا تعد بالإنكار بالعصبية
وما زاغت الأفكار من كل نحلة
وإشراقها من نور إسفار غرتى
كما جاء فى الأخبار فى ألف حجة
سواى وإن لم يعقدوا عقد نيتى
ه ناراً فضلوا فى الهدى بالأشعة

فى مجلس الأذكار سمع مطالع
وما عقد الزنار حكماً سوى يدى
وإن نار بالتنزيل محراب مسجد
وأسفار توراة الكليم لقومه
وإن خرّ للأحجار فى البدع عاكف
فما زاغت الأبصار من كل ملة
وما احتار من للشمس عن غرة صبا
وإن عبد النار المجوس وما انظفت
فما عبدوا غيرى وإن كان قصدهم
رأوا ضوء نارى مرة فتوهمو

ويقول أيضاً:

مموهة أو حالة مستحيلة
كرى اللهو ما عنه الستائر شقت
وراء حجاب اللبس فى كل خلعة
وأشكالها تبدو على كل هيئة

وياك والإعراض عن كل صورة
فطيف خيال الظل بيدى إليك فى
ترى صور الأشياء تجلى عليك من
تجمعت الأضداد فيها الحكمة

ثم يقول:

وكل الذى شاهدته فعل واحد
إذا ما أزال الستر لم تر غيره

ويقول شيخ الزنادقة:

لها صلواتي بالمقام أقيمها
كلانا مصل ساجدٌ إلى
وما كان لي صلى سواى ولم تكن
وفى الصحو بعد المحو لم أك غيرها
فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن
وإن نطقت كنت المناجى، كذاك إن
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا

وأشهد فيها أنها لى صلّت
حقيقته بالجمع فى كل سجدة
صلاتي لغيرى فى أدا كل ركعة
وذاتى بذاتى إذ تحلت تجلت
منادى أجابت من دعانى ولبت
قصص حديثاً، إنما هى قصت
وفى رفعه عن فرقة الفرق رفعتى

ويفتري سلطان الزنادقة أن الذات الإلهية تتجلى فى صور ليلية وبشينة

وعزة:

وتظهر للعشاق فى كل مظهر
ففى مرة لبنى وأخري بثينة
ولسن سواها لا ولا كن غيرها
كذلك بحكم الاتحاد بحسنها
أسام بها كنت المسمى حقيقةً
وما زلت إياها وإياى لم تزل

من اللبس فى أشكال حسن بديعة
وأونة تدعى بعزة عزت
وما إن لها فى حسنها من شريكة
كما لى بدت فى غيرها وتزيت
وكنت لى البادى بنفس تخفت
ولا فرق بل ذاتى لذاتى أحبت

يقول الإمام المقبلى صاحب كتاب: العلم الشامخ، فى إثبات الحق على
الآباء والمشايخ. عن ابن الفارض: يكفيك كلام ابن الفارض الذى أذعنوا له
طراً ما ظاهره الاتحاد، والتزام الكفر، والترفع على الأنبياء، وعلى الجملة فلم
يبق ما يمكن دعواه من المقامات الرفيعة، ولا ما تأتى به الخلاعة من البذاءة
الشيعة إلا ادعاه.

يقول ابن الفارض حيث يعلن خلع العذار:
خلعت عذارى واعتذارى لابس الـ
خلاعة مسرور بخلعى وخلعتنى
وخلع عذارى فيك فرضى وإن أبى اق
ترابى قومى والخلاعة سننى
وليسوا بقومى ما استعابوا تهتكى
فأبدوا قلى واستحسنوا فيك جفوتى
وأهلى فى دين الهوى أهله وقد
رضوا لى عارى واستطابوا فضيحتى

قال ابن حجر:

ينعق بالاتحاد الصريح فى شعره، وهذه بلية عظيمة، فتدبر نظمه ولا
تستعجل، ولكنك حسن الظن بالصوفية، وما ثم إلا زى الصوفية، وإشارات
مجملة وتحت الزى والعبارة فلسفة وأفاع، فقد نصحتك والله الموعد.
وقال الذهبى فى تاريخ الإسلام: كان سيد الشعراء فى عصره وشيخ
الاتحادية.

وقال الذهبى: إلا أنه شابه بالاتحاد فى ألد عبارة، وأرق استعارة
كفالودج مسموم، قال:

وهأنا أبدى فى اتحادى مبدئى
وفى موقفى لا بل إلى توجهى
وأهلى فى دين الهوى أهله وقد
رضوا لى عارى واستطابوا فضيحتى

وأهلى فى دين الهوى أهله وقد
رضوا لى عارى واستطابوا فضيحتى

وكنت سألت شيخنا الإمام سراج الدين البلقيني عن ابن عربي، فبادر بالجواب بأنه كافر، فسألته عن ابن الفارض فقال: لا أحب أن أتكلم فيه.

قلت: فما الفرق بينهما والموضع واحد؟ وأنشدته من التائية، فقطع علي بعد إنشاد عدة أبيات بقوله: هذا كفر، هذا كفر.

قال ابن حجر: ورأيت في كتاب التوحيد للشيخ عبد القادر القوصي، قال: حكى لي الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي، قال: كنت بجامع مصر وابن الفارض في الجامع، وعليه حلقة، فقام شاب من عنده، وجاء إلى عندي، وقال: جرى لي مع هذا الشيخ حكاية عجيبة -يعني: ابن الفارض- قال: دفع إليّ دراهم، وقال: اشتر لنا بها شيئاً للأكل، فاشترت ومشينا إلى الساحل، فنزلنا في مركب حتى طلع البهنسا، فطرق باباً فنزل شخص، فقال: بسم الله، وطلع الشيخ، فطلعت معه، وإذا بنسوة بأيديهم الدفوف والشبابات، وهم يغنون له، فرقص الشيخ إلى أن انتهى وفرغ، ونزلنا وسافرنا حتى جئنا إلى مصر، فبقي في نفسي، فلما كان في هذه الساعة جاء الشخص الذي فتح له الباب، فقال له: يا سيدي فلانة ماتت. وذكر واحدة من أولئك الجوارى فقال: اطلبوا الدلال، وقال: اشتر لي جارية تغني بدلها، ثم أمسك أذني فقال: لا تنكر عليّ الفقراء.

ابن الفارض الذي يكذب على رسول الله -ﷺ-، ويقول: إنه رآه مناماً وإنه سأل ابن الفارض عن قصيدته التائية، ما سماها؟ فأجاب أنه سماها: لوائح الجنان وروائح الجنان. فقال له النبي -ﷺ-: «لا، بل سمها: نظم السلوك».

من كان بحالة لقي الله بها، والجزاء من جنس العمل، ومن فسدت بدايته فسدت نهايته.

فعند موت ابن الفارض تأوه، وصرخ صرخة عظيمة، وبكى بكاءً شديداً، وتغير لونه وقال:

إن كان منزلتي في الحب عندكم
ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت روحى بها زمناً
واليوم أحسبها أضغاث أحلام

[٧٩] من جمع أموال الناس بغير حق ملئ قبره ناراً^(١)

قال ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «الروح»: «وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزيرى الحرانى أنه خرج من داره بعد العصر بأمد إلى بستان قال: فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج، والميت فى وسطه فجعلت أمسح عينى وأقول: أناائم أنا أم يقظان؟ ثم التفت إلى سور المدينة وقلت: والله ما أنا بناائم ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل ثم دخلت البلد فإذا به مكاس^(٢) قد توفى ذلك اليوم».

[٨٠] ذبحه الله فى المنام^(٣)

ذكر ابن القيم عن القيروانى أنه ذكر فى كتاب «البستان»: عن بعض السلف، قال: كان لى جار يشتم أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما -، فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولنى فانصرفت إلى منزلى وأنا مغموم حزين فنمت وتركت العشاء فرأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المنام فقلت: يا رسول الله فلان يسب أصحابك، قال: «من أصحابى؟»، قلت: أبو بكر وعمر، فقال: «خذ هذه المدية - أى السكين - فاذبحه بها»، فأخذتها فأضجعتة وذبحته ورأيت كأن يدي أصابها من دمه فألقيت المدية وأهويت إلى الأرض لأمسحها فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت: ما هذا الصراخ؟ قالوا: فلان مات فجأة!، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح!!.

وقال الذهبى فى «الكبائر»^(٤): «ومن سب هؤلاء فقد بارز الله تعالى بالمحاربة، بل من سب المسلمين وآذاهم وازدراهم فقد قدمنا أن ذلك من الكبائر، فما الظن بمن سب أفضل الخلق بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟!»

(١) «التحذير من سوء الخاتمة» ص (٣٦، ٣٧).

(٢) هو الذى يجبى المكوس وهى نوع من أنواع الضرائب.

(٣) «نهاية الظالمين» (ص ١٥٨ : ١٥٩).

(٤) «الكبائر» بتخرىجى ط العلم (ص ١٨٣).

[٨١] حية سوداء فى القبر (١)

قال القرطبي - رحمه الله - فى «التذكرة»: «ولقد أخبرنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن أحمد القصرى - رحمه الله - أنه توفى بعض الولاة بقسطنطينية فحفر له، فلما فرغوا من الحفر وأرادوا أن يدخلوا الميت القبر إذا بحية سوداء داخل القبر الذى يريدون أن يدفنوه فيه، فلم يزالوا يحفرون له نحواً من ثلاثين قبراً وإذا بتلك الحية تتعرض لهم فى القبر الذى يريدون أن يدفنوه فيه فلما أعياهم ذلك سألوه: ماذا يصنعون؟ ف قيل لهم: ادفنوه معها. نسأل الله السلامة والستر فى الدنيا والآخرة».

[٨٢] من عاش على غش مات على غش (٢)

قال الحافظ ابن رجب الحنبلى - رحمه الله - : «قال عبد العزيز بن أبى رواد: حضرت رجلاً عند الموت يلقن الشهادة: لا إله إلا الله، فقال فى آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك. قال فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر. وكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته».

ومنذ سنوات جرت حادثة فى القصيم، وتطارت أخبارها هنا وهناك، وحاصلها أن رجلاً فى حال احتضاره ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر، ف جاء بعض أصحابه ممن كان يصلى معه فى المسجد - والله أعلم بما فى القلوب - وقال: يا عبد الله، هذا المصحف الذى كنت تقرأ فيه، فاتق الله فى نفسك، ولقنه كلمة التوحيد، فقال: هو كافر بالمصحف وبلا إله إلا الله، وختم له على ذلك الحال، فنعوذ بالله - تعالى - من الخذلان.

قال ابن أبى الدنيا - رحمه الله - : «حدثنى أبو الحسن بن أحمد الفقيه قال: نزل الموت برجل كان عندنا فقيل له: استغفر الله، فقال: ما أريد، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فقال: ما أقول لجهد جهده ثم مات».

(١) «التحذير من سوء الخاتمة».

(٢) «التحذير من سوء الخاتمة، لعبد الحميد بن عبد الرحمن السحيبانى» ص (٣١-٣٣).

وسمعت أن رجلاً كان كثير الصوم والتعبد اشتد به الألم فافتن، فسمعته يقول: لقد قلبني في أنواع البلاء، فلو أعطاني الفردوس ما وقي بما يجرى عليّ، ثم صار يقول: وأى شيء في هذا الابتلاء من المعنى إن كان موتاً فيجوز، فأما هذا التعذيب فأى شيء المقصود به.

[٨٣] نهاية بهاء الله مؤسس البهائية (١)

الكذاب الملعون، الذي أعلن على أتباعه بأنه الموعود الذي أخبر عنه الباب، وسماه بمن يظهره الله. وأسست الديانة الجديدة بدعوى أنه هو صاحب الشريعة المستقلة، كما كان الشيرازي صاحبها، وأنه ناسخ لشريعة البيان، كما كان الشيرازي ناسخاً لشريعة الفرقان، فقبله بعض البابين وسموا بالبهائية، وأخيراً ارتقى على عرش الربوبية والألوهية، يدعى النبوة والرسالة ثم الألوهية.

فتعالوا إلى الكذاب حسين على المازندراني بهاء الله:

انظر إلى دجال الدجاجة الذي يقول: لا يرى في هيكلي إلا هيكل الله، ولا في جمالي إلا جماله، ولا في كينونتي إلا كينونته، ولا في ذاتي إلا ذاته، ولا في حركتي إلا حركته، ولا في سكوني إلا سكونه، ولا في قلبي إلا قلبي العزيز المحمود.

وقال: لم يكن في نفسي إلا الحق، ولا يرى في ذاتي إلا الله.

ويقول في أقدمه - الأنجس: والذي ينطق في السجن الأعظم إنه لخالق الأشياء وموجد الأسماء.

وقال الفاجر أيضاً عن نفسه: قد ظهر من لا يعزب عن علمه شيء.

ويقول العباس - الخناس - بن البهاء وخليفته: إن الأيام التي ظهر فيها موسى كانت أيام موسى، والأيام التي ظهر فيها المسيح كانت أيام المسيح،

(١) «الجزء من جنس العمل» الجزء الأول ص (٢٨٧ : ٢٩١).

وأيام إبراهيم وهكذا أيام الأنبياء كلها، وأما ذلك اليوم -يوم ظهور المازندراني الكذاب- كان يوم الله .

ويقول أيضاً: إن الجمال الأقدس الأبهي -حسين المازندراني- قد استوى ذلك اليوم -يوم دعواه الخبيثة- على عرش الربوبية الكبرى، وتجلى على أهل الأرض والسماء بكل أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

هذا المجرم الأثيم هو قبلة البهائيين يقول: وإذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطرى، الأقدس المقام المقدس الذى جعله الله مطاف الملائ الأعلى، ومقبل أهل مدائن البقاء، ومصدر الأمر لمن فى الأرضين والسماء.

انظر الى الدين الذى أتى به دجال الداجلة:

الصلاة: من يطالع كتبهم المقدسة -النجسة- لا يجد فيها طريقة أدائها، إلا ما كتبه البهاء فى كتابه: الأقدس الفقرة ١٩: قد فصلنا الصلاة فى ورقة أخرى، طوبى لمن عمل بما أمر به من لدن مالك الرقاب.

فأين ذهبت هذه الورقة؟ قالوا: إن خصوم البهاء سرقوها منه، وهم لذلك يبكون ويتألمون!!

ويحرم الصلاة جماعة بقوله: كتب عليكم الصلاة فرادى، قد رفع حكم الجماعة إلا فى صلاة الميت إنه لهو الأمر الحكيم.

الصوم: قد كتب لكم الصيام فى شهر العلاء، صوموا لوجه ربكم العزيز المتعال. وشهر العلاء هو آخر الشهور البهائية التسعة عشر، ويشمل على الأيام التسعة عشر. وأما فرضية الصوم، فقد عفى عنه المسافر والمريض والحامل والمرضع والهزم والكسول.

وعند التكسر والتكاسل لا يجوز الصلاة والصيام، وهذا حكم الله من قبل ومن بعد.

الزكاة: قال البهاء: سوف نفصل لكم نصابها إذا شاء الله وأراد، إنه يفعل ما يشاء بعلم من عنده إنه لهو العلام الحكيم.

والعلام الحكيم لم يستطع بيان نصابها وتفصيلها.

بل قالوا: يعمل في الزكاة كما نزل في الفرقان -أى القرآن-، والمعروف لمن له أدنى إلمام بالإسلام أن تفاصيل الزكاة ونصابها في السنة لا في القرآن.

الحج: الحج للبيت الأعظم في بغداد، وبيت النقطة في شيراز. وهو واجب على الرجال دون النساء.

الطهارة: رفع حكم دون الطهارة عن كل الأشياء -قدرة كانت أم نجسة- وعن ملل أخرى موهبة من الله إنه لهو الغفور الكريم.

فهذه شريعة البهائيين منتنة خبيثة كأحكامها، وقدرة نجسة.

المحرمات عند البهائيين:

لا يحرمون إلا زوجة الأب، وبقية نساء العالم حلال عندهم في جميع كتبهم، ويحرمون تعدد الزوجات فوق الاثنتين.

وانظر ما يقول الفاجر: ومن اتخذ بكرة لخدمته لا بأس عليه، كذلك كان الأمر من قلم الوحي بالحق مرقوماً. بل من قلم الشيطان أيها العرييد.

أما الزنا: فإنهم لا يعدون الزنا إلا ما لم يرض به أحد الطرفين، ومن اقترف هذه الجريمة بدون الرضا لا عقاب عليه، بل يؤخذ منه الأجرة؛ لأنها بالأجرة تنقلب السيئة حسنة، يقول المازندراني: قد حكم الله لكل زانٍ وزانية دية مسلمة إلى بيت العدل، وهي تسعة مثاقيل من الذهب.

أما الزانى المحصن والزانية المحصنة فلا حكم عليهما إلا أن يحكم عليهما بيت العدل. هذا قول نبي البهائية عباس عبد البهاء.

هذا الفاجر البهاء قصته وفجوره مع قرة العين شيطانة البابية، وقد كانت متزوجة، والغريب أنها هي التي منحته هذا اللقب: بهاء الله.. فالطاهرة كما كانوا يلقبونها أسمته: بهاء الله. فهي أول المتفوهين بكلمة بهاء الله، وكفاه جزاءً هذا.

وهذا المأفون منع من الارتقاء على المنابر.

الكذاب يظهر الله كذبه ويفضحه:

يقول البهاء فى رسالته إلى الشاه: قد جعل الله البلاد غادية لهذه الدسكرة الخضراء، وزبالة لمصباحه الذى به أشرق الأرض والسماء.

يقول أسلمنت داعية البهائية: وقد تنبأ بهاء الله وعبد البهاء بأصرح وأوثق عبارة، عن النصر السريع للأمر الروحانية.

ولما سئل عباس عبد البهاء إذا كانت دولة من دول العالم العظيمة تؤمن بالديانة البهائية أجاب: سيؤمن جميع أهل العالم.

وصرح أيضاً: هذا القرن قرن شمس الحقيقة. وهذا القرن قرن تأسيس ملكوت الله على الأرض. بل وصرح أيضاً بأن سنة ١٩٥٧ تتأسس وحدة الإنسانية، وكذب الكذاب وابنه.

انظر عميل الروس الذى ادعى الألوهية كيف أظهر الله عجزه ومسكنته؟

الجزاء من جنس العمل:

يقول وقد كتب إلى شاه إيران، يقول: ما وجدت فى أيامى مقراً من على قدر أضع رجلى عليه، كنت فى كل الأحيان فى غمرات البلايا التى ما اطلع عليها أحد. كم من أيام اضطرت فيها أحتبى لضرى، وكم من ليال ارتفع فيها نحيب البكاء من أهلى؛ خوفاً لنفسى، ولا ينكر ذلك إلا من كان عن الصدق محروماً.

الكذاب الدجال ييكى، وينوح، ويشتكى، ويعلى العويل والصراخ، ويقول: كم من ليال فيها استراحت الوحوش، والطيور فى أوكارها، وكان الغلام -الغلام والرب؟- فى السلاسل والأغلال، ولم يجد لنفسه ناصراً ولا معيناً.

إله يستصرخ، ورب يحتاج. . ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (١).

(١) سورة النساء: ٧٨ .

هذا الكذاب الذى افترى على الله، وزعم أن كتابه الأكبر -الذى يسمونه: الأقدس- ناسخ لجميع الكتب السماوية: وآية واحدة منه خير من كتب الأولين والآخرين.

حاول فيها محاكاة القرآن فى فواصل آياته، وكذا بقية كتبه: الإيقان، ولوح البقاء.

هذا المجنون الذى اعتنق الباطنية، ثم ادعى النبوة والرسالة، ثم الألوهية. ماذا كان جزاؤه فى دار الدنيا قبل أن يذهب به إلى الهاوية؟ لقد جُنَّ.

ينقل عن أحد أبناء حسين على المازندراني البهاء أنه جُنَّ فى آخر حياته، وقبل موته بمدة، كما ذكره عمر عنائت نقلاً عن ابنه: إن البهاء جُنَّ فى أواخر أيامه، وكان ابنه -عباس عبد البهاء- يعمل كحاجب له. جُنَّ.. جزاءً وفاً.

نهاية غلام أحمد القاديانى دجال الهند^(١)

عميل الإنجليز الكذاب الدجال، انظر إلى عقيدته، ثم انظر بعد ذلك إلى نهايته. يقول المتنبى القاديانى غلام أحمد: قال لى الله: إني أصلى وأصوم، وأصحو وأنام.

ويقول الكذاب: قال الله: إني مع الرسول أجيب، أخطئ وأصيب، إني مع الرسول محيط.

ويقول أيضاً: أنا رأيت فى الكشف بآنى قدمت أوراقاً كثيرة إلى الله، ليوقع عليها، ويصدق الطلبات التى اقترحتها، فرأيت أن الله وقع على الأوراق بحبر أحمر، وكان عندى وقت الكشف رجل من مريدى، يقال له:

(١) «الجزء من جنس العمل» الجزء الأول ص (٢٩١: ٣٠٧).

عبد الله. ثم نفخ الرب القلم، وسقطت منه قطرات الحبر الأحمر على أثوابي وأثواب مريدي عبد الله.

ويقول: نستطيع أن نفرض لتصوير وجود له أيادي وأرجل كثيرة، وأعضاؤه بكثرة لا تعد ولا تحصى، وفي ضخامة لا نهاية لطولها وعرضها، ومثل الأخطبوط له عروق كثيرة، التي هي امتدت إلى أنحاء العالم وأطرافها.

وهؤلاء القاديانية المرتدون يعتقدون أن الله جامع وباشر نبيهم غلام أحمد، وليس هذا فحسب، بل هو النتيجة أيضاً لهذه المباشرة.

فأولاً: الذي باشره الله هو نبيهم غلام أحمد.

ثانياً: ثم وهو الحامل.

وثالثاً: هو المولود.

قال القاضي يار محمد القادياني: إن المسيح الموعود -أي الغلام- بين مرة حالته فقال: إنه رأى نفسه كأنه امرأة، وإن الله أظهر فيه قوته الرجولية.

ويقول المتنبى القادياني بنفسه: قد نفخ في روح عيسى، كما نفخ في مريم، وحُبِلت بصورة الاستعارة، وبعد أشهر لا تتجاوز عن عشرة أشهر، حوِّلت عن مريم، وجعلت عيسى، وبهذا الطريق صرت ابن مريم.

ويقول: إن الله سماني بمريم التي حبلت بعيسى، وأنا المقصود من قوله في سورة التحريم: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾.

وعلى هذا الأساس تعتقد القاديانية بأن غلام أحمد هو ابن الله، بل هو عين الله.

يقول المتنبى الكذاب: قال لى الله: أنت من مائنا، وهم من فشل -أى الجبن.

ويقول: خاطبنى الله بقوله: اسمع يا ولدى.

وقال: قال لى الرب: أنت منى، وأنا منك، ظهورك ظهورى.

تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ونريد أن نشير بأن الإله، الذى ادعى القاديانية بأن الغلام ابن له، كان إنكليزياً، كما صرخ غلام أحمد فيقول: أنا ألهمت عدة إلهامات فى الإنكليزية وفى المرة الأخيرة ألهمت: "I Can What I Will do" يعنى أنا أعمل ما شاء، فظننت من اللهجة والتلفظ كأنه إنكليزى قائم على رأسى يتكلم.

ويعتقد غلام أحمد أن النبوة ما ختم برسول الله - ﷺ -، فيقول هذا الدجال: أحلف بالله الذى فى قبضته روحى، هو الذى أرسلنى وسمانى نبياً، ونادانى بالمسيح الموعود، وأنزل لصدق دعواى بينات، بلغ عددها ثلاث مائة ألف بينة.

ويقول: هو الإله الحق، الذى أرسل رسوله فى القاديان، وأن الله يحفظ القاديان، ويحرسها من الطاعون، ولو يستمر إلى سبعين سنة؛ لأنها مسكن رسوله، وفى هذا آية للأمم.

الطاعون يقع بالقاديان، والجزاء من جنس القول والعمل؛

ومن قدرة القهار الجبار أن وقع الطاعون فى هذه القرية التى أنجسها غلام أحمد؛ وعم القرى المجاورة، بل ودخل إلى بيت غلام أحمد نفسه، فيقول فى رسالة أرسلها إلى صهره: ودخل الطاعون حتى فى بيتنا.

والجزاء من جنس قول الكذاب، ففضحه الله فى حياته.

ويقول القاديانى: أنا وحدى أعطيت كل ما أعطى لجميع الأنبياء.

ويقول بنزول جبريل عليه السلام عليه؛ يقول الغلام: إن جبريل جاء إلىّ واختارنى، وأدار أصبعه، وأشار إلىّ بأن الله يحفظك من الأعداء.

بل وحيه كوحى محمد - ﷺ - وإلهامته كالقرآن؛ يقول الغلام: والله العظيم، أوّمن بوحىي كما أوّمن بالقرآن، وبقيه كتب أنزلت من السماء، وأنا

أؤمن بأن الكلام الذى ينزل علىّ ينزل من الله، كماؤمن بأن القرآن نزل من عنده.

ويقول: إيمانى بالإلهامات التى تنزل علىّ كالإيمان بالتوراة والإنجيل والقرآن.

ومن اعتقادات القاديانية أنه نزل على غلام أحمد الكتاب كما نزل على بعض الرسل، وأن الذى أنزل عليه أكثر مما أنزل على كثير من الأنبياء، واسم هذا الكتاب المنزل عليه: الكتاب المبين.

يقول غلام أحمد: نزل علىّ كلام الله بهذه الكثرة، لو يجمع لما يقل عن عشرين جزءاً.

ويعتقدون أن القاديان قرية الكذاب المخبول أفضل من مكة والمدينة، وفيها قطعة من قطعات الجنة.

يقول الغلام القاديانى: قد أنزل الله قوله فى القرآن: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(١) وصفاً لمسجدى فى القاديان.

وقال غلام أحمد: إن الذى لا يجيء إلى القاديان أخاف على إيمانه.

ويقول محمود أحمد بن الغلام: قد انقطع ثمرة مكة والمدينة، ولكن ثمرة القاديان ما زالت طازجة.

الحج: الحج عندهم هو حضور المؤتمر السنوى فى القاديان.

يقول ابن الغلام: إن مؤتمرننا السنوى هو الحج، وإن الله اختار المقام لهذا -الحج- القاديان.

وقال الغلام الكذاب: إن البقاء فى القاديان أفضل من الحج النفلى.

وفى قرآن القاديان الكتاب المبين آيات، ومن بعض آياته:

إن الله ينزل فى القاديان.

(١) سورة آل عمران: ٩٧.

يحمدك الله من عرشه ويمشى إليك .

عقيدة الجهاد نجسة عند عميل الإنجليز:

قال المتنبي الدجال: إن هذه الفرقة، الفرقة القاديانية، لا تزال تجتهد ليلاً ونهاراً؛ لقمع العقيدة النجسة، عقيدة الجهاد من قلوب المسلمين .

المتنبي القاديانى واهنته للأنبياء والصحابة:

يفضل نفسه على آدم فيقول: صار آدم ذليلاً مصغراً، ثم خلقتني الله لكي أهزم الشيطان .

ويفضل نفسه على نبي الله نوح:

فيقول: إن الله أنزل لصدق دعواى آيات وبيانات بهذه الكثرة، لو أنزلت على نوح لم يغرق أحد من قومه .

ويفضل نفسه على نبي الله يوسف:

فيقول: إن يوسف هذه الأمة يعنى أنا العاجز الحقير أفضل من يوسف بنى إسرائيل؛ لأن الله شهد لبراءتى بنفسه، وبآيات كثيرة، حينما احتاج يوسف بن يعقوب لبراءته إلى شهادة الناس .

ويفضل نفسه على عيسى:

فيقول: إن الله أرسل من هذه الأمة المسيح، الذى هو أعظم شأنًا من المسيح الأول بمراتب، والله الذى فى قبضته روحى، إن كان عيسى فى زمن الذى أعيش فيه أنا، ما كان يستطيع أن يعمل ما أعمله أنا .

أفضل من كل الأنبياء:

يقول: جاء أنبياء كثيرون، ولكن لم يتقدم أحد علىّ فى معرفة الله، وكل ما أعطى لجميع الأنبياء أعطيت أنا وحدى بأكمله .

ويقذف الأنبياء:

يقول: أنا أرى بأن المسيح ما كان يتنزه عن شرب الخمر .

ويقول الكذاب: إن أسرة عيسى أسرة عجيبة، كانت جداته الثلاث فاجرات، ومن هذا الدم المطهر تكون تجود عيسى. . ولعله كان ميلان عيسى إلى المومسات لهذه النسبة، وإلا لا يسمح أحد من المتقين، أن يمس رأسه شابة زانية، وتعطره بمالها الحرام فليفهم الناس كيف كان أخلاق هذا المسيح. والحمد لله أن هذا الخبيث يرد على نفسه، فيقول: الذي يسب أو يشتم الأخيار المقدسين فليس إلا خبيث، ملعون، لئيم.

تطاوله على الرسول الكريم - ﷺ -:

يقول الدجال: إن النبي - ﷺ - له ثلاثة آلاف معجزة، ولكن معجزاتي زادت على مليون معجزة.

يقول ابنه وخليفته: إن الارتقاء الذهني لإمامنا كان أزيد، وأكثر من النبي الكريم.

ويقول غلام أحمد:

له خسف القمر المنير وإن لى غسا القمران المشرقان أنتكر

ويقول: إن الإسلام بدأ كالهلال، ثم قدر له أن يكون في هذا القرن كالبدر، وإلى هذا أشار الله - عز وجل -: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِيَدِهِ﴾ (١).

وقال هذا الدجال: وأما تجليات كمالات رسول الله ما كانت راقية إلى منتهاها، بل هذه التجليات بلغت إلى ذروتها في عهدي وفي شخصي.

ويقول: إن المراد في قول الله - عز وجل -: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٢) هو أنا؛ لأن الله سمانى في هذا الوحي محمداً ورسولاً.

ويقول: أنا هو المصداق لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (٣).

(١) سورة آل عمران: ١٢٣ .

(٢) سورة الفتح: ٢٩ .

(٣) سورة الصف: ٩ .

ويقول: أنا المراد فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١).

ويقول: وأنا المقصود فى قوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٢).

ويقول محمود أحمد خليفة القاديانية: لو أن أحداً يريد أن يتقدم على رسول الله مرتبة وشأناً يستطيع أن يتقدم.

فأى كفر وخبث ونجاسة أعظم من هذا، وهكذا يجترئ الأوباش على مقام رسول الله - ﷺ -.

وكتب أحد القاديانيين: أنه سمع من أحد مبلغى القاديانية، الذى هو من أهل البيت - يريد أولاد الغلام- أنه يقول: أين أبو بكر وعمر من غلام أحمد؟ إنهما لا يستحقان أن يحملا نعليه.

ويقول الغلام الكذاب: أنا هو المهدي الذى سئل عنه ابن سيرين، هل هو فى مرتبة أبى بكر؟ فقال: أين أبو بكر منه؟ بل هو أفضل من بعض الأنبياء.

ويقول: يوجد فيكم علىّ حتى فتركونه، وتبغون علياً ميتاً.

ويقول: يقولون عنى بأنى أفضل نفسى على الحسن والحسين، فأنا أقول: نعم، أنا أفضل نفسى عليهما، وسوف يظهر الله هذه الفضيلة.

وقال ابنه: إن أبى قال: مائة حسين فى جيبى. فالناس يفهمون معناه، إنه يساوى مائة حسين، ولكنى أقول أكثر من هذا، وهو: إن تضحية ساعة واحدة لخدمة الدين من أبى، أفضل من تضحيات مائة حسين.

الغلام رجل أفيونى حمّار؛

يقول ابنه: كان أبى يقول: إن الأفيون نصف الطب، ولذا استعماله للتداوى يجوز ولا بأس به، وإنه صنع دواء باسم ترياق إلهى بهدى الله وعونه وكان الجزء الأكبر فى هذا الدواء الأفيون، وكان يعطى هذا الدواء لخليفته

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سورة الإسراء: ٧٩.

الأول نور الدين، كما كان يستعمله هو أيضاً حيناً بعد حين لمختلف الأمراض.

وأرسل الغلام إلى أحد مريديه في لاهور أن يرسل إليه: وائن، ويشترية من دكان رجل يقال له: بلومر. وحينما سأل بلومر عن وائن ماذا هو؟ فقال: إن وائن قسم قوى مسكر، من أقسام الخمر الذى يستورد من انجلترا فى القوارير المختومة.

جزاء الكذاب فضحه واظهار كذبه:

هذا الذى كذب على الله، وكذب على رسوله - ﷺ - أظهر الله كذبه وشهره بهذا.

يقول الكذاب: لا يوجد أى شىء أحسن وأفضل لاختبار صدقى وكذبنى من تنبؤاتى. يداك أوكتا وفوك نفخ.

النبوءة الأولى:

تناظر غلام أحمد مع عبد الله آثم المسيحى فى إحدى مدن الهند سنة ١٨٩٣، وبعد نقاش طويل ما وصلا إلى نتيجة، ولم يفز واحد منهما على الآخر، فما أصبح الصباح يوم ٥ يونيو سنة ١٨٩٣ إلا وقد أعلن بأنه أخبر عن الله بأن عبد الله آثم سيموت فى خمسة عشر شهراً، أى إلى ٥ سبتمبر سنة ١٨٩٤ فعاش عبد الله آثم المذكور طويلاً، ونكس رأس الملعون، وأذله الله فى هذه الدنيا أمام الملأ.

النبوءة الثانية:

ذهب رجل من أقربائه يُسمى: أحمد بك إليه فى أمر كان يتعلق به، واستدعاه المساعدة، فقال له: أساعدك بشرط أن تزوجنى ابنتك: محمدي بيجوم. فأبى أحمد أن يقبل هذا الشرط، فجن جنون غلام أحمد، وبدأ يهدده ويتوعده وبلغ به الولع بهذه البنت أن قال: إن الابنة الكبيرة لأحمد بك

تزوج لى، مع أن أهلها يخالفون ويمنعون، ولكن الله يزوجه لى، ويرفع كل الحواجز، ولا يستطيع أحد أن يحول دون تحقيق هذا.

ويقول: قد قال الله عز وجل: زوجناكها نحن بأنفسنا، ولا يستطيع أحد أن يبدل كلماتي.

ويقول: إن لم يتحقق هذا النبأ فأكون أخبث الخبثاء، هذا ليس افتراء من إنسان ولا لعبة خبيث مفترى، بل هذا وعد الله الحق، الإله الذى لا تبديل لكلماته، والرب الذى لا مانع لإرادته.

وظل يتذلل أمام أحمد بك، ويسترحمه: أنا أرجو منكم بكل أدب وعجز أن تقبلوا زواج ابنتكم منى.

وحرّم غلام أحمد ابنه سلطان من الإرث وطلق أمه، وحرّم ابنه فضلاً من إرثه أيضاً؛ لأنهم لم يساعده فى الزواج من هذه المرأة.

وفضحه الله على رؤوس الأشهاد، وتزوجت من غيره.

النبوءة الثالثة:

وهى بموت زوج هذه المرأة وزواجها منه، ولكن الكاذب يموت، وتظل هذه المرأة حيّة مع زوجها حتى ماتت فى نوفمبر سنة ١٩٦٦، ومات هذا الكذاب سنة ١٩٠٨.

النبوءة الرابعة:

فى سنة ١٨٦٦م وبتاريخ ٢٠ فبراير حينما كانت امرأة غلام أحمد حبلى أعلن أنه ألهم من الله ما نصه: إن الله الرحيم الكريم، الذى هو قادر على كل شىء أخبرنى بأنه يظهر آيته، آية الرحمة، آية بينة، ولد جميل وجيه زكى مظهر الأول والآخر مظهر الحق والعلاء كأن الله نزل من السماء، وهذا الولد يكبر عجباً ويفك الأسارى ويتبرك به الأقسام.

فولدت امرأة الغلام بعد هذه الإعلانات الطنانة ابنة وليس ابناً، وسميت عصمت، ثم ماتت بعد خمس سنوات فقط أى سنة ١٨٩١.

النبوءة الخامسة:

أعلن بتاريخ ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٦ : إن الله بشرنى بأنه يكون لى ذرية كثيرة، من النسوة ذوات البركات اللاتى أتزوج بعضهن بعد هذا الإلهام. وكذّبه الله فما تزوج بعد هذا لا النسوة بل ولا امرأة واحدة. والأولاد؟!!!

النبوءة السادسة:

ولد له ولد بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٩٩ وسماه: مبارك أحمد. وبعد ولادته بأيام أعلن الدجال: إن هذا الولد نور من نور الله، ومصلح موعود، وصاحب العظمة، ومسيحى النفس، ومشفى الأمراض، وكلمة الله، وسعيد الحظ، وهذا يشتهر فى أنحاء العالم وأطرافها، يفك الأسارى ويتبرك به الأقبام.

فمرض هذا الولد سنة ١٩٠٧ وفى تاريخ ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٧ حينما خف مرضه أعلن الدجال: ألهمنى الله بأنه قد قبل الدعاء، وذهب المرض. وما إن أعلن المنتبى القاديانى هذا الافتراء على الله حتى عاد المرض من جديد، وفى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٠٧ مات هذا المصلح الموعود الذى يفك الأسارى، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم.

النبوءة السابعة:

عن الطاعون وأنه لا يقع فى القاديان، فوقع، وقال: إن بيتى كسفينة نوح، من دخله حفظ عن كل الآفات والمصائب. فدخل الطاعون بيته، حتى أصابه هو.

النبوءة الثامنة:

تنبؤه بمولود لأحد مريديه، فولدت زوجة هذا المريد بنتاً، وأخبره أنه لن تموت زوجة هذا المريد إلا أن تضع الابن، فماتت.

النبوءة التاسعة:

تناقش مرة مع المنتبى رجل من المسلمين -دكتور عبد الحكيم- وتحده بأنه كذاب، وأعلن: أن عبد الحكيم يموت فى حياتى؛ لأنه يهيننى ويدلنى.

ويقول: ولكن الله بشرني بأني أعمر ثمانين سنة أو أكثر، فلم يميت عبدالحكيم في حياته بل بقى حياً بعده، وعمر، ومات وهو في الثامن أو التاسع بعد الستين من عمره.

وكم كذب الدجال، وما تحققت نبوءة له واحدة، عقاباً من الملك القهار لهذا المفترى الكذاب، وألبسه الله رداء قوله في الدنيا.

والجزاء من جنس القول والعمل.

عاقبته وموته:

وموت الغلام كان فضيحة له، وجزاءً وفاقاً، فقد كان دجال القاديان يجلب اللعنات على نفسه؛ لافتراءاته على الله، والرسول والقرآن، والأنبياء، ونازله العلماء وأفتوا بالإجماع بكفره ودجله، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ الجليل العلامة: ثناء الله الأمر تسرى، مناظر الإسلام، ومحامى المسلمين في القارة الهندية، فقد جرى بينه وبين الغلام القاديانى عدة مناظرات، ومناقشات تحريرية، وتقريرية، ودوماً كان الانتصار حليفاً لرجل إلهي، وبطل الإسلام، فاستشاط من ذلك المتنبى القاديانى غضباً، وأصدر نشرة سنة ١٩٠٧م وبتاريخ ١٥ أبريل بالضبط وكتب فيها ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلى على رسوله الكريم، يسألونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق.

إلى خدمة الأستاذ ثناء الله.

السلام على من اتبع الهدى، من زمان وأنا أكذب وأفسق في مجلتكم: أهل حديث. ودائماً تسموننى في مجلتكم هذه ملعوناً كذاباً، ودجالاً مفسداً، وتشهرنى في العالم بأنى مفترى كذاب دجال، وأفترى في دعواى المسيحية، فأنا تأذيت منك كثيراً وصبرت، ولكنى لماً رأيت نفسى بأنى مأمور لنشر الحق، وأنت تمنع العالم من التوجه إلى بسبب افتراءاتك على، فادعوا إن أنا

كذاب ومفتري كما تذكرني في مجلتك فأهلك في حياتك، لأنني أعلم أن عمر الكذاب والمفسد لا يكون طويلاً، بل هو يموت خائباً في حياة أشد أعدائه بالذلة والهوان، وتكون في موته منفعة لعباد الله حيث لا يصلهم، فإن لم أكن كذاباً ومفترياً بل أكون متشرقاً بمخاطبة الله والمكالمة معه، وأكون مسيحاً موعوداً، فأدعو أن لا تنجو من عاقبة المكذبين، حسب سنة الله فأعلن: إن لم تمت أنت في حياتي بعقاب الله، الذي لا يكون إلا من عند الله محضاً، مثل أن تموت بمرض الطاعون أو الكوليرا، فلن أكون مرسلًا من الله تعالى، وهذا لا أقول نبوءة، بل طلبت القضاء الفيصل من الله تبارك وتعالى، وأدعو الله يا مولاي البصير القدير العليم الخبير، يا عالم أسرار القلوب، إن أنا كاذب ومفسد في نظرك، وأفتري عليك ليلاً ونهاراً يا الله، فأهلكني في حياة الأستاذ ثناء الله، وسره وجماعته بموتى. آمين.

ويا الله إن أنا صادق، وثناء الله عليّ باطل وكذاب في التهم التي يلصقها بي، فأهلكه يا رب العالمين في حياتي بالأمراض المهلكة، مثل الطاعون أو الكوليرا أو غيره من الأمراض. آمين. يا رب أنا أوذيت وصبرت، ولكني أرى الآن أنه قد تجاوز الحد، وأنه يظنني أفسق من السارقين والغاصبين الذين يضررون العالم، ويحسبني أرذل خلق الله، وقد شهرني في البلدان النائية بأني في الحقيقة مفسد، ونهاب، وطماع، وكذاب، ومفتري، وخبيث، وإن لم يكن لهذه الكلمات صدق كنت صبرت عليه، ولكني أرى أن ثناء الله يريد بهذه التهم أن يفني دعوتي، ويهدم عمارتي التي بنيتها أنت يا ربي، ويا من أرسلتني، ولذا ألتجأ إليك يا الله، آخذاً بذيل رحمتك وتقديسك، فاقض بيني وبين ثناء الله بالحق، وأهلك الكذاب والمفسد في حياة الصالح، أو ابتليه في آفة تكون مثل الموت فافعل هكذا يا ربي الحبيب. آمين ثم آمين: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾.

وأخيراً، أرجو من الأستاذ ثناء الله أن ينشر هذه النشرة في مجلته، ثم يعلق عليها ما يشاء، فالقضاء الآن بيد الله.

الراقم عبد الله الصمد غلام أحمد المسيح الموعود، عافاه الله وأيده.

وبعد هذا الإعلان والدعاء بعشرة أيام نشر الغلام القاديانى فى جريدة قاديانية: إن كل ما قيل عن ثناء الله ليس من عند أنفسنا؛ بل من قبل الله، كما ألهمت الليلة عن الدعاء الذى دعوته ﴿أجيب دعوة الداع﴾ ومعنى هذا الإلهام أن دعوتى قد قبلت^(١).

الجزء جنس القول والعمل:

وفعلاً قبلت دعوته هذه، وقضى بينه وبين ثناء الله بالحق، فبعد ثلاثة عشر شهراً وعشرة أيام بالضبط جاءه قضاء الله وقدره، بصورة بشعة، كان يتمناها للشيخ الجليل ثناء الله، نعم بنفس الصورة وببفس المرض الذى نصّ عليه هو بالكوليرا، وإليك بيانه:

يكتب ابن الغلام القاديانى وزعيم القاديانية بشير أحمد فى سيرته:

أخبرتني أمى أن حضرته -أى الغلام- احتاج إلى بيت الخلاء بعد الطعام مباشرة، ثم نام قليلاً، وبعد ذلك احتاج مرة أخرى إلى بيت الخلاء، فذهب مرة أو مرتين إليها بدون أن يشعرنى، ثم أيقظنى، فرأيت أنه ضعف جداً، وما استطاع الذهاب إلى سريره، فلذا جلس على سريرى أنا، فبدأت أمسحه وأمسحه، وبعد قليل أحس الحاجة مرة أخرى ولكن الآن ما استطاع الذهاب إلى بيت الخلاء، فلذا قضاها عند السرير، واضطجع قليلاً بعد القضاء، ولكن الضعف بلغ إلى منتهاه، فجاءته الحاجة مرة أخرى، فقضاها، ثم جاءه القيء، وبعد ما فرغ من القيء خر على ظهره، واصطدم رأسه بخشب السرير، وتغيرت حالته.

وكتب رحيمه -أبو زوجه-: الليلة التى مرضها حضرته -الغلام- كنت نائماً فى غرفتى، ولما اشتد مرضه أيقظونى، فذهبت إلى حضرته، ورأيت ما يعاينه من الألم، فخاطبني قائلاً: أصبت بالكوليرا، ثم لم ينطق بعد هذا بكلمة صريحة، حتى مات اليوم الثانى بعد العاشرة من الصباح.

(١) جريدة بدر القاديانية بتاريخ ١٩٠٧/٤/٢٥.

هذا، وقد نشرت الجرائد الهندية آنذاك: إن غلام أحمد المتنبى القاديانى، لما ابتلى بالكوليرا كانت النجاسة تخرج من فمه قبل الموت، ومات وكان جالساً فى بيت الخلاء لقضاء الحاجة .

كما نشر بيان محمد إسماعيل القاديانى فى جريدة قاديانية: إن المخالفين يقولون: إن النجاسة كانت تخرج من فم حضرة المسيح الموعود وقت الموت .

يا لله . . . النجاسة تخرج من الفم الذى طالما أخرج النجاسات، وافترى على الله وأنبياؤه وأوليائه .

والجزاء من جنس القول والعمل .

مات غلام أحمد فى العاشرة والنصف صباحاً بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨ م. فمات وكان ثناء الله حياً، وبقي حياً بعد موته قريباً من أربعين سنة يهدم بنيان القاديانية، ويقمع جذورهم .

وهكذا كذب الله الكذاب، حتى آخر لحظة من حياته، وعذبه فى الدنيا، وعذاب الآخرة أشد وأنكى .

ومات غلام أحمد فى لاهور ثم نُقل نعشه إلى القاديان، وهكذا إلى بعد الموت أثبت أنه كان كذاباً فى دعواه النبوة فكل نبي يدفن حيث قبض، فذهب الكذاب إلى مزبلة التاريخ، وصدق الله ورسوله .

[٨٥] نهاية الرجل الصنم كمال أتاتورك^(١)

لا تعجب من قول كثير من المؤرخين: إن أتاتورك كان صريباً أو بلغارياً .

لم يتحدث عن والده يوماً، وروايات كثيرة لا تقل نسبتها عن تسعين فى المائة من الروايات أنه كان من سفاح .

(١) «الجزاء» (٤٠١ : ٤٠٧) .

تناظر مدهش وعادل بين كون مصطفى كمال ثمرة حرام من الناحية الروحية، وبين كونه ثمرة حرام من الناحية المادية، يحمل في طياته معنى كبيراً. كيف أن هذه الروح السافلة كانت تستند في عالم المادة إلى أساس سافل؟ وأن هذه السفالة في الروح والمادة تأتي في الحقيقة من كون مصطفى كمال عدواً لله وعدواً لرسول الله.

مصطفى كمال القائل: لقد انتهى العهد الذى كان الشعب فيه يخدع بكلمات، هي خاصة بالطبقات الدنيا، أمثال: كربلاء... حفيد الرسول... الإيمان... السيف... القدس.

مصطفى أتاتورك الذى ألغى الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٢، وقال عن الذين يقولون: إن الخلافة والسلطنة وحدة لا يمكن تجزئتها قال: إنها سفسة معهودة.

وفى اليوم الأول من شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢٣ تُعلن الجمهورية وانتخاب مصطفى كمال أتاتورك رئيساً للجمهورية التركية.

وبعد ٤ أشهر من انتخابه رئيساً يوفى لأسياده الإنجليز وللحاحام نعوم، منفذ الخطة اليهودية لهدم الخلافة العثمانية، فيعطى قراره:

لقد آن وقت إلغاء الخلافة، وتلغى معها وزارة الشرعية، ووزارة الأوقاف، ولن ندع هناك مدرسة دينية.

يتقرر إخراج الخليفة مع جميع أفراد عائلته من البلاد. وبعد ذلك يجبر الأتراك على ارتداء القبعة، وهى العلامة الثالثة عند النصارى بعد الصليب والزنار، كانت علامة دينية وضعت من قبل المسيحيين أثناء المعارك الصليبية، ثم أصبحت قومية، وقد اعتبرت القبعة كعلامة للكفر بفتوى من الإمام النووى، وتنصب المشانق من أجل المعارضين لارتدائها، ويفرض العلمانية على تركيا، ويقول عنها: إنها تعنى أن نكون آدميين آدميين. ويغير أحرف الكتابة إلى الأحرف اللاتينية.

مصطفى أتاتورك الذى باع أذربيجان للروس، عندما طلب من الأذربيجانيين السماح بدخول الجيوش الروسية بحجة أنها متوجهة إلى مساعدة تركية، وبعد أن دخل البلاشفة إلى أذربيجان لم يخرجوا منها ولم يرسلوا جيوشاً إلى تركيا.

مصطفى أتاتورك الذى على مائدة الخمر، وسط الدعارة والفجور، يشير إلى راقصة داعرة نبيلة هانم، فتقرأ أذان الفجر.

عدوه الأكبر رسول الله - ﷺ - .

كان فى فندق «بارك»، وكان المؤذن يقرأ الأذان فى المسجد الصغير الكائن أمام الفندق مباشرة، يلتفت أتاتورك لمن حوله قائلاً: من قال بأننا مشهورون؟ وما شهرتنا نحن؟ انظروا إلى هذا الرجل^(١) كيف أنه وضع اسماً وشهرة بحيث أن اسمه يتكرر فى كل لحظة، وفى جميع أنحاء العالم إذا أخذنا فرق الساعات بنظر الاعتبار؛ ليهدموا هذه المنارة.

مصطفى أتاتورك الذى أراد أن تكون لغة الصلاة التركية.

مصطفى أتاتورك الذى من على مائدة الخمر يصدر أمراً بتحويل مسجد أيا صوفيا إلى متحف.

أما فحشه وشذوذه وعربدته وسكره ومجونته، فحدث ولا حرج، وحدث عن ليالى جانقايا ولا حرج.

يقول شاعره:

لا عنكبوت لا سحر...

لتبقى الكعبة لدى العرب...

لأن جانقايا تكفيننا...

يتزوج من لطيفة هانم، وتجدّه رجلاً سكيراً، ويشاء الله أن يفضحه على

(١) يقصد: النبي - ﷺ - .

لسان زوجته، فهو عديم الرجولة وعين، بل وشاذ وشذوذه مع وداد بن خالد ضياء معروف، وكان سبباً لطلاق زوجته منه، قائلة له: لقد رأيت كل شيء فيك، وتحملت كل شيء ولكنى لا أستطيع تحمل هذا! بعد ما رأته مع هذا الشاب الأمرد.

هذا الفاجر الذى حاول الاعتداء على المحارم، فقد حاول الاعتداء على شقيقة زوجته الصغرى، ولكن البنت تخلصت من يديه بصعوبة، وهرعت إلى غرفة شقيقتها، ودخل مصطفى كمال إلى الغرفة وفى يده مسدس، واحتضنت زوجته شقيقتها وأصبحت سترًا بينهما، وسحب مصطفى كمال الزناد، ولكن لحسن الحظ فإن خادمه بكر أسرع إليه، وأمسك بيده، فطاشت الرصاصات الثلاث.

كانت حياته شراباً شراباً للخمير وللعرق، لا يكاد يفيق منه، يقترب من صبي ويسأله، لو وضع أمام حمار دلوان فى أحدهما ماء، وفى الآخر عرق^(١) فمن أيهما يشرب؟ فقال له الصبي: من العرق يا سيدى. وكان يقول: إن هذا العرق يعطى النشوة للإنسان.

الغازى أتاتورك الذى كان يذهب إلى دار المعلمات، ويأخذ جبراً بنات الأمة البريئات، ليفسق بهن، إنه يخطف البنات مثل قطاع الطرق. وكان يستعمل وزير خارجيته توفيق رشدى سمساراً لشهواته.

أما عشيقته فحدث ولا حرج، صالحة، وفكرية، وآفة هانم عشيقته الدائمة، التى أوصى لها عند موته. زد على ذلك كانت هناك ما بين ٢٠ إلى ٣٠ من النساء والفتيات الشابات، المختارات بشكل خاص، وأطلق عليهن: بناته بالتبنى، ويوصى لهن عند موته بمقادير ثابتة طيلة حياتهن. وكن يقمن بالرقص فى حفلاته، وهن شبه عاريات.

بل فى قصره كانوا يلبسون الجرسونات الرجال ملابس النساء ويرقصونهم.. رائحة الغلمنة والشذوذ أمام أنظار النساء.

(١) أى: الخمر.

وفى مرض موته، فى قصره ابتلاه الله بحشرات صغيرة حمراء لا ترى بالعين، حتى اضطرته إلى الجك والحك الشديد أمام زواره، حتى ظهرت على وجهه، وأمر بتعقيم البيت بأقوى الأدوية وأكثرها فاعلية.

ويكتب مستشار وزارة الصحة ما يلى: نعم صحيح أنه وجد نمل فى بعض أرجاء القصر، حتى إن المختصين أثبتوا أنه نوع من النمل المهاجر من الصين إلى أوروبا، ولم يكن يخطر ببال أحد احتمال أن هناك وراء الحكه سبباً آخر؛ لذلك فقد روجعت هيئة الأركان العامة، حيث أحيل الأمر إلى متخصصين من القوة البحرية، وبحضر طاقم من مدمرة ياووز؛ لتصيد النمل الذى فى القصر، مدمرة ياووز الموجودة فى ميناء أزميت يا للجنون!! فلم لم يطلبوه من حامية أنقرة، جنود ومدمرة لسحق النمل!!

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ﴾ (١).

وانظر إلى حكمة الله؛ فإنه بالرغم من كونه محاطاً بالأطباء والأخصائيين وأساتذة الطب، لم يكتشفوا أنه كان مريضاً بالكبد، وذاق مر العذاب من سنة ١٩٣٦ حتى اكتشفوا المرض سنة ١٩٣٨ الذى يعرفه أقل الأطباء معرفة بالطب. وابتلاه الله بتليف الكبد الذى أدى إلى الاستسقاء، واحتاج إلى سحب الماء من بطنه بالإبر، وكان يصيح بمن حوله والأطباء: اسحبوا المياه حالاً... اسحبوها كلها... لا تدعوا شيئاً منها.

وفى يوم الخميس العاشر من أكتوبر يرحل إلى مزبلة التاريخ... يرحل عن هذا العالم ويدور جدال حول الصلاة عليه، وكان من رأى رئيس الوزراء ألا يصلى عليه، وحدث خلاف مع قائد الجيش الأول، وأخيراً وبعد جدل وافقوا أن يُصَلَّى عليه، ولكن من الذى أمّ الناس؟

إذا كان الغراب دليل قومٍ فلا فلاحوا ولا فلاح الغراب

إنه مدير الأوقاف شرف الدين أفندى الذى أصبح رئيساً للشئون الدينية فى عهد أينونو؛ حاول إقناع أينونو بالقيام بكفر لم يستطع أتاتورك نفسه القيام

(١) سورة المدثر: ٣١ .

به، وهو جعل الترجمة التركية للقرآن الكريم لغة للعبادة، وفرض قراءتها فى الجوامع، بقوة القانون... ويالله أتاتورك يصلى عليه شرف الدين هذا، وافق الشن الطبقي.

وعرضوا جثمانه لزيارة الناس ثلاثة أيام بلياليها.

ومات نتيجة الازدحام الشديد أربعة عشر شخصاً، وفقدت بعض البنات بكارتهن بأصابع عديمى الحياء، مارسوا هذا أمام تابوته الرصاصى كعادة الصليبيين.

أتاتورك الجبان:

من خاف الله أخاف منه كل شىء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شىء، كان فى مدرسة الزراعة على إحدى القمم، وكانت الرياح شديدة، وكانت تثير الغبار؛ ولأجلها تحرك الأبواب، فتحدث أصواتاً، ويهب الغازى مذعوراً من مكانه مذعوراً قلقاً، قائلاً: أليس هذا صوت رشاشة؟ ولم يحدث هذا مرة واحدة فقط، بل عدة مرات، فيقولون له: إنه صوت الباب المندفع بسبب الريح، ولكنه لا يصدق، فيقوم ويتطلع من النافذة، ثم يرسل من يحقق السبب، وأخيراً حاول فى أحد الأيام الهروب من هذا المكان بعد أن جمع جميع ملابسه، ولكن جلال عارف وآخرين وقفوا أمامه ومنعوه. هذا علماً بأن حراساً له كانوا موجودين على الدوام فى خيمة فى الحديقة الخلفية للمدرسة.

وقصة أخرى يحكيها المارشال فوزى جاقماق: فى أحد الأيام، وبينما كانوا جلوساً فى مجلس الأمة الأعلى ظهرت عبر النافذة الخلفية للبناء سحابة كبيرة من الغبار، وكأنها صادرة من عشرات الألوف من الأقدام المسرعة فى ناحية السهل، وعندما رأى أتاتورك هذا المنظر تهيأ للهرب قائلاً: هذه جيوش الخليفة آتية. ثم ظهر بأنه لم يكن هناك سوى قطع كبير من الغنم. فأرسل رجلاً خلف الغازى؛ لتأمين رجوعه.

إيه يا أتاتورك، يا مسخرة التاريخ.. نملّ وغنم فلم التطاول؟

والجزاء من جنس العمل:

أتاتورك الذى ألغى أعياد الفطر والأضحى، وجعل يوم الأحد هو يوم العطلة الأسبوعية بدلاً من الجمعة، ومنع الحج، بل وأغرب من هذا أن هذا الذى رمرم من فئات الغرب قوتاً، له واقعة مثيرة، تنقلها جريدة الأهرم التى قامت بنقلها من جريدة: صنداي تايمز فى يوم الخميس ١٥ فبراير سنة ١٩٦٨، تحت عنوان: كمال أتاتورك رشح سفير بريطانيا ليخلفه فى رئاسة الجمهورية التركية. هل بعد هذا تبعية وولاءً لبريطانيا التى أسقطت دولة الخلافة على يد عميلها أتاتورك.

وأخيراً «لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم».

وأى ظهور للفاحشة أكثر من الرقص، والعهر، والاعتصاب، والعشيقات، والبنات بالتبني لممارسة الرذيلة.. ورقص النساء عاريات، وسط موائد الخمر.

أراد أتاتورك أن يتمتع نفسه بالشهوة الحرام، فابتلاه الله بالأوجاع والأسقام.

والجزاء من جنس العمل.

وحرمه الله من الرجولة ونعمة الأولاد، لأنه كان عقيماً بسبب إصابته بالزهري، وبسببه أصيبت زوجته بالسيلان المزمّن.

ولم تتورع امرأته عن إذاعة سر عقمه.

والجزاء من جنس العمل.

هذه صفحة سوداء لقرمز دجال ألغى الخلافة، هذا الماسونى الذى جعله علمانيو العرب مثلهم الأعلى.

[٨٦] العبرة بالخواتيم (١)

هذه قصة مؤلمة ذكرها الشيخ أحمد القطان في محاضرة له: يقول الراوى الذى نقل عنه الشيخ: «صحبنا على ظهر سفينة نجول بها حول البلدان طلباً للرزق شاب صالح، نقى السريرة، طيب الخلق، كنا نرى التقى يلوح فى قسما ت وجهه، والنور والبشر يرتسمان على محياه، لا تراه إلا متوضئاً مصلياً، أو ناصحاً مرشداً، إن حانت الصلاة أذن لنا وصلى بنا، فإن تخلف أحد عنها عاتبه وأرشده، وكان معنا على هذه السجىة طيلة أسفارنا.

وألقى بنا البحر إلى جزيرة من جزر الهند فنزلنا إليها وكان مما تعود عليه البحارة أن يستقروا أياماً يرتاحون فيها، ويستجمون بعد عناء السفر الطويل، يتجولون فى أسواق المدينة ليشتروا أغرب ما يجدون فيها لأهلهم وأبنائهم ثم يرجعون إلى السفينة فى الليل، وكان منهم نفر ممن وقع فى الضلال، يتيتم أماكن اللهو والهوى ومحال الفجور والبغاء، وكان ذلك الشاب الصالح لا ينزل من السفينة أبداً، بل يقضى هذه الأيام يصلح فى السفينة ما احتاج منها إلى إصلاح، فيفتل الحبال ويلفها، ويقدم الأخشاب ويشدها، ويشغل بالذكر والقراءة والصلاة وقته ذاك.

قال الراوى وعينه ترقق بالدموع وتنحدر على لحيته: وفى إحدى السفرات وبينما كان الشاب منشغلاً بأعماله تلك إذا بصاحب له فى السفينة ممن أتبع نفسه هواها وانشغل بطالح الأمور عن صالحها، وبسافل الأخلاق عن عاليها يهامسه ويقول: صاحبى، لم أنت جالس فى السفينة لا تفارقها؟ لم لا تنزل حتى ترى دنيا غير دنياك؟ ترى ما يشرح خاطر ويؤنس النفس، أنا لم أقل لك تعال إلى أماكن البغاء وسخط الله، ولا إلى البارات وغضب الله، هيهات يا صاحبى، لكن تعال فانظر إلى ملاعب الثعابين كيف يتلاعب بها ولا يخافها، وإلى راكب الفيل كيف يجعل من خرطوم له سلماً ثم يصعد

(١) «التحذير من سوء الخاتمة» ص (٣٨-٥٤).

برجليه ويديه حتى يقيمه على رجل واحدة، وآه لو رأيت من يمشى على المسامير أنى له الصبر، ومن يلقم الجمر كأنما هو تمر، ومن يشرب ماء البحر فيسبغه كما يسبغ الماء الفرات، يا أخى انزل وانظر الناس. فتحركت نفس الشاب شوقاً لما سمع، فقال: وهل فى هذه الدنيا ما تقول؟ قال صاحب السوء: نعم، وفى هذه الجزيرة. فانزل ترى ما يسرك، ونزل الشاب الصالح مع صاحبه، وتجولا فى أسواق المدينة وشوارعها حتى دخل به إلى طرق صغيرة ضيقة فأنتهى بهما الطريق إلى بيت صغير فدخل الرجل البيت وطلب من الشاب أن ينتظره وقال: سأتيك بعد قليل ولكن، إياك إياك أن تقترب من الدار. جلس الشاب بعيداً عن الباب يقطع الوقت قراءة وذكرًا. وفجأة إذا به يسمع قهقهة عالية، ليفتح الباب وتخرج منه امرأة قد خلعت جلباب الحياء والمروءة.

أواه!! إنه الباب نفسه الذى دخل فيه الرجل. وتحركت نفس الشاب فدنا من الباب وأخذ يستمع لما يدور فى البيت وإذا به يسمع صيحة أخرى فنظر من شق الباب ويتبع النظرة أختها لتتواصل النظرات منه وتتوالى وهو يرى شيئاً لم يألّفه ولم يره من قبل، ثم رجع إلى مكانه ولما خرج صاحبه بادره الشاب مستنكراً: ما هذا؟ ويحك هذا أمر يغضب الله ولا يرضيه، فقال الرجل: اسكت يا أعمى يا مغفل، هذا أمر لا يعينك.

قال الراوى: ورجعا إلى السفينة فى ساعة متأخرة من الليل، وبقي الشاب ساهراً ليلته تلك مشتغل الفكر فيما رآه، قد استحكّم سهم الشيطان من قلبه، وامتلك النظرة زمام فؤاده، فما أن بزغ الفجر وأصبح الصباح حتى كان أول نازل من السفينة وما فى باله إلا أن ينظر فقط، ولا شىء غير أن ينظر، وذهب إلى ذلك المكان، فما إن نظر نظرتة الأولى وأتبعها الثانية، حتى فتح الباب وقضى اليوم كله هناك واليوم الذى بعده كذلك فافتقده ربان السفينة وسأل عنه. أين المؤذن؟ أين إمامنا فى الصلاة؟ أين ذلك الشاب

الصالح؟ فلم يجبه من البحارة أحد، فأمرهم أن يتفرقوا للبحث عنه فوصل إلى علم الريان من ذهب به إلى ذلك المكان فأحضره وزجره وقال له: ألا تتقى الله ألا تخشى عقابه، عجل اذهب فأحضره، فذهب إليه مرة بعد مرة لكن دون جدوى فلم يستطع إحضاره لأنه كان يرفض ويأبى الرجوع معهم، فلم يكن من قائد السفينة إلا أن أمر عدة من الرجال أن يحضروه تسراً، فسحبوه بالقوة وحملوه إلى السفينة.

قال الراوى: وأبحرت السفينة راجعة إلى البلاد ومضى البحارة إلى أعمالهم وأخذ ذلك الشاب فى زاوية من السفينة يبكى ويئن حتى لتكاد نياط قلبه أن تقطع من شدة البكاء، ويقدمون له الطعام ولا يأكل، وبقي على حاله البائسة هذه بضعة أيام، وفى ليلة من الليالى ازداد بكاءه ونحيبه ولم يستطع أحد من أهل السفينة أن ينام فجاءه ربان السفينة وقال له: يا هذا اتق الله ماذا أصابك لقد أقلقنا أنينك فما نستطيع أن ننام. ويحك ما الذى بدل حالك؟ ويلك ما الذى دهاك؟ فرد عليه الشاب وهو يتحسر: دعنى فإنك لا تدري ما الذى أصابنى؟.

فقال الربان: وما الذى أصابك؟ عند ذلك كشف الشاب عن عورته وإذا الدود يتساقط من سواته، فانزعج ربان السفينة وارتعش لما رأى وقال: أعوذ بالله من هذا، وقام عنه الربان وقبيل الفجر قام أهل السفينة على صيحة مدوية أيقظتهم وذهبوا إلى مصدرها فوجدوا ذلك الشاب قد مات وهو ممسك خشبة السفينة بأسنانه، استرجع القوم وسألوا الله حسن الختام، وبقيت قصة هذا الشاب عبرة لمن يعتبر.

فائدة: وهذه القصة تدلنا على الصدق فى الطاعات، فإن هذا الشاب لو كان من الصادقين فى طاعته لثبته الله ولا بد كما قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (١).

(١) سورة إبراهيم: ٢٧.

[٨٧] غرفة الأحزان (١)

كان لى صديق أحبه لفضله وأدبه، فكان يروقنى منظره ويؤنسنى محضره .

قضيت فى صحبته عهداً طويلاً ما أنكر من أمره ولا نكر من أمرى شيئاً حتى سافرت من القاهرة سفيراً طويلاً فتراسلنا حيناً، ثم انقطعت عنى كتبه فرابنى من أمره ما رابنى، ثم رجعت فجعلت أكبر همى أن أراه فطلبته فى جميع المواطن التى كنت ألقاه فيها فلم أجده، فذهبت إلى منزله، فحدثنى جيرانه أنه هجره من عهد بعيد، وأنهم لا يعرفون أين مصيره، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه، فأيقنت أن قد فقدت الرجل، وأنى لن أجد بعد اليوم إليه سبيلاً .

هنالك ذرفت من الوجد دموعاً لا يذرفها إلا من قل نصيبه من الأصدقاء، وأقفر ربه من الأوفياء، وأصبح غرضاً من أغراض الأيام، لا تخطئه سهامها، ولا تغبه آلامها(٢) .

بينما أنا عائد إلى منزلى فى ليلة من ليالى السرار(٣) إذ دفعنى الجهل بالطريق فى هذا الظلام المدلهم إلى زقاق موحش مهجور يخيل للناظر إليه فى مثل تلك الساعة التى مررت فيها أنه مسكن الجان، أو مأوى الغيلان، فشعرت كأنى أخوض بحراً أسود، يزخر بين جبلين شامخين، وكأن أمواجه تقبل بى وتدبر وترتفع وتنخفض، فما توسطت لجته حتى سمعت فى منزل من تلك المنازل المهجورة أنه تتردد فى جوف الليل، ثم تلتها أختها ثم أخواتها، فأثر فى نفسى مسمعا تأثيراً شديداً وقلت: يا للعجب، كم يكتم هذا الليل فى صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين، وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن

(١) «قصص وعبر» لعبد الله بن يوسف العجلان ص (١٥-٢١) عن «الظنرات» (١/١٤٧).

(٢) أغبه الألم: جاءه حيناً بعد حين.

(٣) الليالى السرار: الليالى الأخيرة من الشهر.

استطعت، أو الباكي إن عجزت. فتللمست الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغت، فطرقت الباب طرْقًا خفيًّا فلم يفتح، فطرقته أخرى طرْقًا شديدًا ففتحت لى فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها، فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذى كان فى يدها، فإذا هى فى ثيابها الممزقة، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة، وقلت لها: هل عندكم مريض؟ ففرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها، وقالت: أدرك أبى أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت، ثم مشت أمامى فتبعتها حتى وصلت إلى غرفة ذات باب قصير مسنم، فدخلتها فخييل إلى أنى قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وأن الغرفة قبر، والمريض ميت، فدنوت منه حتى صرت بجانبه، فإذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء فى البرج الخشبى. فوضعت يدى على جبينه ففتح عينيه وأطال النظر فى وجهى، ثم فتح شفثيه قليلاً قليلاً. وقال بصوت خافت: «أحمد الله فقد وجدت صديقى» فشعرت أن قلبى يتمشى فى صدرى جزعاً وهلعاً، وعلمت أنى قد عثرت بضالتي التى كنت أنشدها وكنت أتمنى ألا أعثر بها وهى فى طريق الفناء، وعلى باب القضاء، وألا يجدد لى مرآها حزنًا كان فى قلبى كمينًا، وبين أضالعى دفينًا، فسألته ما باله؟ وما هذه الحال التى صار إليها؟ وكأن أنسه بى أمد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور فأشار إلى أنه يحب النهوض فمددت يدى إليه، فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص على القصة الآتية:

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنحتها على مثلها حسناً وبهاءً، ورونقاً وجمالاً، فالّم بنفسى من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً، فما زلت بها أعالجها فتمتنع، وأستنزلهما فتتذرع، وأتأتى إلى قلبها بكل الوسائل فلا أصل إليه، حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه إليها، فسكن جماحها، وأسلس قيادها، فسلبتها قلبها وشرفها فى يوم واحد، وما هى إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنيئاً يضطرب فى أحشائها، فأسقط فى يدى، وطفقت أرتتى بين أن أفى لها بوعدا أو أقطع

حبل ودها، فأثرت أخراهما على أولاهما، وهجرت ذلك المنزل الذى كانت تزورنى فيه، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً.

مرت على ذلك الحادثة أعوام طوال وفى ذات يوم جاءنى منها مع البريد هذا الكتاب، ومد يده تحت وسادته وأخرج كتاباً بالياً مصفراً، فقرأت فيه ما يأتى:

لو كان بى أن أكتب إليك لأجدد عهداً دارساً، أو وداً قديماً، ما كتبت سطرًا، ولا خططت حرفًا، لأنى لا أعتقد أن عهداً مثل عهدك الغادر، ووداً مثل ودك الكاذب، يستحق أن أحفل به فأذكره، أو آسف عليه فأطلب تجديده.

إنك عرفت حين تركتنى أن بين جنبى ناراً تضطرم، وجنيناً يضطرب، تلك للأسف على الماضى، وذاك للخوف من المستقبل، فلم تبال بذلك منى حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر إلى شقاء أنت صاحبه، ولا تكلف يدك مسح دموع أنت مرسلها، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك رجل شريف؟ لا... بل لا أستطيع أن أتصور أنك إنسان؛ لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة فى نفوس العجماوات أو أوابد الوحش إلا جمعتها فى نفسك وظهرت بها جميعها فى مظهر واحد.

كذبت علىّ فى دعواك أنك تحبنى، وما كنت تحب إلا نفسك، وكل ما فى الأمر أنك رأيتنى السبيل إلى إرضائها، فمررت بى فى طريقك إليها، ولولا ذلك ما طرقت لى باباً، ولا رأيت لى وجهاً.

خنتنى إذ عاهدتنى على الزواج فأخلفت وعدك ذهاباً بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة إلا صنعة يدك وجريرة نفسك، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة، فقد دافعتك جهدى حتى عييت بأمرى، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير، بين يدي الجبار الكبير، سرقت عفتى، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب، أستثقل الحياة وأستبطن الأجل، وأى لذة فى العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجة لرجل، ولا أمماً

لولد، بل لا تستطيع أن تعيش فى مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهى خافضة رأسها، مسبلة جفنها، واضعة خدها على كفها. ترتعد أوصالها وتذوب أحشاؤها، خوفاً من عبث العابثين وتهكم المتكلمين.

سلبتني راحتي لأنى أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة إلى الفرار من ذلك القصر الذى كنت متمتعة فيه بعشرة أبى وأمى، تاركة ورائى تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد إلى منزل حقير فى حى مهجور لا يعرفه أحد، ولا يطرق بابه، لأقضى فيه الصبابة الباقية لى من أيام حياتى.

قتلت أمى وأبى، فقد علمت أنهما ماتا، وما أحسب موتهما إلا حزناً لفقدى، ويأساً من لقائى.

قتلتنى لأن ذلك العيش المر الذى شربته من كأسك، والهَمَّ الطويل الذى عاجته بسببك قد بلغا مبلغهما من جسمى ونفسى، فأصبحت فى فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفساً فى نفس، وأحسب أن الله قد صغى لى، واستجاب دعائى، وأراد أن ينقلنى من دار الموت والشقاء إلى دار الحياة والهناء فأنت كاذب خادع، ولص قاتل، ولا أحسب أن الله تاركك دون أن يأخذ لى بحقى منك.

ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدد بك عهداً، أو أخطب إليك ودّاً، فأنت أهون علىّ من ذلك إننى قد أصبحت على باب القبر وفى موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرها، سعادتها وشقائقها، فلا أمل لى فى ود، ولا متسع لعهد، وإنما كتبت إليك لأن لك عندى وديعة وهى فتاتك، فإن كان الذى ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة فأقبل إليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمها من قبلها.

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تنحدر على خديه فسألته: وماذا تم بعد ذلك؟ قال: إننى ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى فى جميع أعضائى، وخيل إلىّ أن صدرى يحاول أن ينشق عن قلبى حزناً وجزعاً. فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذى ترانى

فيه الآن، فرأيتها فى هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامة لا حراك بها، ورأيت فتاتها إلى جانبها تبكى بكاءً مرّاً فصعقت لهول ما رأيت، وتمثلت لى جرائمى فى غشيتى كأنما هى وحوش ضارية، وأساود ملتفة، هذا ينشب أظافره، وذاك يحدد أنيابه، فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التى سميتها «غرفة الأحزان» حتى أعيش فيها عيشها وأموت موتها.

وها أنذا أموت اليوم راضياً مسروراً.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد، حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول: ابنتى يا صديقى، فلبث بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه، ثم كتبت إلى أصدقائه ومعارفه فحضروا تشييع جنازته، ومارئى مثل يومه يوم كان أكثر باكيةً وباكياً.

ولما حثونا الترب فوق ضريحه جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

يعلم الله أنى أكتب قصته، ولا أملك نفسى من البكاء والنشيج، ولا أنسى ما حبيت نداءه وهو يودع نسمات الحياة، وقوله: «ابنتى يا صديقى».

فيا أقوى القلوب من الرجال، رفقا بضعفاء النفوس من النساء. إنكم لا تعلمون حين تخذعونهن عن شرفهن، وعفتهن، أى قلب تفجعون، وأى دم تسفكون.

[٨٨] مات كما يموت الحمار (١)

فى الخمسينات الميلادية، وفى إحدى الكليات بدولة عربية، وقف أحد الطلبة، ممسكاً بساعته محدقاً نظره فيها، وهو يصرخ قائلاً: «إن كان الله موجوداً فليمتنى إذاً بعد ساعة»، وكان مشهداً عجيماً شهده جمهرة من

(١) هذه القصة حدثت فى جامعة عين شمس -كلية الزراعة- وهى مشهورة كتبت منها الصحف (المجلة العربية عدد صفر ١٤١٣) نقلاً عن «نهاية الظالمين» (ص ١٥٩ : ١٦٠).

الطلاب والأساتذة، ومرت الدقائق عجلي، وحين أتمت الساعة دقائقها انتفض الطالب بزهو تحد، وهو يقول لزملائه: أرايتم لو كان الله موجوداً لأماتني، وانصرف الطلاب، وفيهم من وسوس له الشيطان، وفيهم من قال: إن الله أمهله لحكمة، وفيهم من هز رأسه وسخر منه! أما الشاب المذكور، فذهب إلى أهله مسروراً، خرج يتمطى، وكأنه أثبت بدليل عقلي لم يسبقه إليه أحد أن الله - سبحانه - غير موجود، وأن الإنسان خلق هملاً، لا يعرف له رباً وليس له معاد أو حساب!

ودخل منزله فإذا والدته قد أعدت مائدة الغذاء وإذا والده قد أخذ مكانه على المائدة ينتظره، فهرع الولد مسرعاً إلى المغسلة، ووقف أمامها يغسل وجهه ويديه، ثم ينشفهما بالمنديل، وبينما هو كذلك، إذ به يسقط على الأرض جثة لا حراك بها!!

نعم لقد سقط ميتاً، وأثبت الطبيب في تقريره، أن موته كانت بسبب الماء الذي دخل في أذنه! وفي ذلك قال الدكتور عبد الرزاق نوفل - رحمه الله -:

«أبى الله إلا أن يموت كما يموت الحمار»!

والمعروف علمياً أن الحمار والحصان إذا دخل الماء في أذن أحدهما، مات من ساعته!!

[٨٩] يقتل أمه فيموت بنفس القتل (١)

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (٢).

روى الشيخ / عبد الحميد كشك - رحمه الله - قصةً في إحدى خطبه موجزها:

(١) «نهاية الظالمين» (ص ١٨٠).

(٢) سورة التغابن: ١٤.

أن رجلاً من الأثرياء لما مات أبوه، ضم أمه إليه، فكانت عنده ينفق عليها ويرعاها.. تزوج هذا الابن بزوجة لا تحب إلا نفسها.. ولا تبقى إلا مصلحتها! فكانت تضيق ذرعاً بأم زوجها، تسيء عشرتها وتؤذيها بلسانها وأفعالها، وشاءت إرادة الله تعالى أن تصاب الأم بحالة «جنون» فضاقت الأرض على الزوجة ولم تُطق صبراً على وجودها فقالت لزوجها:

أنت مُخَيَّر بين أمرين: إما أن تختار أمك، وإما أن تختارنى وحاول الزوج إقناع الزوجة بالصبر والرضا.. ولكن دون جدوى وفكر الزوج وقدر... الزوجة أم الأم؟.. وأخيراً هوى بعد أن اتبع الهوى. سوَّكت له نفسه الخبيثة، وهده شيطانه، وفكر فى التخلص من أمه!!

وفى ليلة مظلمة شاتية أخذ والدته وألقى بها من على سطح البيت، فهوت الأم على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة لتلحق بربها تشكو إليه ظلم العباد!!! وكالعادة أقام الابن لها سرادقاً كبيراً لتلقى العزاء، ولم يدر أن عدالة الله له بالمرصاد.

مرت الأيام وظن أنه فى مأمن من الله وبأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين.

أصيب الابن العاق «بالجنون!!» نفس مرض الأم -سبحان الله- وضاقت زوجته به كما ضاقت بأمه من قبل.. وفى ليلة شاتية مظلمة!! صعد الابن على سطح البيت وألقى بنفسه من نفس المكان!! فسقط على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة ليلقى ربه بما كسبت يده، والجزاء من جنس العمل.

[٩٠] الكأس الأولى (١)

كان لى صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه فى حالى بعده وقربه، وغضبه وحلمه، وسخطه ورضاه، ففرق الدهر

(١) «قصص وعبر» لعبد الله بن يوسف العجلان (ص ٨ - ١٢)

بينى وبينه فراق حياة لا فراق ممات، فأنا اليوم أبكيه حياً أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتاً، بل أنا لا أبكى إلا حياته، ولا أتمنى إلا مماته، فهل سمعت بأعجب من هذه الخلة الغريبة فى طبائع النفوس.

علقت جبالى بحباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفنى، ثم سلك سبيلاً غير سبيله، فأنكرته وأنكرنى حتى ما أمر بباله، لأن الكأس التى علق بها لم تدع فى قلبه فراغاً يسمع غيرها وغير العالقين بها، وربما كان يدفعنى فى مخيلته دفعاً إذا تراءيت فيها لأنه إذا ذكرنى ذكر معى تلك الكلمات المرة التى كنت ألقاه بها فى فاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم فى فضاء سعادته التى يتخيلها أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال. ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئاً؛ لأن حياة المدمنين حياة متشابهة متمائلة، لا فرق بين صباحها ومساءها وأمسها وغدها، ذهاب إلى الحانات فشراب، فخمارة فنوم فذهاب، كالحلقة المفرغة. لا يدرى أين طرفاها، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن، حتى أن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها، وكان أحرى أن يوقظه دورانها.

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلاً من قلبى إلا بعد أن سكنت دورته. وهدأت حركته، فلم أعد أراه معربداً فى الحانات، ولا مطروحاً فى مدارج الطرق، ولا معتقلاً فى أيدي الشرط فقيل لى: إنه مريض، فلم أعجب لشيء كنت أعد له الأيام والأعوام، كما يعد الفلكى الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب.

دخلت إليه أعوده فلم أجد عنده طبيباً ولا عائداً؛ لأنه فقير، والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء، ويبتنون حب الصفراء والبيضاء^(١)، والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر، فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير.

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه، لأنى لم أجد فيه ذلك الروح

(١) الذهب والفضة.

العالى الذى كان يرفرف بأجنحته فى غرفه وقاعاته، ولم أردُ خان المطبخ، ولم أسمع ضوضاء الخدم، ولا بكاء الأطفال، ولا رنين الأجراس، فكأننى دخلت القبر أزور الميت، لا المنزل أعود الحى.

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته^(١) البالية عن خيال لم يبق منه إلا إهاب^(٢) لاصق بعظم ناحل، فقلت: أيها الخيال الشاخص ببصره إلى السماء، قد كان لى فى إهابك هذا صديق محبوب فهل لك أن تدلنى عليه، فبعد لأى ما^(٣) حرك شفتيه وقال: هل أسمع صوت فلان؟ قلت: نعم، مم تشكو؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه وأجاب: أشكو الكأس الأولى، قلت: أى كأس تريد؟ قال: أريد الكأس التى أودعتها مالى وعقلى وصحتى وشرفى، وهأنذا اليوم أودعها حياتى، قلت: قد كنت نصحتك ووعظتك، وأنذرتك بهذا المصير الذى صرت إليه فما أجديت عليك شيئاً، قال: ما كنت تعلم حين نصحتنى من غوائل هذا العيش النكد أكثر مما أعلم، ولكننى كنت شربت الكأس الأولى، أما هى فلم يجنّها على غير ضعفى وقصور عقلى عن إدراك خداع الأصدقاء والخلطاء.

لم تكن شهوة الشراب مركبة فى الإنسان كبقية الشهوات فيعذر فى الانقياد إليها كما يعذر فى الانقياد إلى غيرها من الشهوات الغريزية، فلا سلطان لها عليه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولى فلم يتناولها؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبين من خلانته وعشرائه خدعوه عن نفسه فى أمرها ليستكملوا بانضمامه إليهم لذتهم التى لا تتم إلا بقراع الكؤوس وضوضاء الاجتماع، ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه، وأى ذريعة تذرعوها بها إلى ذلك، لتحققت أنه أبله إلى النهاية من البلاهة وضعيف إلى الغاية التى ليس وراءها غاية.

(١) الكلة: ستر رقيق ذو ثقب يرفع فوق السرير ليتوقى به من البعوض وغيره.

(٢) جلد.

(٣) يقال: «فعله بعد لأى» أى: بعد مشقة وإبطاء، و«ما» زائدة.

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف، فاسمع كيف خدعنى الأصدقاء وزينوا لى ما زينه الشيطان للإنسان.

قالوا: إن حياتك حياة هموم وأكدار، ولا دواء لهذه الأدوية إلا الشراب، وقالوا: إن الشراب يزيد فى رونق الجسم ويبعث نشاطه، وإنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان، وإنه يشجع الجبان يبعث فى القلب الجرأة والإقدام، فوجدت فيه أربع رزايا: الفقر، والمرض، والسقوط، والجنون.

غرههم من الصحة ذلك اللون الأحمر، الذى يتركه الشراب وراءه فى الأعضاء. وهو يتغلغل فى الأحشاء، ومن الفصاحة الهذر والهذيان، وهجر^(١) القول وبذاءة اللسان، ومن الإقدام العريضة التى لا تسكن إلا فى غرفة السجن، ومن السعادة اللحظات القليلة التى يُعشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هى، فتنعكس فى نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفه، والصفع تحية، فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والممرورين^(٢).

أى سرور لمن يعيش فى منزل لا يزور الابتسام ثغراً من ثغور ساكنيه؟ أى سرور لمن يودعه أهله كل يوم فى صباحه بالحسرات، ويستقبلونه فى مسائه بالزفرات؟ أى سعادة لمن يمشى دائماً فى طريقه ملتويًا متخلجاً^(٣) يتسرب فى المنعطفات والأزقة، ويعوذ بالواذ^(٤) الجدر والأسوار فراراً من نظرات الجزار، وتهكمات العطار، وصرخات الخمار.

ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء فى فاتحة حياتى التعسة فكان يمر بخاطر أمثالى من أنهم قتلى الإدمان لا قتلى الشراب، وكنت أقدر لنفسى القصد فيه إن قدر لى فى أمره شىء حتى لا أبلغ مبلغهم، ولا أنزل منزلتهم، فلما شربت أخطأ العد، وضاع الحساب، وفسد التدبير، واختلف التقدير، وغلبت

(١) الهجر: الفحش.

(٢) الممرور: الذى هاجت مرته، ويطلق على الجنون.

(٣) متشيئاً.

(٤) لوذ الجدار. جانب الجدار. الجمع: الواذ.

على أمرى كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به، ولولا الكأس الأولى ما هلكت، ولا شكوت الذى شكوت ولولاها ما عافنى الأصدقاء، ولا زهد فى الأقرباء، فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء.

فعاهدته على ذلك، ثم تركته فى حالة:

تصم السميع وتعمى البصير ويسأل من مثلها العافية.

[٩١] خاتمة محزنة لشارب الدخان (١)

قال الشيخ حمود التويجى -حفظه الله تعالى-: وحدثنى الثقة من إخواننا فى الله تعالى قال: مر بنا مسافر مريض فأقام عندنا أياماً ثم احتضر فجعلت أوجهه إلى القبلة وكلما وجهته إليها صرف عنها فى الحال، فعلت به ذلك مراراً وفى آخر الأمر صعب على توجيهه إلى القبلة وجعلت ألى رأسه بجهدى لأوجهه إليها فلا يتوجه فتركته على حاله وخرجت روحه ووجهه إلى غير القبلة فجعلت أتعجب من شأنه ثم إنى فتشت متاعه فوجدت فيه صرة من تن (٢) وآلته التى يشرب بها (٣).

وحدثنى أيضاً الثقة المشار إليه عن بعض القضاة فى نواحى القصيم أنه حضر عند رجل قد احتضر وكان ممن يشرب الدخان قال: فجعلت أوجهه إلى القبلة فيصرف عنها حتى خرجت روحه وهو إلى غير القبلة.

وحدثنى بعض المشائخ عن الشيخ محمد بن عبد اللطيف -رحمه الله تعالى- أنه حدثهم أنهم سافروا من مكة إلى المدينة ومعهم رجل من أهل قطر كثير الصلاة وأفعال الخير إلا أنه كان يشرب الدخان قال: فمات فى الطريق فصرف عن القبلة وكلما وجهناه إلى القبلة صرف عنها.

(١) «قصص وعبر» «لعبد الله بن يوسف العجلان» (ص ٢٥-٢٧).

(٢) تن: تبغ.

(٣) أى: هذا الدخان.

وحدثني شيخ آخر أن رجالاً من أهل البادية حدثوه قال: وكانوا أهل دين وصلاح أنهم سافروا ومعهم رجل يشرب الدخان فمات فدفنوه في غار قالوا: وكنا نسمع أن شارب الدخان إذا مات يصرف عن القبلة فلما رجعنا من سفرنا ومررنا بالغار نقبناه فوجدنا صاحبنا مصروفاً عن القبلة.

وحدثني شيخ آخر عن الشيخ عثمان بن بشر وكان قاضياً في بعض نواحي القصيم أنه حدثه أن رجلاً مات عندهم وكان كثير الصلاة لا يعاب بشيء إلا أنه كان يشرب الدخان، قال الشيخ عثمان: فنزلت في قبره ووضعته في اللحد موجهاً إلى القبلة فلما أخذت اللبنة لأضعها على اللحد إذا هو مصروف عن القبلة ظهره إلى القبلة ووجهه إلى الجهة الأخرى فوجهته إلى القبلة ثم ذهبت لأخذ اللبنة فإذا به قد صرف عن القبلة، فوجهته إليها المرة الثالثة فصرفت عنها فتركته على حاله مصروفاً عن القبلة.

وحدثني غير واحد من الثقات عن الشيخ عثمان بن بشر أيضاً أن العاملين على الزكاة مروا بهم ومعهم رجل كثير الصلاة وأفعال الخير إلا أنه كان يشرب الدخان فلما فرغوا من عملهم ومروا بهم إذا الرجل ليس معهم فسألوه عن فأنخبرهم العاملون أنه مات على بعض المياه وأنهم أخذوا فأساً من بعض الأعراب فحفروا له قبراً ودفنوه فلما فرغوا من دفنه وجدوا عود الفأس ولم يجدوا الفأس فقالوا للأعرابي: إنا قد وجدنا عود الفأس ولم نجد الفأس ولا شك أنه قد سقط في القبر حين وضعنا الميت فيه وطلبوا من الأعرابي أن يأخذ منهم قيمة فأسه فأبى إلا أن يحفروا عن الميت ويأخذوا الفأس من القبر فحفروا القبر فإذا الميت قد جمع رأسه ويده ورجلاه في حلقة الفأس.

أ. هـ

قال الشيخ محمد جميل زينو -حفظه الله-: «حدثني رجل صادق أنه شاهد طبيباً يشرح جثة ميت فلما كشف عن رثيته طلب من الناس الذين

حواله أن يشاهدوا رئة هذا المدخن التي علاها طبقة سوداء من القطران وأخذ يسلت بيده الرئة ويعصرها فيسيل منها القطران حتى وصل إلى داخل الرئة فوجدها مسدودة الثقوب التي يتنفس بها الإنسان الهواء والتي سببت موت هذا المدخن الأحمق الذي قتل نفسه بدخانها، وقد طلب هذا الطبيب من أحد الحاضرين أن يشعل سيجارة وينفخ على شاشة بيضاء حتى اصفرت ومازال الطبيب يطلب من المدخن تكرار النفخ حتى سُدَّت ثقوب الشاشة ثم التفت الطبيب إلى الحاضرين قائلاً: إذا كانت هذه السيجارة استطاعت أن تسد ثقوب الشاشة بدخانها فكيف بدخان مئات السجائر التي تدخل صدر المدخن ورئتيه .

وقال أيضاً: حدثني مهندس زراعى أن شجرة التبغ لا يقربها حيوان ولا طائر لأنهم بغريزتهم يعرفون ضررها^(١) أ.هـ.

[٩٢] جزء من لا يطفى^(٢)

يقول الشيخ القحطاني في محاضرة له: «إن بعض الأموات عندما كنت أغسلهم كان بعضهم تنقلب بشرته إلى السواد، وبعضهم يقبض يده اليمنى، وبعضهم يدخل يده في فرجه، وبعضهم تشم رائحة الشواء تخرج من فرجه، وبعضهم تسمع كأن أصياخاً من نارٍ أُدخلت في فرجه .

يقول: ولقد جيء بميت فلما ابتدأنا بتغسيله انقلب لونه كأنه فحمة سوداء، وكان قبل ذلك أبيض البشرة. فخرجت من مكان التغسيل وأنا خائف فوجدت رجلاً واقفاً فقلت له: هذا الميت لكم؟ قال: نعم. قلت: أنت أبوه؟! قال: نعم. قلت: ما شأن هذا الرجل؟ قال: هذا الرجل كان لا يصلى. فقلت له: خذ ميتك فغسله .

(١) «قصص وعبر» لعبد الله بن يوسف العجلان (ص ٣٠، ٣١).

(٢) «التحذير من سوء الخاتمة، لعبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني» ص (٣٣-٣٤).

[٩٣] الشيخ القحطاني يخرج من القبر فرعاً^(١)

قال الشيخ القحطاني: خرجت ذات يوم من المقبرة بعد صلاة العصر وكنا قد قبرنا رجلاً، وكان الطين عالقاً في يدي فأردت أن أغسلها إذ جاءت جنازة فقال أحدهم وكانوا في حدود الخمسين رجلاً: بالله عليك أن تساعدنا في قبر هذا الرجل فوالله لا نحسن القبر. فسللت الرجل من جهة الرجلين وكان ثقيلاً فأعانني عليه بعضهم فوضعتهم في القبر وطلبت لبنة^(٢) أضعتها تحت رأسه وقد حللت الأربطة، فنظرت فإذا برأس هذا الميت قد تحول -عياداً بالله- من القبلة هكذا -فحول الشيخ رأسه- فقامت برد هذا الميت إلى القبلة، وأخذت اللبنة الثانية ولكنني في هذه المرة وجدت عينيه قد فتحتا وأنفه وفمه يصبان الدم الأحمر القاني فداخلني الخوف والوجل حتى إن رجلى لم تستطعا أن تحملاني داخل القبر، وقد رأى معي اثنان أو ثلاثة هذا المشهد الغريب الخطير، ثم أعطوني اللبنة الثالثة فوجدت أنه تحول في المرة الثالثة فتركته وهربت من القبر نهائياً، فقام الذين كانوا معي وتولوا عملية الدفن فردموه بالتراب، ولم يغلقوا اللحد من شدة الخوف، ثم صرت أرى هذا الميت في المنام سبع أو ثمانى مرات حتى سكن الله قلبي عندما ذهبت إلى العمرة وجلست هناك في حدود خمسة عشر يوماً حتى نسيت وعدت إلى الرياض.

[٩٤] أطاع والده وعصى ربه

قال أحد الفضلاء: كنا في رحلة دعوية إلى الأردن، وفي ذات يوم وقد صلينا الجمعة في أحد مساجد مدينة الزرقاء، وكان معنا بعض طلبة العلم، وعالم من الكويت، وبينما نحن جلوس في المسجد وقد انصرف الناس، إذا يقوم يدخلون باب المسجد بشكل غير طبعي، وهم يصيحون: أين الشيخ؟ أين الشيخ؟ وجاءوا إلى الشيخ الكويتي فقالوا له: يا شيخ، عندنا شاب توفي

(١) «التحذير من سوء الخاتمة» ص (٣٤-٣٦).

(٢) هي: كما تقول العامة «الطوبة».

صباح هذا اليوم عن طريق حادث مرورى، وإنما عندما حفرنا قبره ووضعناه فيه إذا بنا نفاعاً بوجود ثعبان عظيم فى القبر ونحن الآن لم نضع الشاب وما ندرى كيف نتصرف؟

يقول الراوى:

فقام الشيخ وقمنا معه، وذهبنا إلى المقبرة، ونظرنا فى القبر فوجدنا فيه ثعباناً عظيماً قد التوى، رأسه من الداخل وذنبه من الخارج، وعينه بارزة، يطالع الناس.

يقول الراوى:

فقال الشيخ: دعوه، واحضروا له مكاناً آخر، يقول: فذهبنا إلى مكان آخر بعد القبر الأول بمائتى متر تقريباً، فحفرناه وبينما نحن فى نهايته إذا بالثعبان يخرج، فقال الشيخ: انظروا القبر الأول، فذهبنا إلى الأول فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض وخرج من القبر الأول مرة أخرى.

قال الشيخ: لو حفرنا ثالثاً ورابعاً سيخرج الثعبان، فما لنا حيلة إلا أن نحاول إخراجه.

يقول الراوى:

فجئنا بأسياخ وعصى فانحمل معنا، وخرج من القبر، وجلس على شفيره، والناس كلهم ينظرون إليه، وأصاب الناس ذعر وخوف، حتى أن بعضهم حصل له إغماء، فحملته سيارة الإسعاف.

وحضر رجال الأمن ومنعوا الاتصال بالقبر إلا عن طريق العلماء وذوى الميت.

يقول الراوى: وبينما جئنا بالجنائز وأدخلت القبر إذا بذلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة ثار على أثرها الغبار، ثم دخل من أسفل القبر، فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف، والتوى الثعبان على ذلك الميت، بدأ من رجليه حتى وصل رأسه ثم اشتد عليه فحطمه.

يقول الراوى: إنا كنا نسمع تحطيم عظامه كما تحطم حزمة الكراث.
يقول الراوى: ثم لما هدأت الغبرة وسكن الأمر جئنا لننظر فى القبر،
وإذا الحال كما هى عليه من تلوى ذلك الثعبان على الميت، وما استطعنا أن
نفعل شيئاً.

وقال الشيخ: اردموه، فدفناه، ثم ذهبنا إلى والده فسألناه عن حال ابنه
الشاب؟ فقال: إنه كان طيباً مطيعاً إلا أنه كان لا يصلى. نعوذ بالله تعالى من
سوء الختام.

[٩٥] صاحب الروائح الكريهة

وها هو أحد الفضلاء يقول: حدثنى أحد الذين يدرسون فى معهد من
المعاهد العلمية فى بلادنا يقول: أقسم بالله ثلاثاً وليس لى حاجة أن أكذب
إننى كنت مريضاً فى أحد المستشفيات، فأتى بمريض بجانبى فى الغرفة التى
كنت مطروحاً فيها على السرير.

يقول: وكان ذلك المريض أصفر اللون فإذا به فى اليوم التالى ينقلب
وجهه إلى الحنطى، وفى اليوم الثالث يكون لونه كأمثالنا.
يقول: فقلت: لعله قد بدأ يتحسن.

ولكن للأسف جاء اليوم الرابع فإذا بلونه ينقلب إلى الأسود. وفى اليوم
الخامس يشتد سواده أكثر فأكثر. يقول: فارتعدنا وخفنا من هذا الرجل وقد
كنت أعرفه قبل ذلك، كان ممن يتخلف عن الصلوات، كان ممن يسافر خارج
البلاد، ويتعامل بالمخدرات ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اقتربت منه وبدأت أقرأ عليه القرآن، فإذا به تخرج منه روائح كريهة
متنتة - عياداً بالله - يقول: ولما بدأت أقرأ عليه القرآن شهق شهقة عظيمة،
فخفت وابتعدت، فقال لى مريض آخر: واصل القراءة، فقلت: والله لن أقرأ
عليه. قال: اذهب إلى فلان فى الغرفة المجاورة، وناده ليقرأ عليه فجاء هذا

الشاب الآخر وبدأ يقرأ عليه . يقول : فشهب شهقة أخرى عظيمة ، وما زال يواصل القراءة عليه حتى شهب للمرة الثالثة شهقة مخيفة . ثم طلبوا الطبيب ، فجاء ، ووضع السماعة على صدره ، ثم قال : لقد مات .

نعم ، لقد مات وفارق الحياة ، وكانت له هذه الخاتمة السيئة ، لأنه كان مسيئاً في جنب الله ، غير مراعاة لحدوده ، ومن كان على هذه الحال من الضياع والفساد فحقه أن يختم له بذلك جزاء وفاقاً ، وما ربك بظلام للعبيد .

[٩٦] عاقبة الزنا والفجور

● وما هو شاب من أولئك المنحرفين الذين كانوا يسافرون إلى «بانكوك» للفسق والدعارة ، بينما كان في سكره وغيه ينتظر خليلته - وقد تأخرت عليه- فما هي إلا لحظات حتى أقبلت عليه ، فلما رآها خرّ ساجداً لها تعظيماً ، ولم ينهض من تلك السجدة الباطلة إلا وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة ، فنعوذ بالله من سوء الخاتمة .

● وما هم أربعة من الشباب كانوا يعملون في دائرة واحدة ، مضت عليهم سنين وهم يجمعون رواتبهم ، فإذا سمعوا ببلد يفعل الفجور طاروا إليها ، وبينما هم في ذات يوم جالسين إذ سمعوا ببلاد لم يذهبوا إليها ، وعقدوا العزم أن يجمعوا رواتبهم هذه المرة ليسافروا إلى تلك البلاد التي جددوها وجاء وقت الرحلة وركبوا طيارتهم ومضوا إلى ما يريدون ، ومر عليهم أكثر من أسبوع في تلك البلاد وهم بين زنا وخمور ، وفعال لا ترضى الرحمن ، بينما هم في ليلة من الليالي ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، يجاهرون الله تعالى بالمعصية والفجور ، نعم بينما هم في غمرة اللهو والمجون إذا بأحد الأربعة يسقط مغشياً عليه ، فيهرع إليه أصحابه الثلاثة فيقول له أحدهم في تلك الليلة الحمراء ، يقول له : يا أخى قل لا إله إلا الله ، فيرد الشاب -عياداً بالله- : إليك عنى ، زدنى كأس الخمر وتعالى يا فلانة ، ثم فاضت روحه إلى الله وهو على تلك الحالة السيئة ، نسأل الله -تعالى- السلامة والعافية .

ثم كان حال الثلاثة الآخرين لما رأوا صاحبهم وما آل إليه أمره أنهم أخذوا يبيكون، وخرجوا من المرقص تائبين وجهزوا صاحبهم، وعادوا به إلى بلاده محمولاً في تابوت، ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته، فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسواد -عياداً بالله-.

[٩٧] ثمرة البعد عن رب العالمين

● وها هو شاب -كان من العابثين- يحكى عنه أنه حصل له حادث مروع في طريق مكة إلى جدة.

قال الراوى الذى حضر المشهد: فلما رأينا منظر السيارة ومشهدها الخارجى، قلت أنا ومن معى من الأخوة: ننزل، فننظر ما حال هذا الإنسان، وكيف أصبح، فلما اقتربنا من الرجل وجدناه فى النزع الأخير من حياته، ووجدنا مسجل السيارة مفتوحاً على أغان غربية باطلة، يقول: فأغلقتنا المسجل، ثم نظرنا إلى الرجل وما يعانيه من سكرات الموت، فقلنا: هذه فرصة لعل الله -عز وجل- أن يجعل على أيدينا فلاح هذا الرجل فى دنياه وآخرته، فأخذنا نقول له: يا هذا، قل: لا إله إلا الله.

أتدرى يا أخى بماذا تكلم فى آخر رمق من حياته؟! ليتته ما نطق، لقد قال كلمة رهيبة عظيمة. لقد قال -عياداً بالله تعالى من ذلك- قال بكلمته العامية: «يلعن دينك ودين دينك، ما بدى أصلى ولا بدى أصوم» ثم مات على هذه الحال. نعوذ بالله تعالى من الخذلان.

[٩٨] نهاية محمد بن عبد الله القمطانى الذى ادعى أنه المهدي المنتظر^(١)

فى صباح يوم الثلاثاء غرة شهر محرم للعام الهجرى (١٤٠٠هـ) المكمل للقرن الرابع عشر. حدث أمر عظيم. ظهرت جماعة من الخوارج وتسلفت سراً كمصلين وعباد وبحوزتهم أسلحة واحتلت بيت الله الحرام المكى

(١) «أدعياء النبوة الكاذبة» (١٩ : ٢٥).

والناس يصلون فيه صلاة الفجر يتزعمهم «جهيمان العتيبي». فقام محمد بن عبد الله القحطاني وادعى لنفسه أنه (المهدى المنتظر) كذباً وزوراً.

الشياطين تعظ

بعد احتلال بيت الله الحرام من هؤلاء الخوارج وإغلاق أبواب الحرم على المصلين والطائفين بداخله قام جهيمان العتيبي يعظ المصلين ومعه بعض البوعاظ من زممرته يعظون الناس ويحشدون الأحاديث عن المهدى المنتظر ثم طلبوا من الناس داخل الحرم مبايعة مهديهم المزعوم.. كل الأحاديث التي أوردوها في خطبهم لم توهم الناس ولم يصدقوا هؤلاء الخوارج لعنهم الله.

تهديد المصلين بالموت

قام جهيمان وزمرته بتهديد المصلين بالقوة بمبايعة صاحبهم المهدى. فلجأوا إلى قتل الناس في الحرم بالرصاص ثم قتلوا حراس الحرم العزل لأن الحكومة لم تجعل قوة في الحرم لأن بيت الله مفتوح لعبادة الله فيه في أى زمن كان.

علمت الحكومة السعودية بالحادث

عندما علمت الحكومة بالحادث أمرت القوات المسلحة بتطويق البيت الحرام وعدم إطلاق النار على الخوارج حتى تصدر الأوامر من ولي الأمر جلالة الملك خالد بن عبد العزيز وولي عهده الأمير فهد. ثم أذيع بياناً من الإذاعة السعودية عن الحادث.

الفتوى الشرعية

المملكة العربية السعودية دستورها القرآن تحكم بما أنزل الله فيه.. عرض الأمر على أصحاب الفضيلة العلماء وطلب منهم إصدار فتوى شرعية عن هؤلاء الجماعة الخوارج الذين قتلوا الناس في بيت الله الحرام وعطلوا الصلوات فيه.. فصدرت الفتوى من علماء السعودية بجواز قتال هذه الطائفة

الباغية. وأيدت الفتوى من علماء وزعماء العالم العربي والإسلامي ومن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ومن الشعب العربي السعودي.

الجيش يتدخل لتطهير البيت

بعد الفتوى أمر جلالة الملك وولي عهده القوات المسلحة المشتركة بتطهير البيت من البغاة مع التعليمات اللازمة عن كيفية التطهير. . . والحمد لله تم التطهير أولاً بأول بعد قتال شديد لأن بيت الله الحرام حصن حصين. وتم تطهير البيت في زهاء خمسة عشر يوماً.

استسلام جهيمان العتيبي

استسلم جهيمان الطاغية ومن بقي من زمريته أحياء. أما المهدي المزعوم فوجدت جثته متعفنة في الحرم من رصاصات أصابته في منكبته وقد تعرف عليه أحد أقاربه.

محاكمة شرعية

تمت محاكمة جهيمان وزمريته محاكمة شرعية علنية وتم حكم الإعدام فيه ومن معه وعددهم ٦٣ شخصاً قصاصاً ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ ونفذ الإعدام فيهم في مكة المكرمة وفي بعض مدن المملكة وذلك يوم الأربعاء الموافق ٢١/٢/١٤٠٠هـ وأفرج عن ٣٨ من الخوارج لم تثبت إدانتهم لأنه غرر بهم.

عدد الشهداء

استشهد في تطهير الحرم من القوات المسلحة المشتركة ما يزيد عن ١١٥ شهيداً وعدد المصابين من الضباط وضباط صف والجنود ما يزيد عن ٤٦١ مصاباً.

عدد القتلى من الخوارج

حسب الإحصائيات الرسمية من وزارة الداخلية قتل منهم ٧٥ شخصاً.

وبهذا انتهت الفتنة . . وفتح الحرم الشريف أبوابه للمصلين والطائفين . هذا ونسأل الله أن يعيدنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

[٩٩] عاقبة الظلم وخيمة فاحذره

قال الشيخ سيد العفانى «حفظه الله»:

وهذه قصة واقعية من أيامنا هذه، ترسلها زوجة إلى جريدة الأهرام ونشرها محرر «بريد الجمعة» عبد الوهاب مطاوع فى مقاله تحت عنوان «الضوء الأخير!».

دفعنى للكتابة إليك بيتا الشعر اللذان قرأتتهما فى ردك على إحدى الرسائل ويقولان:

إنما الدنيا هبات وعوار مسترده
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شده

فأردت أن أروى لك قصتى عسى أن تكون عبرة لغيرى . فأنا زوجة وأم لفتاة بالسنة النهائية بإحدى الكليات النظرية ولابن شاب متزوج ولديه طفلان، وزوجى ضابط عسكري بالمعاش، ونعيش فى أحد أحياء القاهرة، ومنذ أن بدأت حياتى مع زوجى ونحن نعيش حياة رغدة، وقد استعنت طوال حياتى الزوجية على تربية أولادى بمربيات عديدة، لا أتذكر عددهن من كثرتهن، ولا عجب فى ذلك، فقد كانت كل واحدة منهن لا تمكث عندى أكثر من شهرين، ثم تفر من قسوة زوجى العدوانى بطبعه، والذى لا أعرف هل اكتسب عدوانيته هذه خلال رحلة حياته أم أنها وراثية فيه، فقد كان يتفنن فى تعذيب أى مربية تعمل عندنا، ولا أنكر أنى شاركته فى بعض الأحيان جريمته .

ومنذ خمسة عشر عاماً، وابنتى فى السابعة من عمرها، وابنى فى المرحلة الإعدادية جاءنا مزارع من معارف زوجى، ومن أبناء بلدته، يصطحب

معها ابنته الطفلة ذات الأعوام التسعة، فاستقبله زوجي بكبرياء وترفع. وقال المزارع البسيط: إنه أتى بابنته لتعمل عندنا مقابل عشرين جنيهاً في الشهر ووافقنا، وترك المزارع المكافح طفله الشقراء، فانخرطت الطفلة في البكاء، وهي تمسك بجلباب أبيها، وتستحلفه ألا يتأخر عن زيارتها، وألا ينسى أن يسلم لها على أمها وإخوتها، وانصرف الرجل دافع العينين، وهو يعدها بما طلبت. وبدأت الطفلة حياتها الجديدة معنا، فكانت تستيقظ في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ طفلاي لتساعدني في إعداد طعام الإفطار لهما، ثم تحمل الحقائب المدرسية وتنزل بها إلى الشارع، وتظل واقفة مع ابنتي وابني حتى يحملهما أتوبيس المدرسة، وتعود للشقة فتتناول طعام إفطارها وكان غالباً من الفول بدون زيت، وخبز على وشك التعفن، وفي بعض الأحيان قد نجود عليها بقليل من العسل الأسود أو الجبن، ثم تبدأ في ممارسة أعمال البيت من تنظيف وشراء الخضر والمسح، وتليية النداءات حتى منتصف الليل، فتسقط على الأرض كالقتيلة وتستغرق في النوم. وعند أي هفوة أو نسيان أو تأجيل أداء عمل مطلوب ينهال عليها زوجي ضرباً بقسوة شديدة، فتتحمل الضرب باكية صابرة، ورغم ذلك فقد كانت طفلة في منتهى الأمانة والنظافة والإخلاص لمخدوميها، تفرح بأبسط الأشياء، وتغني غناءً حزيناً خافتاً يعبر عن شوقها لبلدتها وأمها وإخوتها وهي تغسل الأطباق، ورغم اعترافي بأنني كنت شريكة لزوجي في قسوته على الخادما، وتفننه في تعذيبهن، حتى أنه كان أحياناً يخلق الأسباب لضرب أي خادمة تعمل عندنا، إلا أنه كانت تأخذني الشفقة في بعض الأحيان بهذه الفتاة، لطيبتها، وانكسارها وإخلاصها، فأناشد زوجي ألا يضربها، وأقول له: إنها قد كبرت وتعودت على طباعتها، وتحملتنا كثيراً فلا داعي للاستمرار في ضربها، فكان يقول لي مقهقهاً: إنه لو لم يضربها فإنها ستطلب منه أن يضربها؛ لأنها قد تعودت عليه، وأن هذا «الصف» من الناس لا تجدى معه المعاملة الطيبة، واستمرت الفتاة تتحمل العذاب في صمت وصابر، وأتذكر الآن بأنني حين كان العيد يأتي ويخرج طفلاي مبتهجين مهللين، بينما تبقى هذه الطفلة التي تماثلهما في

العمر تنظف وتغسل دون شفقة، وبعد أن تنتهي من أعمالها الشاقة ترتدى فستاناً قديماً لكنه نظيف، لأنها كانت تحرص على نظافة ملابسها البسيطة، أما أبوها فلم تره تلك الطفلة إلا مرات معدودة بعد عملها عندنا، فقد انقطع عن زيارتها بعد شهور، وبدأ يرسل أحد أقاربه لاستلام أجرتها الشهرية، كما لم تر أمها وإخوتها إلا في ثلاث مناسبات محددة، الأولى حين مات شقيقها الأكبر في حادث عند عودته من الأردن، وكانت الفتاة المحرومة تعلق أملاً كبيراً على عودته، وتحلم بأن ينتشلها من العذاب الذي تعانيه عندنا، فإذا به يلقي مصرعه، وتفقد آخر أمل لها فبكته بحرقة وسراً حتى لا يراها زوجي، فتلقى عقاباً على يديه.

والمرة الثانية لم تكن تعطفاً منا عليها، وإنما كانت تخلصاً منها في الحقيقة فقد كانت مريضة بمرض معد، وخشينا على طفلينا من انتقال العدوى إليهما، فأبعدناها إلى بلدتها بحجة أن ترى أمها وإخوتها.

وكانت المرة الثالثة عند وفاة أبيها بعد أن دخلت مرحلة الصبا، واستقر الحزن والانكسار في قلبها.

وأرجو أن تصدقني يا سيدي، إذ ليس لدى ما يبرر أن أدعى شيئاً غير صادق، وأنا كتبت لك بإرادتي، إذا قلت أني أبكي الآن كلما تذكرت قسوة عقابنا لها إذا أخطأت أي خطأ، وكان لابد أن تخطئ، كأى طفلة، وكأى إنسان، فقد كان زوجي يصعقها بسلك الكهرباء! وكثيراً ما حرمانها من وجبة العشاء في ليالي البرد القاسية، فباتت على الطوى جائعة. ولا أتذكر أنها نامت ليلة لمدة سنوات طويلة دون أن تبكى!

وسوف تتساءل ولماذا تحملت كل هذا العذاب ولم تهرب بجملدها من جحيمكم؟ وأجيبك بأن الفتاة حين قاربت سن الشباب خرجت ذات يوم لشراء الخضروات ولم تعد، فسأل زوجي البواب عنها، وعرف أنها كانت تتحدث لفترات طويلة مع شاب يعمل لدى جزار بنفس الشارع، وأنه من المحتمل أن تكون قد اتفقت معه على أن يتزوجها وينتشلها من هذه الحياة،

فلم يمض أسبوع حتى كان نفوذ زوجي قد تكفل بإحضارها من مخبئها، واستقبلناها عند عودتها استقبالاً حافلاً بكل أنواع العذاب، فقام زوجي بصعقها بالكهرباء، وتطوع ابني بركلها بعنف، بينما بكت ابنتي وهي تقول لأبيها: حرام يا بابا حرام.. حرام.. ففقد سيطرته على نفسه واستدار إليها وضربها هي أيضاً، وكانت المرة الأولى في حياتها التي يضربها فيها أبوها!.

وعادت الفتاة لحياتها الشقية معنا، واستسلمت لمصيرها، واستمر الوضع كما كان عليه، تخطئ أو تؤجل عمل شيء بعض الوقت، فيضربها زوجي ضرباً مبرحاً، ونخرج في الإجازات إلى منطقة الأهرامات لنستمتع بشيء من اللحم، ونترك لها بقايا طعام الأسبوع لتأكله.. إلخ ثم شيئاً فشيئاً بدأنا نلاحظ عليها أن الأكواب والأطباق تسقط من يديها، وأنها تتعثر كثيراً في مشيتها، فعرضناها على الطبيب فأكد لنا أن نظرها قد ضعف جداً، وأنه ينسحب تدريجياً، وأنها لا ترى حالياً ما تحت قدميها، أى أنها أصبحت شبه كفيفة، ورغم ذلك فلم نرحمها، وظلت تقوم بكل أعمال نظافة المسكن، وتخرج لشراء الخضر كما كانت تفعل، بل وكثيراً ما صفعتها إذا عادت من السوق بخضراوات ليست طازجة وكثيراً ما كانت تفعل لضعف بصرها الشديد، فأشفقت عليها زوجة البواب، فكانت تجلسها في مدخل العمارة وتذهب هي لشراء الخضراوات لها، حتى تنقذها من الإهانة والضرب، واستمر الحال هكذا لفترة من الزمن، ثم خرجت الفتاة ذات يوم من البيت بعد أن أصبحت كفيفة تقريباً، ولم تعد إليه مرة أخرى، ولم نهتم بالبحث عنها هذه المرة.

ومضت السنوات فأحيل زوجي للتقاعد، واستقبل حياة الفراغ، وفقد المنصب والنفوذ -أسوأ استقبال فتضاعفت عصبية وثوراته، وانفلاتاته إلى حد غير محتمل، ومع ذلك فقد تحملته بسبب عشرة السنين.

وتخرج ابني في الجامعة وعمل، ثم أراد أن يخطب إحدى زميلاته، فخطبناها له، وهي فتاة رائعة الجمال، وتزوجها وسعدنا بها واكتملت سعادتنا

حين عرفنا أنها حامل، ثم جاءت اللحظة السعيدة، ووضعت مولودها فإذا بنا نكتشف لصدمتنا القاسية أنه كيف لا يبصر، وتحولت الفرحة إلى سحابة كثيفة من الحزن القاتم، وبدأنا الرحلة الطويلة مع الأطباء بلا فائدة، واستسلم ابني وزوجته للأمر الواقع، وانطفأ الأمل في قلوبهما، وأدخلنا حفيدنا الموعود بالعناء حضانة للمكفوفين، وقررت زوجة ابني ألا تحمل مرة أخرى خوفاً من تكرار الكارثة، لكن الأطباء طمأنوها إلى أن هذا مستحيل؛ لأنه لا توجد صلة قرابة بينها وبين زوجها تؤكد العوامل الوراثية، وشجعوها على الحمل وإنجاب طفل آخر يعيد البسمة إلى حياتها وزوجها، وشجعناها نحن أيضاً على ذلك على أمل أن يرزق ابننا بطفل طبيعي يخفف من حزنه وصدمته في طفله الأول. وحملت زوجة ابني، وأنجبت طفلة جميلة شقراء نزلت إلى الحياة، فتوقفت قلوبنا حتى زف الطبيب البشرى بأنها ترى وتبصر، كالأطفال العاديين، وسعدنا بها سعادة مضاعفة، وانهالت عليها وعلى شقيقها اللعب والملابس والهدايا، وبعد سبعة شهور، لاحظنا عليها أن نظرها مركز في اتجاه واحد لا تحيد عنه، فعرضناها على أخصائي عيون للاطمئنان على سلامة عينيها، فإذا به يصدمننا بحقيقة أشد هولاً، وهي أنها لا ترى إلا مجرد بصيص من الضوء، وأنها معرضة أيضاً لفقد بصرها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ورأى زوجي ذلك، فأصيب بحالة نفسية فسدت معها أيامه، وكره كل شيء، ثم تطورت حالته حتى نصحنا الطبيب بإدخاله مصحة نفسية لعلاجه من الاكتئاب، وانقبض قلبي، وأحسست بهموم الدنيا تطأ صدرى بقسوة، وفي ضيقتي وأحزاني تذكرت فجأة الفتاة الكسيرة التي هربت من جحيمنا كفيفة بعد أن أمضت معنا عشر سنوات ذاقت خلالها أهوال الصعق بالكهرباء والضرب والهوان والحرمان، وساءلت نفسي في جزع هل هذا عقاب السماء لنا على ما فعلنا بها؟

وأصبحت صورة هذه الفتاة اليتيمة التي أهملنا علاجها وتسببنا في كف بصرها تطاردني في وحدتي، وتعلق أملى في عفو ربي عما جئنا في أن أجد هذه الفتاة، وأكفر عما فعلنا بها، ورحت أسأل الجميع حتى دلنا أحد الجيران

إلى مكانها، وعلمنا أنها تعمل خادمة بأحد المساجد، فذهبت إليها وأحضرتها لتعيش معي ما بقي لي من أيامي، ورغم كل قسوة الذكريات فقد فرحت بسؤالها عنها وسعيت إليها لإعادتها، وحفظت العشرة التي لم نحفظها، وعادت معي تتحسس الطريق وأنا أمسك بيدها. وفرحت بسماع صوت ابنتي الشابة التي طالما أحببتها هذه الفتاة الطيبة في طفولتها وصبابها، وبسماع صوت ابني الذي عرف طريقه إلى قلبه، واستقرت الفتاة معنا، وأصبحت أرهاها بل وأخدمها هي وحفيدي الكفيفين.. وأملى ودعائي لربي أن يغفر لي ما كان، وأن أقول لمن نضبت الرحمة من قلوبهم: إن الله حي لا ينام، فلا تقسوا على أحد فسوف يجيء يوم تطلبون فيه الرحمة من أرحم الراحمين، وتندمون على ما فعلتم في قوتكم وجبروتكم..

هذه هي قصتي يا سيدي التي دفعني بيتا الشعر اللذان قرأتهما في ردك لأن أرويها لك، وأرجو أن يقرأها الجميع ويعتبروا بما فيها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[١٠٠] جزء من عرض بالنبي - ﷺ - (١)

قال الشيخ أحمد محمد شاكر في كتابه «كلمة حق»: «أن الملك فؤاد كان يصلي الجمعة في عابدين، فأتوا بالشيخ محمد المهدي، لأنه كان رجلاً مفوهاً وكان الملك فؤاد يحب أن يصلي وراءه دائماً. فعينته وزارة الأوقاف في مسجد عابدين. فصادف في هذه الفترة رجوع «طه حسين» بالدكتوراة في اللغة العربية من فرنسا. وكان الملك فؤاد هو الذي امتنَّ عليه وأرسله للدراسة في فرنسا. فأراد الخطيب محمد المهدي أن يثنى على الملك فؤاد لأنه أكرم الأعمى «طه حسين» فقال: «ما عبس ولا تولى لما جاءه الأعمى». يريد بذلك التعريض بالنبي - ﷺ - حيث قال الله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ

(١) هذه القصة ذكرها الشيخ أبو إسحاق الحويني في شريطه «حكم سب النبي - ﷺ -» بتصرف.

الأعمى ﴿١﴾ إذا فصنيع الملك فؤاد أفضل من صنيع النبي - ﷺ - في نظر هذا الخطيب الذى باع دينه بثمان بخس دراهم معدودة.

وكان الشيخ محمد شاکر والد الشيخ أحمد شاکر موجوداً حيث أنه كان يعمل وكيلاً للجامع الأزهر. فقام وقال: «أيها الناس صلاتكم باطلة والخطيب كافر، فأعيدوا صلاتكم، فحدث شىء من الهرج والمرج والملك واقف. ثم ذهب إلى قصر عابدين ومعه للملك فتوى يأمره بصلاة الظهر. وكان هذا الرجل (محمد المهدي) له ظهر وله مستشارون، فأفنعوه أن يرفع جناحة رد شرف على الشيخ محمد شاکر.

وأرسل الشيخ محمد شاکر إلى مستشرقين أجانب ممن لهم خبرة بدلالات الألفاظ على المعانى، وأراد أن يستقدمهم ليقول لهم هل استخدام الخطيب لهذه العبارة فيها التعريض بالمقام النبوى الشريف أم لا. ولم يلجأ لعلماء الأزهر حتى لا يقال: انحازوا له. فلما علم أن هذه القضية ستحدث فتنة، وأن هذا الخطيب لا بد أنه سيخسر هذه القضية نهوه عنها.

فيقول الشيخ محمد شاکر - وأقسم بالله -: لقد رأيت هذا بعينى، طال الزمان بالرجل «محمد المهدي» الذى كان من أشهر خطباء مصر حتى أن الملك فؤاد كان يحرص على الصلاة خلفه، فلقد رأيت: خانعاً ذليلاً فراشاً لأحد المساجد، يتلقى نعال المصلين، فتواريت عنه وهو يعرفنى، وأنا أعرفه حتى لا يرانى، ولست مشفقاً عليه فليس موضعاً بالشفقة.

قلت: فقد عجل الله له العقوبة فى الدنيا قبل الآخرة نعوذ بالله من

الخذلان.

(١) سورة عبس: ١، ٢.

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
١ - نهاية أشقى الخلق «إبليس اللعين» زعيم الهالكين	٧
٢ - نهاية الطمع وعدم الرضا	٩
٣ - نهاية قوم نوح	١١
٤ - لا عاصم اليوم من أمر الله	١٣
٥ - نهاية عاد	١٦
٦ - نهاية ثمود	٢٢
٧ - نهاية النمرود بن كنعان «رجل عذبه الله ببعوضة»	٢٩
٨ - نهاية قوم إبراهيم	٣١
٩ - نهاية قوم لوط	٣٤
١٠ - نهاية سبأ	٤٢

- ١١ - نهاية عمرو بن لحي الخزاعي ٥١
- ١٢ - نهاية فرعون ٥٤
- ١٣ - نهاية السامري ٦٧
- ١٤ - نهاية قارون ٦٩
- ١٥ - نهاية بلعام بن باعوراء ٧٣
- ١٦ - مسح بني إسرائيل إلى قردة وخنازير ٧٦
- ١٧ - نهاية مدين «قوم شعيب» ٨٥
- ١٨ - نهاية قاتلة يحيى بن زكريا ٩٥
- ١٩ - نهاية أصحاب الأخدود ٩٦
- ٢٠ - إن آيت إلا ذبحى فاذبحنى عند تلك الصخرة ١٠١
- ٢١ - نهاية النضير بنت الساطرون - قتلت أباهما فقتلها القاتل ... ١٠١
- ٢٢ - نهاية أبرهة ١٠٢
- ٢٣ - عاقبة التكبر على الناس ١٠٥
- ٢٤ - نهاية معذبة زنييرة ١٠٦

- ٢٥-٢٦-٢٧- نهاية أبي لهب - نهاية امرأته حمالة الخطب- نهاية
ولدهما ١٠٧
- ٢٨ - نهاية الوليد بن المغيرة - قبحه الله ١١٥
- ٢٩ - نهاية أبي جهل - فرعون هذه الأمة ١٢٤
- ٣٠ - نهاية الهالك أبي بن خلف ١٢٧
- ٣١ - نهاية عقبة بن أبي معيط ١٢٩
- ٣٢ - نهاية عبد الملك بن قمئة - أقماه الله- ١٣٠
- ٣٣ - نهاية بنى النضير -عليهم لعنة الله- ١٣١
- ٣٤ - نهاية كعب بن الأشرف -لعنه الله- ١٣٤
- ٣٥ - نهاية شيطان بنى النضير «حيى بن أخطب» ١٣٨
- ٣٦ - نهاية زعيم المنافقين: «عبد الله بن أبي بن سلول» ١٣٩
- ٣٧ - نهاية ملك خيبر: أسير بن زارم ١٤٤
- ٣٨ - نهاية كسرى ملك الفرس ١٤٥
- ٣٩ - نهاية القرطاء البكريين ١٤٧

- ٤٠ - جزاء الذين يسعون فى الأرض فساداً ١٤٨
- ٤١ - نزلت عليه صاعقة من السماء فأحرقته ١٤٩
- ٤٢ - رفض أمر النبى - ﷺ - فشلت يده ١٤٩
- ٤٣ - نهاية الأسود العنسى - لعنه الله - ١٥٠
- ٤٤ - ارتد عن الإسلام فردته الأرض ١٥٠
- ٤٥ - نهاية مدعى النبوة مسيلمة الكذاب ١٥٢
- ٤٦ - أصابتنى دعوة سعد ١٥٦
- ٤٧ - انتقام الله لأوليائه ١٥٧
- ٤٨ - هتك الله ستره وقطع يده ١٥٨
- ٤٩ - غضب الملائكة لأولياء الله - عز وجل - ١٥٨
- ٥٠ - يشرب ولا يروى ١٥٩
- ٥١ - حية تدخل فى فمه وتخرج من منخره ١٦٠
- ٥٢ - أراد أن يخيف أنس بن مالك فأخافه عبد الملك بن مروان .. ١٦١
- ٥٣ - نهاية المختار بن أبى عبيد الثقفى ١٦٣

الموضوع	الصفحة
٥٤ - نهاية الحجاج	١٦٨
٥٥ - نهاية الحارث بن سعيد	١٦٩
٥٦ - نهاية المغيرة بن سعيد العجلي	١٧٠
٥٧ - نهاية بيان بن سمعان	١٧١
٥٨ - الجعد بن درهم يضحى به في عيد الأضحى	١٧٢
٥٩ - نهاية أبي منصور العجلي	١٧٣
٦٠ - نهاية غيلان الدمشقي القدرى	١٧٤
٦١ - الجهم بن صفوان وعاقبته	١٧٦
٦٢ - نهاية أبي مسلم الخراسانى	١٧٩
٦٣ - نهاية أبى الخطاب الأسدى	١٨٠
٦٤ - نهاية هذيل بن واسع	١٨١
٦٥ - نهاية نوح الرشيدى	١٨١
٦٦ - نهاية بابك الخرمى	١٨١
٦٧ - نهاية الخيث صاحب الزنج	١٨٥

- ٦٨ - محمد عبد الملك الزيات «أحد الذين سجنوا الإمام أحمد» .. ١٨٧
- ٦٩ - عاقبة ابن هانئ الشاعر .. ١٨٨
- ٧٠ - نهاية علي بن أبي الفضل الحميري .. ١٨٩
- ٧١ - نهاية أبي العلاء المعري - لا رحمه الله - .. ١٩٠
- ٧٢ - نهاية ابن الراوندى الزنديق .. ٢٠١
- ٧٣ - عاقبة أحمد بن أبي دؤاد .. ٢٠٤
- ٧٤ - من رأنى فلا يظلمن أحداً .. ٢٠٦
- ٧٥ - نهاية القاهر بالله .. ٢٠٧
- ٧٦ - عاقبة ابن العلقمي الرافضي الخبيث .. ٢٠٨
- ٧٧ - عاقبة الحلاج .. ٢١٢
- ٧٨ - ابن الفارض والخاتمة السوء .. ٢١٧
- ٧٩ - من جمع أموال الناس بغير حق ملئ قبره ناراً .. ٢٢٢
- ٨٠ - ذبحه الله في المنام .. ٢٢٢
- ٨١ - حية سوداء في القبر .. ٢٢٣

الموضوع	الصفحة
٨٢ - من عاش على غش مات على غش	٢٢٣
٨٣ - نهاية بهاء الله مؤسس البهائية	٢٢٤
٨٤ - نهاية غلام أحمد القادياني «دجال الهند»	٢٢٨
٨٥ - نهاية الرجل الصنم: كما أتاتورك	٢٤١
٨٦ - العبرة بالخوانيم	٢٤٨
٨٧ - غرفة الأحران	٢٥١
٨٨ - مات كما يموت الحمار	٢٥٥
٨٩ - يقتل أمه فيموت بنفس القتلة	٢٥٦
٩٠ - الكأس الأولى	٢٥٧
٩١ - خاتمة محزنة لشارب الدخان	٢٦١
٩٢ - جزاء من لا يصلى	٢٦٣
٩٣ - الشيخ القحطاني يخرج من القبر فرعاً	٢٦٤
٩٤ - أطاع والده وعصى ربه	٢٦٤
٩٥ - صاحب الروائح الكريهة	٢٦٦

الموضوع	الصفحة
٩٦ - عاقبة الزنا والفجور	٢٦٧
٩٧ - ثمرة البعد عن رب العالمين	٢٦٨
٩٨ - نهاية محمد بن عبد الله القحطاني الذي ادعى أنه المهدي	٢٦٨
المتنظر	٢٦٨
٩٩ - عاقبة الظلم وخيمة فاخذره	٢٧١
١٠٠ - جزاء من عرض بالنبي - ﷺ	٢٧٦
الفهرس	٢٧٩